أبو العباس

(رباعية بحري ١)

محمد جبريل

أبو العباس

(رباعية بحري ١)

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

أبو العباس

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٢٠٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

القيراط الخامس والعشرون	٧
الليل	١٣
الواحد نصفان	٢٣
في حضرة السلطان	٣١
متى يأذن الله؟	٣٩
حقيقة ما جرى للصياد جمعة العدوي	٤٩
الأسطى مواهب	٥٧
قهوة كشك	٦٥
فلنعبر النهر أولًا	٧٥
في قهوة مخيمخ	٨٣
أولى مراتب السالكين	٩١
عنترة يسترد جواده	٩٥
السائر إلى الله	١٠٣
الحال يسبق المقام	١١١
الإمام يفض الحفل	١١٥
المأزق	١٢١
الباب المغلق	١٢٩
بعيدًا عن الشاطئ	١٣٥
الحلقة	١٤١
يا مريدي ... لا تضق بي!	١٤٧

المرأة الجميلة ذات الذيل المتهدل ١٥١
البحر ١٥٧
ارتحال ١٦٣
الظل ١٦٧
حنين ١٧٣
الغوث ١٧٧
الليلة الكبيرة ١٨٣
اليقين ١٨٩
مكاشفة ١٩٥

القيراط الخامس والعشرون

في اللحظات التالية لأذان الفجر من زاوية الزواوي، الضوء الذي يصدُر عن نافذة الجدِّ السخاوي، المقابلة، يتكسر عبر شيش نافذته، على جدران الغرفة الواسعة لدقائق، ثم تسود الظلمة. السعي إلى الزاوية من صفر باشا وشارع جودة والمسافرخانة وفرن حبيب والأزقة المتفرعة، ربما حتى سراي رأس التين، الهمهمات، الدعوات، البسملات، الحوقلات، الأصوات المتحادثة — مهما تلفَّعت بالهمس — فإنها تصل إليه — خلل الصمت والظُّلمة — واضحةً، رائقةً، يتلاشى كل أثر لضوء، فيما عدا الأضواء الباهتة المنبعثة من ثقوب الزاوية؛ بابها الصغير، ونوافذها التي يغطِّيها وجه إنسان. كتل الظلام تلفُّ الناس والأشياء، حتى الظلال تختفي، تستسلم المساحات العريضة والزوايا والأركان والجزيئات والذرات، بعد الأذان مباشرةً — ظاهرة تحيِّره — لظُلمة كثيفة، ممتدة، تلغي الملامح والتفاصيل، ربما يصحو على إيقاع جياد الملك في شوارع الحي ساعةً وتعود إلى السراي، ينصت — في موضعه على السرير — إلى الابتهالات والاستغاثات والتسابيح تتناهى من مئذنة أبو العباس.

في هذه اللحظات يعدُّ نفسه للخروج، يعلو بكتفيه وأعلى ظهره، يحرص ألَّا يسعل أو يعطس حتى لا يصحو الأولاد في الغرفة الملاصقة، تواجه عيناه تكسُّرات الضوء المتسلِّلة من شيش النافذة، تتشابك أصابعه وراء ظهره، ينسحب الضوء وتحلُّ الظلمة، أزعجه في البداية ألَّا ترى عيناه — مهما أطال التحديق — شيئًا على الإطلاق، ثم اكتفى بالنظر في اللاشيء أمامه وحوله، حتى الثياب المعلَّقة التي تبدو — بتداخل النور والظلمة — أجسادًا ضائعة الملامح تذوب في حضن السواد القاتم، ينتبه إلى صوت إغلاق الشيخ وهيب، خادم الزاوية، للباب والنوافذ، فيهبط من جانب السرير دفعةً واحدةً إلى أرض الحُجرة، الجانب نفسه الذي صعد منه، ربما الحظ يواتيه.

ارتدى فانلة رقيقة تنتهي إلى الكتفين، مفتوحة على الصدر والظهر والذراعين، وسروالًا من التيل الأزرق، ودسَّ قدميه في حذاءٍ من التيل الأبيض.

قبل أن يميل إلى باب الخروج اتجه إلى حجرة الأولاد، قال للمرأة المستلقية في طرف السرير: اليوم أحسن؟

وهي تعدل رأسها على المخدة: الحمد لله!

– تريدين شيئًا؟

– سلامتك.

علا صوتُه بالتذكر: كما قلت لك في الليل: لا يلعب الأولاد خارج البيت ... قد يتدخل الجيش ضد المظاهرات.

لطمته هبَّة هواءٍ وهو يفتح باب البيت من الداخل، فضَّل — اتقاءً لبرد الصباح الخريفيِّ — أن يختصر المسافة، اتجه إلى الحارة الموازية لطريق الكورنيش، خلف مطاحن شيمي بك وسينما الأنفوشي.

حرص، فلم ينظر إلى الوراء، حتى يطرد النحس عن نفسه، تعرَّج به السير في حوارٍ وأزقة، اقتحمت أنفه — في اقترابه من الشاطئ — ملوحة البحر، ورائحة الطحالب والأعشاب والأسماك الميتة على الرمال. على ناصية الحجاري لمح قطًّا أسود، غاب في شارع خير الله بك، المتفرع من السيالة، تفاءل، ومضى إلى الوسعاية المترَّبة المقابلة لدكان محمد صبرة الحلاق.

أعاد النظر.

أنسية؟!

عرفها من مشيتها المنكفئة الطفلة، مالت من الوسعاية إلى شارع ابن السعادات، التقى بها — من قبل — ثلاث مرَّات، وربما أربعًا، فاصلت في شروة من حلقة السمك، اشترت أُقَّة بسارية في المرَّتين اللتين رضيت فيهما بالثَّمن، هزَّت رأسها بالرفض، فيما تلا ذلك، ومضت. سمع في قهوة الزردوني عن تردُّدها على بيوت العزَّاب، وعلاقاتها فوق الأسطح وداخل الأكشاك الخشبية في ليل الأنفوشي، رآها — ذات مساء — تدخل البيت المهجور في شارع سليم البشري، أدرك أن أحاديث القهوة صحيحة، فاستعاذ بالله ونفض رأسه.

وهو يدنو من معسكر خفر السواحل سار وراءه كلبٌ مجهول، لخطوات، ثم اختفى، فازداد تفاؤله.

دونًا عن الشاطئ كله، عن الشواطئ كلها، اختار — ذات صباحٍ لا يذكر تفاصيله — هذا الشريط الساحليَّ الضيِّق الممتدَّ إلى ما بعد قلعة قايتباي، تعزله عن الشوارع والمارَّة

والأعين أسوارُ المساكن، المياه التي يخنق لسان الميناء الشرقية — بارتفاعه — أمواجها، قبل أن تصل إلى الشاطئ الذي تقلُّ فيه الرمال، وتزداد الحجارة والزلط والحصى والأوساخ، يقذف بها من وراء أسوار المساكن، مع هذا، اختار الطريق الحجريَّ الممتدَّ الضيِّق، يتوازى في جانبيه مياه البحر وجدران البيوت.

كانت المنطقة — إلى ما بعد انتهاء الحرب بأشهر — محظورةً على الصيادين، يشغلها جنود الإنجليز والمدافع المضادَّة للطائرات والأضواء الكاشفة.

خلع جلبابه وحذاءه، وشدَّ الصديري، ورفع السروال إلى ما فوق الركبتين، خطا بقدميه في الرمال المبتلَّة، يعاني قطع الحجارة والأصداف المتكسِّرة والطحالب والأعشاب، خاض في المياه، فلا يبعد — إلَّا بخطوات — عن الشاطئ، ورنا إلى الأفق الضبابي.

لَمَّا صادف السمانات الاثنتَي عشرة في المكان نفسه باعها إلى أمين عزب، عدَّ النقود ستَّ مرَّات، أنكر — في عصر اليوم — على الحاج قنديل شتائمه التي لا تنتهي.

اختلج شارب الحاج قنديل: أصبح للجربوع صوت يرفعه.

وهو يغالب التوتر: أنا لم أدسْ لك على طرف.

اهتز الحاج في كرسيِّه: وهل أنتظر؟!

أعطى الحاج ظهره، وانتظر أفواج السمَّان ثاني يوم، في الموعد نفسه ... لكن الشهر اليتيم بين الشهور خذله، وانتهى، غابت أسراب السمَّان، فاجأته الأيام بالشبكة الخالية، رسم التأسُّف والمسكنة: غلطة يا حاج ... ولن أكرِّرها!

قبل أن يرتِّب الكلمات ويفتح فمه رفع الحاج شفتَيه من مِبسم الشيشة، وابتدره في غضب: أنت من صبياني يا ولد؟

همس بلهجة متذللة: خدامك يا حاج.

أسند مِبسم الشيشة على كتفه: اسمك؟

– علي ... علي الراكشي.

عدل الحاج قنديل النظارة المقعَّرة فوق أنفه: وماذا تعمل هنا؟ كل البلانسات في البحر!

لم يتذكره الرجل، لم يعرفه، المملكة تشغي بالرعايا، العشرات يعملون — بأمواله وتحت سطوته — في ورش المراكب، والصيد، والبيع بالجملة والقطاعي، والدخول في مزادات الحلقة، لم يفتعل — في السنة التالية — خناقة، غاب عن البلانس، وعن الحلقة، وانتظر أفواج السمَّان في الشريط الساحليِّ الضيِّق.

ثم لم يعُد ينتظر — في سبتمبر وحده — غلالات السحاب الطائرة.

بالمصادفة سأله أمين عزب عن السمَّان.

قال: لسنا في سبتمبر.

في لهجة مشجعة: مارس موسم السمَّان أيضًا.

أضاف رحلة العودة في مارس الملتفِّ بالأمطار والأنواء والرياح والبرودة، إلى أيام الغياب عن البلانس، والحاج قنديل، واللقمة التي — بالكاد وبالإهانة — يحصل عليها، امتدت شهرًا ثانيًا أيامُ الوقوف في الشريط الساحليِّ الضيِّق، إن نسي ذكَّره الباعة في الشوارع، ينادون: كواليا ... الزوج بقرشين.

ومضت عينا أمين عزب بابتسامة مشفقة: ألم يكُن من الأوفق أن تظلَّ مع الحاج قنديل.

جاشت مشاعره: الحاج قنديل يقاسمنا في كل قرش.

وغلب صوته تهدُّج: حتى صياد السنارة يشاركه رزقه.

لم يعُد السمَّان — في العام نفسه — اكتشافه الوحيد، ربما لا تأتي إلى الإسكندرية — إلى شريطه الساحليِّ بالذات — كل الطيور الوافدة والراحلة، كلَّمه الجدُّ السخاوي عن مواعيد قدوم طيور الفصول، ومواعيد ارتحالها؛ العصافير، الدقناش، سمَّانة الغرب، النورس، الخنشع الزيتوني، فرخة الغيط، الوردار، الحسيني، الكحلا، أبو فصادة، أبو ديل، الغر، الخضاري، الكيش.

قلَّ اهتمامه بصيد الأسماك؛ بمواعيد هجرتها، قدومها ورحيلها، المناطق المباحة والممنوعة، مناطق التكاثر والجدب، النوَّات التي يصعب — حين تأتي — أن تخرج البلانسات إلى عرض البحر، ركَّز همَّه في صنع شبكة تحتضن أسراب السمَّان المتعب. إذا جاوزت البحر وحطَّت على قاربٍ أو جدارٍ أو حجر، استراحت تنفض عنها التعب، تطير، تواصل الهجرة، الشبكة التي تتقلَّص عليها يداه، فخ النهاية في الرحلة التي لا يدري أين، ولا متى، ولا كيف تبدأ.

دله قاسم الغرياني على المكان، لنشر الغزل ورفو ثقوبه. الصمت الذي يعمِّقه تحرُّك ذرات الرمل فوق المياه الهادئة عزله في جزيرة مهجورة. الأصابع المدرَّبة تلضم الثقوب المتهرئة الواسعة. الخيوط الرمادية تسبق قُرص الشمس في صعوده من الأفق. أسراب النورس تطير إليه في سرعة مذهلة، كأنها تنوي اختراقه.

تساءل بينه وبين نفسه: لماذا الطيور لا تواجه الأمام في تحليقها؟ لماذا تكتفي بنصف الدائرة، ثم تعود — ربما — في الطريق المضاد؟

تنبَّه إلى ما يشبه الريح المفاجئة.

غادر جزيرته المنعزلة، انتتر من جلسته لمرأى أسراب السمَّان، كادت تلامس المياه في طيرانها، اصطدمت واحدة بأعلى كتفه، طارت في نصف دائرة، ووقعت على الأرض، أمسك بها — بيديه — قبل أن تفيق وتعاود الطيران. في اللحظة التالية قام بطوله، فرد ذراعيه مضربَين يلقفان الأسراب الوافدة، يهبطان بها إلى الأرض، يغيبانها تحت الشِّباك المفروشة، شغلته الحكاية، فلم يعرف عدد السمَّانات إلَّا عندما عرض عليه أمين عزب شراءها.

سألته أمُّ الأولاد مشفقة: هل تنوي ترك مهنتك؟!

حدجها بنظرةٍ غاضبة: أنا؟!

– نحيا على نقود الطير معظم أيام السنة، ولولا الحاجة ما نزلت البحر.

أردفت في توجس: إذا غضب منك الحاج قنديل، لن يقبل بقية المعلِّمين أن يتعاملوا معك.

علا صوتُه: هل أظلُّ العمر تحت قدمَي الحاج زفت؟!

ثم وهو يهزُّ إصبعه: لو لم يحقِّق صيد السمَّان ما في رأسي، فسأعود صياد سنارة؛ أصطاد حتى في الشواطئ الممنوعة.

حين انتظر الحاج قنديل — في الصباح الباكر — على باب الحلقة، كان ضباب اليأس يحجب الرؤية أمامه، امتد الممنوع في أعوام الحرب، شمل الساحل بأكمله، غاب الحاج بين الطبالي، وجرادل الماء، والثلج، والأجسام المنحشرة، والمزادات، والمساومات العلنيَّة والجانبيَّة والهامسة والتي يقطر فيها العرق، والقبول، والرفض، والصهينة، ودفاتر الصادر والوارد، ومباحث التموين، والأكواب المترعة بدم الترسة، ورائحة الأسماك التي تأخَّر حفظها في الثلاجة.

نبهه حمودة هلول إلى وجود الحاج.

لا يذكر الكلمات التي قالها، وإن يذكر هزَّة الرأس الموافقة.

وعاد إلى البحر.

كان الوحيد — بين المتعاملين مع الحاج قنديل — الذي ظلَّ في المدرسة إلى الثالثة الابتدائية، وقرأ القرآن، وتعلَّم سماع نشرات الأخبار، وقراءة الصحف، وكشف ما يغمض عن سائليه من أمور السياسة.

تعلم صيد الإسفنج تجربته الثانية.

غاص إلى أعماق بعيدة، من العجمي — غربًا — حتى السلوم، ميَّز — بعد شهور — أنواع الإسفنج؛ التركي كب، هاني كوم، الزيموكا، ثلاثة أنواع رئيسية يحرص عليها ويهمل

الباقي، جرت النقود — لفترة — في يديه، لكن المشهد القاسي هجر به المنطقة كلها؛ فتحي عبد ربه صعد من الماء مشلولًا، نزل إلى الأعماق ما يزيد على الأربعين مترًا، واجه شيئًا لم يتبيَّنه الرجال، بعد أن أخرسه الشلل، شيئًا قاسيًا مفترسًا، دفعه إلى الطلوع من الماء بسرعة، الحقيقة التي يعرفها صيادو الإسفنج — بتأثير الفزع — نسيها، طلوع الأربعين مترًا مرَّةً واحدةً أضاع توازن الدم، فشل الجسد.

– أريد أن أشتري قاربًا قبل أن يحلَّ شتاءان ... لا أحلم بالنعيم ... لكن عشرين عامًا في البحر تعطيني الحقَّ في أن أكون حُرَّ نفسي.

القارب والطراحة وهجر السنارة، حلم الأب الذي مات بموته، غالب الدمع وهو يتسلم أوراق انتقاله إلى الرابعة الابتدائية، من بين عشرات الرؤى المبهمة والباهتة الملامح تطفو هذه الصورة بالذات: خطوات الأب التي أتعبها التنقُّل بين الشواطئ تبطئ في المنطقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلي، يضع البوصة والغلق على سور الكورنيش، يتنهد في حزن هادئ، يغمض عينيه، كأنه يتهيأ لنوم.

– أحيانًا لم أكن أستطيع تدبير إيجار الشقَّة، أجمعه بالسلف حتى ألبِّي الطرقات المزعجة أول كل شهر.

المائة والثلاثون قرشًا — إيجار الشقة — كانت — قبل الحرب — مبلغًا وقدره، الشواطئ كلها مفتوحة، المبلغ — الآن — يقلُّ عن إيجار غرفة في أسطح بيوت السيالة، لكنه يعاني صعوبة تدبيره.

– المصيبة أني أكلِّم نفسي ... فماذا تفهم امرأةٌ غبيةٌ مثلك؟!

أقسى ما في الأمر أنه يفكر ويخطط ويحلم بالتنفيذ، جيشان أعماقه سرُّه الذي لا يدري به أحد، حتى المرأة همُّها اللُّقمة والمستقبل الذي لا يجاوز ظلَّها.

تكاثفت المتاعب، فاختفت الظلال، وحلَّت العتمة، أطال الوقوف يحدِّق ويتلو الآيات والأدعية ويرهف السمع، لكن الظلمة الساكنة لم تغادر داخله ولا حوله.

عاود التحديق في اللاشيء، وإن غادرت عصافير اللوحة على الحائط إطارها، صفقت بأجنحتها، طارت في سماء الحُجرة، صنعت أشكالًا وتكوينات، علت أصواتُها بشقشقةٍ عذبة.

الليل

اعتاد التردُّد على الجامع لأداء صلاة المغرب، يا دوب ينهي اليوم — قبلها — في قهوة الزردوني، منذ الصباح يشتري ويبيع ويصيح ويتعارك ويفاصل ويساوم. في موسم السمَّان وطير البحر يعود إلى القهوة أو إلى البيت، إذا باع من شروات الحلقة، يجلس إلى الحاج قنديل — بعد أن تخلو الحلقة — يتحاسبان، فيأخذ ماله، ويعطي ما عليه، يغادر الحلقة — بعد أن يربِّط على شروة اليوم التالى — إلى قهوة الزردوني، يلعب الدومينو والكوتشينة، يناقش أحوال البحر والصيادين، وما يطرأ على الأنفوشي ويغيب عنه، يدعو الرجال إلى الغداء ويدعونه إليه، ربما تأخَّر في العودة، فتسبقه الصلاة، يلمح قهوة «مخيمخ» خاليةً من أصدقائه، فيواصل السير إلى أبو العباس، يتأمل — دون تنبه — حركة الميدان، يصعد الدرج الرخاميَّ إلى الباب الملكيِّ المطلِّ على ميدان المساجد، يشقُّ السبيل بين المصلين والساعين إلى المقام، والذين يفضِّلون المذاكرة في صحن الجامع.

تبدو — كصورةٍ ثابتة — جلسة الإمام على كنبة المبلِّغ، أمامه وحوله أنصاف دوائر من المصلين، اعتادوا الجلوس إلى الإمام بعد صلاة المغرب، تمتدُّ الجلسة إلى أذان العشاء، والنجفة الهائلة وسط الصحن ترسل دفقات من النور، تتحدد بين مساحات الظلال التي صنعتها نصف الدائرة قبالة الإمام، واللمبات المتناثرة في الأركان تصنع ظلالًا بأجساد الواقفين والجالسين.

أَلِف التردُّد على الجامع، والمجاوزة — دون التفات — إلى الميضة، يغتسل ويتوضأ ويسعى إلى الجدار القريب، مغمض العينين كالمتأمل، لا يشغله الطنين الصاخب تعمِّق صداه الجدران، الأصوات الداعية والمسبحة والقارئة تتردَّد في البهو الفسيح، تصطدم بالجدران العالية، والأعمدة يتردَّد لها صدًى، رنينٌ لا يستمع إليه في مكانٍ آخر، تردد على ياقوت العرش والبوصيري وعلي تمراز ونصر الدين، يبدو الصدى في أبو العباس مغايرًا

بما لا يستطيع أن يحدِّده، تطول به الجلسة إلى صلاة العشاء، منفردًا، يتأمل المقرنصات والزخارف والنقوش في الأبواب والنوافذ والأسقف، والأعمدة الرخامية الهائلة، والعقود المحمَّلة بالجفوت والصنج والخناصر، أو يلمحه صديق، فيتسامران، لكن الصمت السادر الذي كانت أنصاف الحلقات تتابع به حديث الإمام دفعه إلى القعود قريبًا.

لم يعِ كل ما تعنيه كلمات الإمام، وإن تأكدت خطورتها في إضفاء الإمام جديَّة على ملامحه، ومصمصات الشفاه المتناثرة، وضح التأثر عميقًا في أنصاف الحلقات، استهوتهم الرحلة التي صحبوا فيها كلمات الإمام، فتشوا — لما تهيَّأ، كالعادة، لتلقي الأسئلة — عن غير المألوف، وما يبعد عن نطاق الحديث.

استأذن عبد الرحمن الصاوي، فأعطاه الإمام اهتمامه.

كان يحرص على الجلسة المسائية، ينصت، ويتابع المناقشات، وإن لم يحاول السؤال يومًا.

خصَّه الإمام بنظرة مشجِّعة، فقال في صوته الهادئ: ما حكم الدين في مَن يواجه ابنه بالقول: لست ولدي؟

قال الإمام: إذا كان هو الأب الحقيقي، يقام عليه الحد.

خالط صوته قلق: وما الحد؟

– الجلد!

تساءل عم سلامة: ومَن هذا الأب الظالم؟

قال الإمام: هل لا بدَّ أن ينطبق السؤال على حالةٍ بالذات؟!

قطع عباس الخوالقة اتصال الصمت: هل يحلُّ للرجل أن يتزوج حماته؟

همس الإمام بإشفاق: وما يدفعه إلى هذا الغلب؟!

قال الخوالقة: عطية سرور، تاجر العطارة في شارع الميدان، طلَّق زوجته وتزوَّج أمَّها ... ناقشناه، فأكد مشروعية الزواج.

قال الإمام: زواجه من الأمِّ صحيح إذا لم يكُن قد دخل على الابنة؛ بمعنى أنه إذا تزوج المرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فإنه — إن شاء — تزوج أمَّها.

قال الخوالقة: مضى على زواجه من الابنة شهران ... فهل من المعقول ألَّا يكون قد دخل عليها؟

قال الإمام: ألزم الله طائر كل إنسان في عنقه.

خالط تردُّد مرتبك صوت الحاج محمد صبرة: هل تختلف شهوة الرجل عن شهوة المرأة؟

قال الإمام وهو يهزُّ رأسه: الرجل له شهوة واحدة، أمَّا المرأة فلها تسع شهوات.

أردف في تحذيرٍ باسمٍ: اليود الذي تشمُّه المرأة مع هواء البحر يغطِّي جسمها بالشهوة، فلا تهمل امرأتك وإلَّا خانتك!

ترامى صوت من صفٍّ خلفيٍّ: هل يساوي الله في العقوبة بين اللوطيِّ والزاني؟

قال الإمام: الفعل متشابه، والعقوبة واحدة ... وربما عقوبة اللوطيِّ أشد.

أضاف كالمتنبه: أذكِّرك بأن الملك جبريل اقتلع مدينة سادوم التي كان قوم سيدنا لوط يرتكبون فيها الخبائث، وحملها على طرف أحد أجنحته، وحلَّق بها إلى علوٍّ شاهق ... ثم ألقاها كأنها ورقة!

ثم وهو يضغط على الكلمات: قبر اللوطيِّ يلفظه فور الدفن، ليخلد في نار جهنَّم!

غمز عم سلامة بعينه: معظم القبور إذَن خالية من أصحابها!

عبره الإمام بنظرته، اتجه إلى الأصابع المستأذنة في أسئلة أصحابها.

– أين صاحبنا حمادة بك ... يومان لم نرَه؟

قال الحاج محمد صبرة: زرته عصر اليوم ... إنه بعافية.

التقط الإمام من فمه سنًّا مكسورة، تأملها، ثم أعادها: انصحوه بأكل التفاح ... فهو يدبغ المعدة.

قال الحاج محمد: أخذ حمَّامًا ساخنًا، ونزل إلى الطريق.

قال الإمام: عليه بالسفرجل إذَن ... إنه قوة للقلب الضعيف والمعدة التي تعاني.

استطرد متذكرًا: وانصحوه بالملح ... لو علم الناس ما في الملح، لاختاروه على الترياق المجرَّب.

اطمأن إلى تلهُّف الحاضرين لما يفيد، فقال: تناول الملح بمقدار مفيد ... لكن لا تديموا أكل السمك ... إنه يذيب الجسم ... إذا ضعف المسلم، فليأكل اللحم باللبن ... ألبان البقر دواء، فإن ألحَّ عليه المرض وتناول إحدى وعشرين زبيبة حمراء ... فلن يغلبه المرض!

بعد صلاة العشاء تأخر في مغادرة الجامع، تأخر كذلك عشراتٌ من المصلين، انتظم معهم في صفَّين متقابلين، تسلموا نسخًا من البُردة مطبوعة بخطٍّ نسخ، مشكولة بشكل واضح، بدأ الجميع في تلاوتها بصوتٍ خفيضٍ في البداية، علا وعلا حتى انتهى إلى نغم متماوج:

هو الحبيب الذي تُرجى شفاعته
لكل هولٍ من الأهوال مقتحمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ
وأنه خير خلق الله كلهمِ!

ارتفع الإيقاع بالذكر، وأُطفئت الأنوار، وتعالى النداء: الله حي! الله حي!

البداية قرارٌ مطمئن، هادئ: بسم الله الرحمن الرحيم ... فاعلم أن لا إله إلَّا الله!

تماوجت الأصوات بهمس، والرءوس تهتزُّ في أماكنها، والأجسام ساكنة، ثم تحركت الأجسام وانتفضت واقفة، علت الأصوات، وازداد التطوُّح، ثم انتتر الذاكرون إلى فوق بآخر ما عندهم، نتراتٍ متلاحقةً متتالية، هدأت، وهدأت الأصوات، وعادت الأجسام إلى الأرض، واهتزت الرءوس في أماكنها، وعادت الأصوات إلى التماوج بالهمس.

تأتلف الحركة وتنسجم، يعلو الإيقاع، ترافقه — ثانيةً — هزَّات الأجساد والأيدي المتطوِّحة: هو ... حي ... قيوم ... حق ... قهار ...

ترتفع التنهُّدات والصرخات والتشنُّجات، يطيب الوقت، يكاد الأمر يفقد ترابطه، ترتفع — في وقتها — صيحة الانتهاء ممدودةً، عريضةً، عالية: الله، إشارة الانتقال إلى طبقة عالية، يكبس الشيخ أيديهم وأرجلهم، يقيمهم على بركة الله، تسكن الحركة، وتهدأ الحواس، ويتهيَّأ الذاكرون لطبقةٍ أخرى من ترديد لفظ الرحمن الرحيم.

خطر له أن ينضمَّ إلى الطريقة الشاذلية، الدرجات صعبة؛ المريد، المقدَّم، النقيب، الخليفة خاتمة الدرجات الروحية، لو استطاع أن يقطع الدرجات إلى آخرها، يعرف الأسرار والرموز والدلالات والإيحاءات والإشارات والمشكاة والزيتونة والنوم على المسامير والزجاج المتكسِّر، تخضع له الثعابين والحيَّات، فيطلقها على مَن يسيئون إليه، ويجنِّب أذاها المحبِّين، يمتطي الحصان في الجلوة، حوله المريدون والأتباع، ذوى الخاطر — بتوالي الأيام — فاكتفى بالمشاركة في الحضرة، وترديد الأناشيد، والسير وراء جلوة الخليفة، والإخلاص في حبِّ آل البيت والصحابة والأولياء والتابعين.

فكر في الميل إلى شارع سيدي ياقوت العرش، اعتاد الجلوس إلى عم جابر برغوت، خادم الجامع، يسأل، ويجيب الرجل، يجد في مجلسه تعاطفًا ومؤانسة.

اجتذبته — من بُعد — أنوار وأعلام ونوافذ مفتوحة وشرفات يطلُّ منها نساء وأطفال، وصوت حودة بدران شهب تخترق الليل.

دخل السُّرادق في الناحية المقابلة للبيت، ضخم، علقت أمامه وفي داخله التعاليق والنجف واللمبات الملونة والرايات الحمراء والخضراء، يتوسط نهايته منصَّة خشبية،

يجلس فوقها العوالم، يقابلها صفوف من الكراسيِّ والدكك الخشبية، وفُرشت المساحات الفاصلة بالسجاد الأحمر.

حيَّا وجلس، وشكر على السيجارة وكوب الشربات.

العوالم على دكتين في نهاية السرادق، تفصل بينهما ترابيزة عليها الشموع والمرطِّبات.

تبيَّن — بنظرةٍ جانبية — أن محيي قبطان يجلس في الكرسيِّ الملاصق، حيَّا وسلَّم، وتمتم بعبارات مجاملة.

همس محيي قبطان في أذنه: أخيرًا ... تزوجت بنت الحاج قنديل!

وضع راحته على جانب فمه، وحرص على خفوت صوته: هل كانت عانسًا؟

– بالعكس ... النساء يتحدثن عن جمالها وبياض لحمها، لكن الحاج أصرَّ ألَّا تراها عينٌ قبل الزفاف ... فإذا سُئل، قال: إنها تشبهني ... وأنت تعرف نصيب الحاج من الجمال.

ابتسم، فكشف عن أسنان مفلوجة: وهل وافق العريس على الشرط؟

قال محيي قبطان في صوته الهامس: يتزوج أموال الحاج لا ابنته!

أعطى انتباهه لصوت حودة بدران يلعلع، فيغطِّي على الأصوات الهامسة، المتلاغطة، المتشابكة، يشغي بها السُّرادق الواسع.

قاعد على الرمل وحدي في عز ضهرية،
الشمس قدحت دماغي ... يا ناري يا عنيه،
ومن هوا البحر ما شعرتش بحنية،
تلسعني نار الجفا ... تحرقني ... أتلوَّى،
يا حلو عطفك لروحي ضل شمسية.

طالت الجلسة، أيقظه الوصول المفاجئ لموكب العريس، كان قد أتمَّ دورته السباعية في ميدان أبو العباس، يطلب الإذْن من السلطان، سبقته الموتوسيكلات والسيارات المصاحبة والهتافات والزغاريد وطلقات الرَّصاص والنقرزان بالسروال الفضفاض والصديري المزركش، ينقل العصا الطويلة، ذات العمامة الملونة، بين جبهته وذقنه وأنفه وكتفه وأطراف أصابعه، دون أن يمسكها بيده، يرافقه مساعداه بنقرات منتظمة على طبلتين علقتا فوق صدريهما.

توقفت السيارة في أول الطريق، نزل العريس إلى حلقة الأصدقاء.

هتف حودة بدران: الحارس الله والصلاة على النبي ... يحرسك يا عريس.

أضاف الأصدقاء: وانت أونطجي!
وهتف حودة بدران: ياما انت صغير.
أضاف الأصدقاء: حلو يا عريس!
وتعالت الأصوات منغمةً، يرافقها تصفيق:
اقروا الفاتحة لابو العباس ... يا اسكندرية يا أجدع ناس.
وترامى — من الشرفة المطلَّة على السُّرادق — صوت العالمة تغني:

قطعني حتت، أنا ملك إيديك،
وعينيه حكت ... حكت لعينيك،
آه يا وله ... يا وله!

توقفت عربةٌ على ناصية الساحة المقابلة للبيت، مزدانة بالشيلان الكشميري والورد والأزهار، يجرُّها أربعة جياد، ويخفرها الأولاد، استقبل العريس عروسه في عودتها من الحمام، مانعت — في البداية — وتأبَّت، كما تقضي الأصول، ثم سارا إلى داخل البيت، خلف ستار من الشيلان الكشميري، فلا يراهما الناس، يتناثر فوقهما الملح والبدور؛ قطع صغيرة من نقود ذهبية وفضية، تسبقهما الزغاريد وزفة العوالم وأبو الغيط وأولاد عبد السلام.

اختار لخطواته أن تميل إلى شارع البوريني، ومنه إلى الساحة الواسعة قبالة حمام الأنفوشي.

كان يعلم أن عم محجوب، حارس الحمَّام، يفتح أبوابه أثناء الليل للمعارف، يغادرون البيوت إلى الحمَّام، فإلى أبو العباس، أو المساجد الأخرى القريبة، ليتجهوا — من بعد — إلى الشاطئ.

لمح النوافذ مضاءة، فتأكد حدسه.

تفحصته — للحظةٍ — عينا عم محجوب: علي الراكشي! من البيت أم إليه؟

قال علي الراكشي: في الشوارع من أول الليل.

أطلق عم محجوب ضحكة قصيرة من أنفه: أغضبتك المرأة؟

قال الراكشي: سرقني الوقت بين الذكر في أبو العباس، وزفاف بنت الحاج قنديل.

دسَّ في يد عم محجوب قرشًا، ناوله الرجل صابونة مستعملة وفوطة.

تعالى صوتٌ من خلف أحد المربعات: لن تذهب إلى الحلقة إذَن هذا الصباح.

ميَّز صوت قاسم الغرياني.

لأن الجنَّ يتخذون من الحمَّامات مأوًى لهم، فقد استعاذ بالله من أذاها وهو يخطو على عتبة المدخل، بادئًا بالقدم اليسرى.

بدا المكان ملتفًّا بضباب الماء الساخن من الأدشاش، وفي المربعات المتلاصقة بطول القامة.

قال الراكشي وهو يغالب ابتسامة: أستطيع — بحول الله — أن أظلَّ ثلاثة أيام بلا نوم.

وقال لأصوات الرجال المتلاغطة داخل المربعات: كلما وجدتكم بربطة المعلم في الحمَّام، عرفت أن حالكم واقف.

قال قاسم الغرياني: نحن في يد النوَّة، تذهب فنركب البحر، وتأتي فنأتي إلى الحمَّام، أو نجلس في القهوة.

تناهى صوتٌ من المربع الأخير: هل عرفتم ما حدث؟

أدرك حمودة هلول أنه أسرف في تصنُّع الجديَّة، فغاب الهدف الذي أراده، قال في سرعة ليبدد المشاعر المتباينة: شفيقة غراب ماتت!

قال قاسم الغرياني: حسبنا أن الحرب عادت.

أضاف سيد الفرَّان: أو أن الملك فاروق هو الذي مات!

اطمأنَّ هلول — بأصابعه — إلى غياب الصابون عن وجهه: موت شفيقة غراب ليس حدثًا عاديًّا … لها الفضل في متعة الآلاف.

ولوَّن صوته: وحلِّ عُقدهم أيضًا.

قال سيد الفرَّان: المرَّة الأولى التي زرت فيها كوم بكير، كنت واحدًا في طابور، والمرأة تستند إلى جدار، تعطي اللذة في دقائق.

قال الغرياني: وما شأنك أنت بعالم الرجال؟ جاوزت الثلاثين ولم تتزوج، فهل أفشي السر؟

قال سيد: أنا أقفز وأجري، لا حاجة بي للزواج!

قال الغرياني: أشهد لك بالتفوق في العادة السرية، وإن كنت أثق أن هذا هو آخر تفوقك!

قال دياب أبو الفضل وهو يسلم جسمه إلى الماء الساخن: آخر الأنباء: حمدية بنت توفيق الرشيدي … فرَّت مع عم شاكر فرَّاش مدرسة الحجاري.

علت في مربع الغرياني صيحة دهشة: لا أصدِّق … الرجل خطوتين والقبر!

قال دياب أبو الفضل: أغواها بكلماته المعسولة.
قال الغرياني: البنت بكر ... بخاتم ربها!
قال خميس شعبان: كنت أبيع لها كوبًا من دم الترسة ... مرَّتين كل أسبوع.
قال الغرياني: لذلك فجسمها بلا عظام!
قال سيد: يا بخته الملعون ... فتاة كاملة الدسم!
قال خميس شعبان: عندي لك عروس أشهى منها.
قال عم محجوب دون أن يزايل مكانه في مدخل الحمَّام: إلحقه بها يا خميس ... وإلَّا تزوَّج على روحه!
وشى صوت سيد بالغضب: وهل شكوت لك يا شقيق فرعون؟!
قال خميس شعبان: لا تغضب من سيد يا عم محجوب ... إنه منا وعلينا.
ثم بنبرة معاتبة: يا سيد ... تقسو على عمك محجوب وهو في سنِّ أبيك؟!
قال سيد: إنه دائمًا يرقص في مركبي.
قال خميس شعبان يبدل اتجاه الكلام: البنت التي اخترتها لك ... لم تذُق شفتاها طعم شفاهٍ أخرى غير شفتَي أمِّها.
سأل الغرياني في اهتمام: مَن البنت يا خميس؟
قال خميس شعبان: صفية بنت المعلِّم محمد كسبة صياد الجرافة.
قال الغرياني: بنت شاطرة ... بها عِرق دمياطي.

دفع الباب الخشبيَّ بجانب كتفه، كانت يداه مشغولتين باحتضان «الغلق» الخالي، ندَّ عن الباب صرير، عمق الصمت الذي ساد المكان، تداخل بالظُّلمة والخواطر الجهنميَّة التي تسلَّلت — في الليل — إلى رأسه، فأحسَّ بالرضا.
دندن بصوت خفيض:

وانا مالي ما هيه اللي قالت لي روح اسكر وتعالى ع البهلي

شدَّه الضوء الصادر من الحمَّام، تعجَّب لسهو المرأة، أو لخوفها. اتجه إليه ليطفئه.
علت الدهشة بصوته: تغسلين في الفجر؟!
سبق انتظاره للجواب شهقة المرأة.
ضحك: خفتِ؟

وهي تغالب الارتباك: الدنيا ليل ... لم أشعر بصوت المفتاح في الباب.

قبَّل أصابعه المضمومة: نورك يضيء المكان.

نترت الماء من يدها، وأسدلت قميص النوم — بعفوية — على فخذيها.

قال: أنا زوجك يا امرأة.

حاولت التشاغل بعصر الغسيل.

قال في حسم: كفى!

ثم وهو يعاونها على القيام: لا داعي لدخول الحُجرة، قد يصحو الأولاد.

خالط صوتها احتجاج: هكذا على الأرض؟

– نعم ... هكذا على الأرض!

تلفَّتت في حيرة، مالت إلى شوال في ركن المكان، فنفضته، التمعت عيناه بالسؤال: هذا الشوال ... من أين؟

قالت وهي تسوِّي الشوال في الأرض: إنه شوال الدقيق.

ارتعشت أهدابه: وأين الدقيق؟

– خلص.

صرخ: كله؟!

– كله.

أطال النظر إلى المرأة التي توقفت عن تسوية الشوال، كأنه يراها للمرَّة الأولى، بدت له طيبة ومسكينة ومهمومة، بدت له شيطانًا ينغص عليه حياته؛ شعرها الأكرت، وعيناها اللتان غابت إحداهما وراء سحابة بيضاء، وقامتها المدملجة القصيرة، وثيابها التي لم تبدلها منذ سنوات، حتى عندما يضاجعها، تكتفي بسحبها إلى ما فوق البطن، وتسلم نفسها في بلادة.

باخت الصور وتماوجت وتطوحت، سخيفة وبلا معنى، تقافزت الكلمات داخل حلقه، فلمَّا أدرك أنه فقد الرغبة في الكلام أشاح بيده ...

ومضى.

الواحد نصفان

طالت الوقفة، فداخله الشكُّ أنها ربما لن تجيء.

استطالت ظلال الغروب في شارع سيدي داوود، فأمسى المكان رماديًّا، أو كاد، بدا القادمون أشباحًا من — وإلى — الحجاري والموازيني وسليم البشري والمسافرخانة وصفر باشا، قلَّت حركة السير، فتمطَّى الهدوء في أرجاء المكان.

كان إذا مشى أمام البيت أسرع في خطواته، يتوجَّس من السكون في الداخل، خلف الباب والنوافذ المغلقة.

أعاد النظر من الباب الموارب، ربما المرأة سبقته، فاختبأت — حتى لا يراها أحد — داخل البيت المهجور، تداخلت الظلال، وتلاشى الضوء من الأبواب والنوافذ المغلقة، فاختفت المرئيات تمامًا، نسي — أو تناسى — مخاوفه؛ أن البيت مسكون بالعفاريت، تغيب في النهار، وتظهر في الليل، تبدأ صياحها وصراخها عندما تتمدد الظلمة في المكان فتغيب ملامحه، يغالب الخوف، لا يتلفَّت، وإنما يمضي إلى أمام، تسبق خطواته ما تسعفه به ذاكرته من آيات قرآنية وأدعية.

أغلق الباب، فانعكس الصوت المفاجئ ضوءًا مفاجئًا في نافذة البيت المقابل، همَّ بالانصراف، لكن النافذة التي أطلَّ الضوء من خصاصها ظلت صامتة.

تعمَّد أن يصل قبل الموعد المحدَّد، لتجده في انتظارها، حين غادر البيت أهمل النظر في ساعته، فهل أوقفته اللهفة أمام البيت المهجور، قبل زمنٍ من الموعد المحدَّد؟

ضايقته البسمة التي اتسعت في وجه المرأة، عندما أفرغ المشكلة من جوفه، تردَّد، وتلعثم، وغلبته الحيرة، دفعها إلى القسم بدينها حتى لا يعرف الأمر ثالث.

بدا الصدق في قسمها، وإن أتبعته بابتسامة يصعب أن تغيب عن باله.

دسَّ في يدها خمسين قرشًا، ففاجأته بالسؤال: هل أحضر معي شيئًا؟

مسح المكان بعينيه، فلا يواجه ابتسامة ألصقتها بوجهها: ماذا تقصدين؟

وهي تداري فمها براحة يدها: حمادة بك ... أنا لم أجرب هذا الأمر من قبل.

في ضيقٍ لم يحاول إخفاءه: لا شيء!

أعادت لفَّ الملاءة حول جسمها، وتهيَّأت للانصراف، أوقفها بنظرة، مالت بعينيها ناحية الشاطئ، لفَّه سكون الظهيرة، يتناهى — من بُعد — تكسُّرات الأمواج، صياح أسراب النورس، صفارة باخرة في الميناء الغربية، دقات مسمار متكاسلة في هيكل قارب، هتاف سائق بنز في الحصان الذي يجري بآخر ما عنده.

اقترب حتى داعبت أنفاسه أذنها: أنسية ... أعتمد على تصرُّفك كثيرًا.

لَّما ناداها — في المرَّة الأولى — واصلت السير، دون أن تُعنى بالالتفات، لم يخطر ببالها أنها هي المقصودة بالنداء، لحقتها أيام الفتوَّات، عندما استوقفها مرعي بيبي في أول شارع سليم البشري، كان السكون سائدًا بالليل المبكر وبرودة الشتاء.

– أنتِ في حاجةٍ إلى رجل.

كانت تعرف مهنته، والأذى الذي ألحقه بناسٍ مهمِّين: أحبُّ أن أحيا بلا زواج.

زوى ما بين عينيه: مَن قال إني أعرض الزواج؟

ولوَّن نبرات صوته: أنا أعرض حمايتي!

حاولت أن تلملم جرأتها: ممَّ؟

– من أذى أولاد الحرام!

قالت بصدق: ومَن يهتمُّ بي؟

وهو يضغط على كتفها: هذه وظيفتي.

وعلا صوتُه مهدِّدًا: لا تتحركي منذ الليلة بغير حمايتي.

ثم فاجأها بالقول: سأتكفل بإقناع حمادة بك أن يتركك تقيمين في البيت.

شردت في تأمله؛ شعره المفلفل المهوش، والثقوب المتناثرة في وجهه بتأثير جُدريٍّ قديم، وشاربه المنسدل على شفته العليا، والجلباب الكستور يضيق على قامته الطويلة الممتلئة.

ومال على أذنها: أنا أعرف حكاية البيت.

وعلا صوتُه: وكل شيء.

فكرت أن تُظهر ترحيبًا، وتدعوه إلى بيت سليم البشري، يدخل، فتصرخ بآخر ما عندها، تتهمه بمحاولة سرقتها، هذا هو الاتهام الوحيد الذي تستطيع أن توجهه إليه،

أطلقت أف ف ف للتنبه إلى أنها تدخل البيت متسلِّلة في الليل، هو بيت حمادة بك، لم يعترض الرجل طريقها إلَّا بعد أن عرف كل شيء، ما الذي أدخلها البيت حتى يسرقها فيه؟!

لاذت بالبيت المهجور، لا تخرج، ولا تقابل الآخرين، ولَمَّا توصلت إلى قرار — ارتعش له جسمها — بالرفض، ترامت إليها من النوافذ المقابلة أحاديثُ النساء عن معركة الفتوَّات في ميدان الخمس فوانيس، مَن لم يمُت أو يدخل المستشفى أخذه البوليس، وأعلن المخبرون منع حمل السكاكين والخناجر والمطاوي والسنج، وادِّعاء الفتونة.

اعتادت — من يومها — ألَّا تلتفت لنداء لا تتبين صوت صاحبه.

اضطرَّت للنظر من اللهفة التي امتطت صوته، تعرفه جيدًا، ولا بد أنه يعرفها هو أيضًا، ناداها عبد الرحمن الصاوي — ليلة عيد — في مجلس الحاج محمد صبرة الحلاق، ومنحها جنيهًا، جذب مبسم الشيشة من شفتَيه، فتمنت مبلغًا مماثلًا، وربما زاد عما دفعه الصاوي.

أدماها صوته الغاضب: لا تجوز الزكاة لومس!

شغلها الأمر في الأيام التالية، تداخل الفضول والغضب، فأعطت سمعها للروايات المتناقضة.

لم تعرف الكثير عن حياته، ولعلَّها لم تعرف عن ظروفه الخاصة شيئًا، وإن تأكد صيته بما ورثه؛ اسطبل السيالة، الفرن البلدي خلف سيدي علي تمراز، البيت الجديد في شارع الحجاري، رُويت حكايات عن الأموال التي خلَّفها له والده في صفائح مياه قديمة ببدروم بيت وكالة الليمون.

سألها محمود عباس الخوالقة: هل تدركين مدى السمعة التي تتمتعين بها؟

جاوزت مشاويرها الأنفوشي — وبحري كله — إلى المنشية والعطارين ومحرم بك وأحياء أخرى، من بين آلاف النظرات التي حاصرتها، ودعتها، لم تتجه إليها عيناه، يومًا، مع ذلك، كان جزءًا من مألوف حياتها: خطواته المتلاحقة في شوارع الحي، مجلس العصر، ومبسم الشيشة ملتصق بشفتَيه، أمام دكان الحاج محمد صبرة، خوف سيد الفرَّان — عندما يضيف رغيفين إلى ما تشتريه من الخبز الرجوع — يعلنه في نظراته المتطلعة إلى باب الفرن، أحاديث السخط والإعجاب والدهشة وعدم التصديق.

عم سلامة — صاحب مطعم النبلاء بشارع السيالة — أضاف عشرة قروش إلى أجرها، وهي تغادر — آخر الليل — باب المطعم الخلفي، ربَّت ردفها، وقال: هذا خير حمادة بك، يطلب الرضا ليفوز في الانتخابات.

وطلبها — في الأيام التالية — رجال وشبان كثيرون، لم تكُن تعرفهم، ولا رأتهم من قبل، عرف الطريق إلى البيت صيادون وبحارة وعمال في الميناء وأفندية وزبالون وعتالون وسائقو ترامواياتٍ وكمسارية وخدم جوامع وزوايا وصبيان قهاوي ومخبرون وعساكر وردية، حتى الممرض في مستشفى الملكة نازلي، قال إنه فضَّل القدوم إليها، وكان يستطيع مصاحبة امرأة من المتردِّدات على المستشفى، كان يربكها أكثر من موعد في الليلة الواحدة، فتفسح ساعتين بين موعد وآخر.

لَمَّا ناداها — في المرَّة الأولى — واصلت السير، غاب عن بالها أنها هي المقصودة بالنداء.

عاود نداءه بصوت أعلى: أنسية!

ذكر الاسم، فالتفتت.

العصر موعد جلسته أمام دكان الحاج محمد، لا شيشة ولا أصدقاء، ونظرات متطلعة لطفل — داخل الدكان — ينتظر دوره في غياب الطهور، وسير التجليخ المعلق بجوار المدخل يدلُّ على دكان حلاق.

دعاها بيده، فتأكدت، وعادت بخطوات متردِّدة.

فطن إلى صعوبة الحديث أمام الناس، قام من كرسيِّه، وأشار إلى الشاطئ: اسبقيني إلى هناك!

المرة الأولى التي اقترب منها، وحادثها، وتوضحت ملامحه، بالكاد يبلغ الأربعين، وربما أقل، أميل إلى القِصر، تكسو الشعيرات البيضاء فوْدَيه ووجهه مستدير، تنتشر فيه بقع الشمس، له عينان دائمتا التلفُّت، وشاربه نحيل أقرب إلى الصُّفرة، خمنت من الثقب الصغير في طرف أذنه العلويِّ أنه كان يضع حلقًا.

كانت تحيا الروايات العجيبة، والمختلفة، ولا يأتي — في بالها — أن تجاوز الهامش.

ذهول المفاجأة تراجع أمام اللهجة التي تقطر ودًّا: كيف حالك؟

حدجته بنظرة متسائلة: الحمد لله!

قال في لهجته المتودِّدة: الملعون سيد يضايقك كثيرًا!

الملامح الهادئة تخفي عقلًا حويطًا، نظرات سيد القلقة، المتطلعة إلى باب الفرن، تنفي أن يكون هو الذي أفشى سرَّ نفسه، العمال الآخرون سوق، كل واحد في حاله.

أضاف دون أن يعني بتحديقها المستغرب: مضايقات الآخرين لا تنتهي أيضًا.

لو يدخل في الموضوع!

أجفلت لمروق طائر فوق رأسها، تواصلت لحظات الصمت، تعمِّقها الأصوات البعيدة للأمواج، وصفارات البواخر، وصيحات النورس، وصرير عجلات الترام في انحناءة مساكن السواحل.

سوت الملاءة على جسمها: أستأذن.

ارتفع صوته بتوتر: أريدك!

تردَّد — لحظةً — في مواجهة نظرتها المتسائلة.

شجَّعته بهزَّةٍ من رأسها.

طرف الخيط يصعب التقاطه.

كان في السابعة لَمَّا طلبت أمُّه أن يشتري فولًا للعشاء من الطنطاوي، شجَّعته الظُّلمة، فنزع الحذاء من قدميه، وأسنده إلى باب البدروم، وغادر البيت حافيًا، برودة الطريق، وملمس الحصى والتراب. في باطن القدمين يتسلل بلذة تتصاعد، فتشمل الجسد كله.

قال الولد محمود عبد العزيز، زميله في البوصيري الأولية: كأنك تحرص على الهزيمة في هذه اللعبة، فلا ينال العقاب سواك!

تملَّكه العناد، فرفض تنازل الولد عباس متولي عن حقِّه في العقاب، قست العصا على اليدين الممدودتين، لكن اللذة — يذكرها — جاوزت الألم، والأمنية أن يمتد الزمن.

لم يكُن يضمر شرًّا، مجرد التلامس بين صدره وأيدي النازلين من ترام الرمل إلى الطريق، عشرات يتدافعون، فيستقبلهم بوقفة ثابتة، كلما تزايد الضغط علت إيقاعات النشوة، وتراقص الجنون في الجزر الوحشية، وحملت البداية هراوتها، وعادت إلى أصل الأصول.

دفعته المرأة بقبضة غاضبة: هل ينقصنا زحام؟!

الدفعة زرٌّ خفيٌّ، أشعل النيران في بطنه، لم يتحرك في وقفته، تمنى لو أعادت المرأة دفعتها الغاضبة ... لكن الطابور تواصل، وابتلعت الأمواج ما صادفها، وواصلت الاندفاع.

لم يكُن الرجل مخطئًا، هو الذي دفعه في طابور السينما ليقف أمامه، لا يذكر الكلمات التي عقَّب بها على ملاحظة الرجل، نظرات الواقفين في الطابور لم تشغلها الصفعة التي هوت على وجهه، ظلَّ في وقفته، وقال من بين أسنانه كلامًا آخر قاسيًا، توالت الصفعات، زاد الرجل فبصق عليه، العينان مغمضتان، والوحش النائم يصحو، والدماء تسري في الشرايين الناضبة، والخضرة تزهر في مساحات الجدب.

أضنته المأساة، حاصرته، طاردته كظلِّه، نسبها إلى سواه، ولَّح لجلساء قعدة العصر، علت ضحكات السخرية، وقالوا كلامًا معيبًا.

ظلت الرغبة العارمة حبيسة أحلامها، أُخرس لسانه، حتى لهؤلاء اللائي تقاضَين الثمن، قرر — في إصرار — أن يتحمل عناق السرِّ المشبوب باللهفة والجنون، فلا يصبح السرُّ سرًّا لو تخلَّى عن عناقه.

نطق الاسم — ذات ليلة — دون وعي: أنسية!

رغم سيرتها التي تلوكها جلسة العصر، لم يُعنَ حتى بأن يدقِّق في ملامحها، ولا فكر في بواعث اختيارها، أمسك الخيط من طرف النهاية، توالت حمم الرغبة، فدمرت أعماقه. في اللحظة التالية شغلته تمامًا، تابعها، راقب تصرفاتها، سأل الجلساء، وهؤلاء الذين سال عرقهم على جسمها، حتى الرغيفان الزيادة لم يُفلتا من رقابته، تنصت إلى الهمسات في الأركان المظلمة، تفوِّت الكلمات القاسية — هو نفسه فعل ذلك — تتناول الهبات، لغرض أو لغير غرض، تذهب وتأتي وتتسلَّل إلى داخل البيوت وتنصت وتجيب وتناقش، لا يغادر الهدوء ملامح الوجه، ولا يعلو الصوت عن الهمس، والنظرات تغفو في الشرود.

هل هي المأساة السرُّ، يخشى أن تطارده بها أيامه القادمة؟!

اختار الظهيرة أنسب موعد لانتظارها.

أوشك اليأس أن يتسلَّل إليه — في اليوم الرابع — لَمَّا رآها قادمةً من شارع خير الله بك، في طريقها إلى السيالة.

– مساء الخير.

فاجأه الصوت الهامس، لم ينتبه لقدومها، مع أن بداية الطريق — من سليم البشري — تبعد بمسافة، شمله الارتباك، فلم يردَّ على تحيَّتها.

قال وهو يخطو إلى الأمام: اتبعيني.

دون أن تجاوز الهمس: فلنبقَ هنا!

تساءل في دهشة: كيف؟

لملمت جرأتها: ألا تملك هذا البيت؟

– لكنه مهجور!

– لن نسكن فيه.

– يخلو حتى من النور.

رفت على شفتَيها ابتسامة: وما حاجتنا إلى النور؟!

– لي بيت قريب، سنجد فيه كل ما نحتاجه.

وهي تسبقه إلى الداخل: أمرتني أن أتصرف.

نظر — بتلقائية — إلى النافذة المقابلة، كانت قد أطفأت نورها، تابع تلقِّيها صرير الباب ... لكن الظلمة جاوزت رمادية الغروب، عمَّق من حلكتها إغلاقُ الأبواب والنوافذ.

قادته من رسغه، فأدرك أنها قد وصلت إلى الحُجرة التي تعرفها جيدًا.

لم يعُد تردُّدها على البيت تخمينًا، وربما فاته — أثناء رقابته الصارمة — أنها تقيم فيه بصورة ثابتة.

في اللحظة التالية فاجأته — في أعلى كتفه — بضربة قاسية، صرخ متألمًا، مدَّ أصابعه يريد دفعها، عاجلت الأصابع بضربة سريعة، فأدمتها، هل تبصر في الظلام؟

علا الغضب بصوته: كيف تجرئين؟

دون أن يزايلها الهدوء: أمرتني أن أتصرف.

لماذا عرض الأمر عليها؟

شغلته الفكرة، تملكته تمامًا، فأنسته نتائج كان عليه أن يتدبرها، عاجلته ببصقة ملأت وجهه، شدَّت قميصه بأصابع متوترة، لولا أنه هو الذي طلب وشرح وأفاض، لَتأكد أن هذه هي صورة علاقاتها في الحجرات المغلقة. خاصمت الهدوء، وتعالى صوتها، مازجته حشرجة غريبة، كأنها تموت، سرت القسوة حتى أطراف أصابعها، قسوة مدمرة، لا تبالي أين ولا كيف تضع جسده المتكوِّر في أيدٍ وأقدام، الآلاف من العفاريت والمردة.

أذهله أن الشياطين — رغم الغضب — تراقصت، وأطلقت أغنياتها المحمومة، وباحت الطلاسم بألغازها، وتوالت الصرخات المنتشية، وتداخلت الأصوات، وتلاشت المسافات والحدود.

فكر أن يوجِّه الضربات كيفما اتُّفق، فتدرك إصراره على الرفض، لكن المفاجأة اجتذبته، فطاوعها.

توالت الضربات والصفعات والشتائم، دفعت رأسه بقدمها، لاحقت جسده الممدَّد بركلات موجعة، تأرجحت السفينة الرعناء وسط الطوفان، ولثم الصياد قدمَي عروس البحر، وامتصَّ الرضيع الحنان من صدر أمِّه.

اطمأنت — بأصابع مدربة — إلى تحقُّق الرجفة المشتهاة، هدأ — من بعدها — الجسد، وتواصل الصمت، سوَّت ملاءتها، ودفعت إليه ثيابه.

أمسكت برسغه، وقادته إلى الخارج.
مدَّ أصابعه إلى صوت معالجة يدها للباب المغلق: خذي بقية أجرك.
في صوت تغلَّف بهمس البداية: لا أريد شيئًا.
وابتلعتها العتمة.

في حضرة السلطان

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

كان في سياحة عندما عانى التردُّد: هل يلازم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو يرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ وصف له الناس وليًّا برأس جبل، فصعد إليه، وكان الليل قد جاء، فقال في نفسه: لا أدخل عليه في هذا الوقت، تناهى صوت الوليِّ من داخل المغارة: اللهم إن قومًا سألوك أن تسخِّر لهم خلقك، فسخَّرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق عليَّ، حتى لا يكون ملجئي إلَّا إليك، قال الشاذلي لنفسه: يا نفس، انظري من أيِّ بحر يغترف هذا الشيخ، فلما جاء الصباح دخل عليه، فأخذته منه هيبة، وقال له: يا سيدي، كيف حالك؟ قال الشيخ: أتشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم كما تشكو أنت من حرِّ التدبير والاختيار؟ فقد ذقته، وأنا الآن فيه، وأمَّا شكواك من برد الرضا والتسليم، فلماذا أقول: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله؟ قال: يا سيدي، سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قومك سألوك أن تسخِّر لهم خلقك، فسخَّرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم فإني أسألك اعوجاج الخلق عليَّ، حتى لا يكون ملجئي إلَّا إليك، فتبسَّم الشيخ، وقال: عوض ما تقول سخر لي خلقك ... قل يا رب، كن لي ... أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجنابة؟

أمضَّه الإحساس بالوحدة وهو يستند إلى الجدار، في جلسته طرف صحن الجامع، يمتدُّ أمامه فراغ الصحن إلى الأبواب الخارجية، يتقاطع في أروقة تصنعها الأعمدة، والقناطر فوقها، اختلطت الأنوار والظلال، شكَّلت تكويناتٍ على الأجسام الجالسة والأرض.

انتحى الركن تحت واحدة من القباب الأربع الصغيرة، قبالة القبة المواجهة لضريح السلطان.

ألف الجامع: المئذنة، والقباب، والباحة الداخلية، والعقود المجملة بالجفوت والصنج والخناصر، والباب الرئيسيُّ المطلُّ على الميناء الشرقية، والباب الملكيُّ المفضي إلى السيالة، وباب الضريح، والمحراب، والمنبر، والميضة، وتآلف الهمسات والأدعية والبكاء والزغاريد والنداءات، النسوة يطُفن بالضريح، يكنسن حوله، يستندن إلى مقصورته النحاسية، يقبِّلنها، يغرفن بأيديهن من الهواء المحيط، يضعنه داخل الملاءات.

لم يكُن يشعر — في مجلسه — بحرارة النهار، النوافذ ملاقف ينفذ منها الهواء، يتآلف في الصحن الواسع، لطيفًا، يستكين إليه، فلا يغادر مجلسه حتى يؤذن للصلاة.

همس لنفسه كأنه يستوثق: حمادة بك؟!

لمحه يتسلَّل بعينيه إلى مشربية مسجد النساء الصغير، تطلُّ على صحن الجامع، ساكنة في الهدوء والظُّلمة، تأكد مما خامره لَمَّا اختار الجلوس بالقرب من المنبر، في مواجهة ضريح السلطان، الأتباع والمريدون وقصَّاد المقام، النسوة يطُفن أو يجلسن حوله، يلمسن الضريح، فتنتقل البركة إلى الأيدي، يمسحنه بالمناديل والثياب، ويمسحن على رءوسهن ورءوس الأطفال.

تشاغل بتأمل الأعمدة بقاعداتها الهائلة، وتيجان البرونز، والزخارف الجصِّية الرقيقة، والحافات المحلَّاة بآيات القرآن، مكتوبة بالخطِّ الكوفيِّ، والألوف من قطع الرخام الملوَّنة، المتعانقة في تكوينات زخرفية.

نُودي لصلاة المغرب، فاختفى الرجل، لا يدري إن كان قد انتظم في الصفوف، أم غادر الجامع.

فزَّ، واتجه — بخطواتٍ مهرولة — إلى حيث وقف أمين عزب، تحت المنبر.

قال في ودٍّ: أين أنت يا علي؟

قال علي الراكشي: موجود.

استطرد: أصلِّي معظم الأوقات في أبو العباس.

قال أمين عزب: كما تعلم ... أنا أقضي يومي كله في زاوية خطَّاب.

ثم كالمتنبِّه: لماذا لا تأتي لزيارتي؟

ومدَّ يده، فصافحه، ومضى ناحية الباب المطلِّ على أضرحة الأئمة الاثني عشر.

لم يكُن يملك وضع أمين عزب داخل إطار محدَّد، ولا تأكد إن كان يميل إلى الخير بالفعل … فهو يؤمُّ المصلِّين في زاوية خطَّاب، ويلقي فيهم خُطبة الجمعة، كان يحرص على جلسة العصر أمام دكان الحاج محمد صبرة الحلاق، ودرس المغرب في أبو العباس، ثم لزم زاوية خطَّاب، ينصت إلى شكايات الناس، ويحاول حلَّها، ربما سعى لحلِّ مشكلة في قسم الجمرك، أو داخل الميناء، أو حلقة السمك.

كان الناس يتحدثون عنه بالخير، فهو متَّقٍ في نفسه، اشتغل بأنواع المجاهدات من الصلاة والصوم وقيام الليل وتلاوة القرآن وكثرة التسبيح، وكان على دراية بعلم القراءات، وبطريقة الأداء والترتيل، حافظًا للقرآن الكريم، فهو لا يلحن، ولا يتلعثم، وله صوت حسن، ينشد القصائد الإلهية وأناشيد التوحيد، وكان دائم التردُّد على مقابر العامود، يُمضي الساعات داخلها، لا يحادث أحدًا، ويغلبه انشغالٌ بما لا يفصح عنه، وربما ظلَّ في مكانه، مستندًا إلى جدار حوش، يعطي القرَّاء والمتسولين.

جعل من الإمام الشافعيِّ مثلًا أعلى، فهو يقسِّم الليل ثلاثة أقسام؛ الثلث الأول للعلم، والثاني للنوم، والثالث للتهجُّد.

قدَّم لمساجد الحيِّ الكثير من النذور والهبات؛ سجاجيدَ وحُصرًا وأدوات نظافة وكتبًا وذبائح وطعامًا، وكان يرتب لأُسر فقيرة إعانات شهرية، وتكفَّل برعاية عدد من أيتام الحيِّ، قدَّم لهم ما يحتاجون إليه من طعام وثياب.

صار بيته — على ناصية شارعَي إسماعيل صبري ورأس التين — مقصد المحتاجين من أبناء بحري، يلجئون إليه، يعوِّلون عليه في حلِّ مشكلاتهم.

من عاداته في رمضان أنه يعدُّ المآدب في زاوية خطَّاب، يدعو إليها الخدم في جوامع أبو العباس وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وعلي تمراز، وبعض المساجد القريبة الأخرى، تقتصر الدعوة عليهم، يأكلون الفتة باللحم، يُتبعونها بالحلوى والمشروبات الساخنة والباردة، ويؤدُّون صلاتَي المغرب والعشاء، وصلاة التراويح، ربما قضوا الليل إلى السحور في حوارات بلا خيط محدَّد يصلها، إنما هي وليدة اللحظة، وعفو الخاطر.

وحين وهب حذاءً جديدًا لسيد الفرَّان، قال له عبد الرحمن الصاوي ضاحكًا: هل فعلت هذا لكي تُطيل عمرك؟

وهو يدفع براحتيه أمامه، كمَن يتقِّي خطرًا: أفعله حتى لا أسير حافيًا في الآخرة!

عُرفت عنه أفعال الفتونة، وإن أنكرها، ويذكر أهالي بحري آخر معاركه، لما طرد أجنبيًّا من قهوة الزردوني، فلم يعُد إلى الحيِّ ثانية.

أستاذه الشيخ عرفة الأنصاري، إمام جامع ياقوت العرش حتى وفاته، كانت غرفته المطلَّة على ميدان الأئمة الاثنَي عشر عامرة — دائمًا — بدفاتر العلم، ودواوين الكتب، والسائلين في العلم، يكاد لا يغادرها إلَّا إلى قيام الصلاة، يؤمُّ المصلِّين ويعود، لا يُطيل الجلوس في صحن الجامع إلَّا في الوقت بين صلاتَي المغرب والعشاء، يلقي دروسًا مماثلةً لدروس الشيخ طه مسعود إمام أبو العباس، وإن اختلفت نوعية الدروس، ونوعية الأسئلة والأجوبة والمناقشات، قرأ القرآن على سبع روايات، وقرأ الكتب على أربابها من مشايخ العلم، وقرأ علم النجوم، وحفظ قصائد الشعراء منذ الجاهليِّين إلى حافظ وشوقي والجارم، واجتهد في سائر العلوم حتى ذاع صيته خارج بحري والإسكندرية، واستَشهد بأقواله وعلمه أئمة ووعَّاظ في مساجد كفر الدوار والدلنجات وحوش عيسى ودمنهور، روى الناس عن حياته وقائع كثيرة تدخل في باب الكرامات والخوارق، وعرفوا عنه المقدرة الفائقة على المكاشفات والشطح، قيل إنه كان يستطيع أن يتشكل بأشكال البشر والحيوان والطير والحشرات، وأشكال أخرى لم يرَها أحد من قبل، ويستطيع أن يخترق الجدران، ويخرج من حنفيات المياه، ويسكن باطن الأرض، ويشاهد الملائكة — بعينيه — ويشاهد أرواح الأنبياء، ويسمع منهم أصواتًا لا يسمعها سواه، قصد مجلسه الكثير من العلماء والزهاد وأهل الصلاح، بلغهم صيته وعلمه، وفدوا إليه من أحياء الإسكندرية، ومن المدن والقرى المجاورة، يأخذون عنه، ويستمعون إليه، ويلتمسون منه البركة والمدد، ويتيمَّنون برأيه، ويعرفون النجاح في مشورته، أخصُّ ما لاحظه عليه مريدوه أنه يفهم ما يدور في نفوسهم، يَفجؤهم بالسؤال عن خاطرٍ يشغلهم، أو كلمات يتردَّدون في نطقها، ملكهم، وبرع في صرفهم إلى الجهة التي يريدها، وحملهم على تلبية أوامره بغير مناقشة ولا مراجعة ولا تردُّد، وكان يدفعهم إلى قراءة وِرد، قال إن مُنشئه هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي، يردِّدونه كل ليلة، ويتلونه جماعةً دون أن يتغيب عن تلاوته أحد، وكان يشدِّد على ضرورة حضور مجالس الوِرد، لا يتغيب إلَّا لعذرٍ قاهر، فإذا لم يقتنع الشيخ بسبب التغيُّب، ربما طرد المريد من مجلسه، فلا يعود إليه، له طريقته في إلقاء الخُطبة، يبدأ بالبسملة والصلاة على النبيِّ، بصوت هادئٍ ساكن القرار، ثم يعلو بصوته ويلوِّنه، فيرجُّ صحن الجامع، إذا أخذته الجذبة خلع جبَّته، وألقى عمامته، وشقَّ قميصه، وراح يحرِّك جسمه في ارتعاشات سريعة، كأنه يرقص، وإن لم يكُن ما يفعله رقصًا حقيقيًّا، اعتاد الناس رؤيته وهو يسير

في الشوارع والأسواق، مريدوه في ركابه بالعشرات، يهجرون أعمالهم التماسًا لعلمه، إذا سار في الميدان أو في الشوارع الجانبية، تهافت عليه الناس، وتكاثروا عليه، وسدوا طريقه، يقبِّلون يده، ويرجون منه الدعوات، وربما اكتفوا بمسح أكفُّهم في ثيابه، ويستعيرون سبحته لعلاج الأمراض، يلفُّونها حول رءوسهم أو بطونهم للشفاء من الصداع والصرع وآلام المعدة، لمَّا استشعر من نفسه قِلَّة الجهد، والميل إلى التعب، لزم بيته فلم يعُد يغادره، وطالت مدَّة رقاده، يعوده الأصدقاء والمريدون، اكتفى بتسلُّم راتبه دون النسبة المخصَّصة له من صندوق النذور، قال إن رعايته واجب وزارة الأوقاف، لكن حصيلة صندوق النذور أولى بها الإمام الذي حلَّ محلَّه، وخدم الجامع، ثم فاجأ أبناء الحيِّ عندما قدَّم للوزارة طلبًا بالاستعفاء، وتعدَّدت الرسائل والعرائض إلى الوزارة، ترفض قبول الطلب، لمَّا طالت مدَّة المرض، رأت الوزارة أنه من الأوفق أن يُعفى من الإمامة، ويثبت الإمام المؤقَّت، زادت العرائض، ترفض التغيير، وانتهى الشدُّ والجذب حين استيقظ الرجل ذات صباح، فطلب كوب ماء، بلَّ ريقه بقطرات منه، ثم مات، تخاطف المصلُّون وضوءه، فشربوا، ورطَّبوا وجوههم، وتبرَّكوا بلمس شفاههم للقُلَّة التي شرب منها، وإن فرغ ماؤها، ورُوي أن عشرات الطيور ذات الألوان المختلفة رفرفت فوق جنازته، منذ بدأت سيرها — بعد أداء الصلاة على الجثمان في جامع الشيخ ابراهيم — إلى مقابر العامود.

أخذ أمين عزب على نفسه عهدًا — بعد وفاة الشيخ عرفة الأنصاري — أن يأخذ نفسه بسيرته، ويحفظ أحكامه ورسائله، ويخاطب الناس بتواضع اعتادوا من الشيخ أن يخاطبهم به.

لم يجلس للوعظ والتفسير إلَّا بعد أن حفظ القرآن والحديث، ودرس الفقه والأصول وما كتبه شرَّاح الأئمة الأربعة، عُني بمختلف العلوم الإنسانية على منهج الكتاب والسُّنة، قرأ تاريخ الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة الأربعة، وغيرهم من أئمة السلف والمحدثين، تكاملت معارفه في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، أجاد تعلُّم آفات النفوس وأمراضها وأدوائها، وتوصَّل إلى الكثير مما يفيد الناس ويصلح أحوالهم، وقيل إنه صنَّف كتبًا كثيرة، وإن لم يحاول طباعتها، قصر قراءة أصولها على المقربين من أصدقائه، يفيدون مما بها، ويناقشونه فيه.

اختار زاوية خطَّاب في أول المسافرخانة، يؤمُّ فيها المصلِّين احتسابًا، يقضي غالب وقته داخل الزاوية، يُفتي بما غمض على المصلِّين من أمور دينهم، ويقضي في شئون دنياهم، يشرح لهم حقيقة التوحيد والتنزيه، ومعاني آيات القرآن والطاعات والمعاصي

والنية والقضاء والقدر والموت والقيامة والحساب والميزان، يروي لهم سير الرسول والصحابة والتابعين.

لم تقتصر دروسه على زاوية خطَّاب، صحب المتردِّدين عليه إلى سراي رأس التين، يتحلَّقون حوله في الحديقة الواسعة، كحدوة حصانٍ هائلة، يسألون ويجيب، يناقشهم فيما قد يغمض عليهم، حتى ما كانوا يخفونه داخل حجرات النوم اعتادوا مصارحته به وطلب النصيحة.

أفتى للولد سمير بجواز الاستمناء لضرورة، ضبط خميس شعبان ابنه وهو مشغول باستحلاب اللذة، أشفق الرجل لهيئة الفزع في وجه الولد.

قال سمير في خوف: الشيخ أمين عزب أذن لي.

هتف خميس شعبان: إنها مضيعة للدين والصحة.

وهو يخفي نفسه براحتَيه: أقسم إنه أذن لي.

رزع باب الحمام في وجه الولد: سيرافقك في النار بإذن الله!

قال أمين عزب للولد: أبوك يخاف عليك.

– طلبت نصيحتك، فأذنت لي.

ضحك أمين عزب، فظهر التسوُّس في أضراسه: أفتيت بالضرورة، وليس بهدِّ الحيل.

وتأمل الولد: لماذا لا تطلب من أبيك أن يزوِّجك؟

– أنا أعمل في ورش البلانسات لأصرف على نفسي.

– فلماذا لا تتزوج؟

خرجت الكلمات مبحوحة: ما أحصل عليه يكفي بالكاد للمساعدة في البيت.

وهو يحيطه بنظرة مشفقة: تزوَّج ... وأقم مع أسرتك.

قال الولد بلهفة: أبي من أصدقائك ... فلماذا لا تكلمه؟

لا يذكر إن كان الشيخ قد بدأ الكلام، أم أنه هو الذي بدأ، لكن الرجل عقَّب على ملاحظات أبداها، أجاب على أسئلة شغلته، بدا ودودًا طيبًا، فاطمأن إليه، شرق الحديث وغرب، تلاصق كتفاهما في الصلاة، وتصافحا، وهمسا بالقول: تقبَّل الله!

غادرا الجامع معًا، تصافحا في أول الطريق إلى السيالة، وافترقا.

تعدَّدت — فيما بعد — لقاءاتهما، داخل الجامع، شده إليه الطيبة، والزهد، والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة، اعترف له بكل ما يثقل ضميره، وينغص عليه أيامه، يفترقان أسفل درجات السلَّم، يمضي الشيخ ناحية جامع ياقوت العرش.

ناقش تردَّده في أيِّ الأماكن يذهب إليها؛ قهوة الزردوني، أم شاطئ الكورنيش، أم يشارك في حلقات الذكر؟

روى للشيخ في ضيقه عن قسوة الحاج قنديل، لجأ إلى الشيخ طه مسعود، عاب عليه الإمام استغاثته، قال: إن الاستغاثة لا تكون إلَّا بالله تعالى، وتساءل في عجب: هل يستغيث المخلوق بالمخلوق؟ هل يستغيث الغريق بالغريق؟

قال علي الراكشي: إنه يجعل لك خاطرًا ... فكلمه!

قال الإمام: كلمته ... فعاب عليك تكاسلك.

– اجمعني به ... وكن ثالثنا.

وهو يعبِّر بيديه عن قلة الحيلة: لو أني أنفقت وقتي في التوفيق بين الناس ... فلن أجد وقتًا لإمامة المصلين!

تسلَّل وراء عباس الخوالقة في صعوده — آخر الليل — إلى شقَّته، نزل بكلمات الرجل المواسية، واعتذاره بأنه يشقُّ عليه إتاحة العمل في بلانساته، لَمن أشاح الحاج قنديل في وجوههم بيده.

مشايخ الصيادين سبعة، يحيا الحاج قنديل وعباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوي في بحري، يجلسون في الحلقة، يشرفون على كل رحلة منذ الإعداد لها حتى العودة؛ السلف، والتموين، والفصال، والبيع، الصبيان للخدمة، والموظفون لتسجيل الحسابات.

شكلت الحلقة جزءًا من تجارة المعلمين الآخرين، تركوا العمل فيها للموظفين، لا يتردَّدون على بحري إلَّا لضرورة، لإنهاء خلاف مع مصلحة المصايد أو مع السواحل، أو للاطمئنان على بلانس غيَّبه البحر، أو لإنزال بلانس جديد تم بناؤه في ورش المراكب.

قال الرجل في لهجته المواسية: هذه أصول المهنة يا علي ... مَن يترك معلمًا، لا يعمل عند الآخرين؟

قال الشيخ: اسمي يوسف بدوي ... ما اسمك؟

في لهفة: علي ... علي الراكشي.

مال الشيخ برأسه على صدره، وأغمض عينيه، بدا أنه أطال التفكير حين رفع رأسه وقال في كلمات واضحة النبرات: يا علي ... إن الله إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه.

وتهدَّج صوته بصدق مشاعره: هذا البلاء فيه تكفير لذنوب سبقت منك.

واحتضنه بنظرة مشفقة: عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

وقال: قد يهبك الله ما تشتهيه نفسك، فيمنعك عن الأنس بحضرته.

ثم وهو يهزُّ إصبعه محذِّرًا: أنت تعاني الموت الأحمر.

أردف لنظرته المتسائلة: إنه احتمال أذى الناس.

ووضع يده — بودٍّ — على كتفه: العبد الراضي هو الذي يُسرُّ للمصيبة كما يُسرُّ للنعمة.

وفاضت عيناه بما احتوى الراكشي: على العبد أن يستسلم لحكم الله تعالى فيما قضاه، حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمرًا.

وقال: بادر إلى الله ... لا يشغلك عنه خير أو شرٌّ، إنه ملجؤك وملاذك.

وسأله: أيهما أحَبُّ إليك: أن يرضى عنك شيخ الصيادين، أم تأنس بحضرة الله؟

وأطال النظر إليه كأنه يتأكد من فهمه: إن حلَّ بك اليأس، وتغلَّب عليك الطريق، فقد خسرت!

توالت الأسئلة، وتفجرت الأمانيُّ والأشواق، وامتلأ القلب بالوجد، واستشرفت النظرات آفاقًا لا نهائيةً من الأحوال الغريبة والمكاشفات التي لا تخطر ببال.

متى يأذن الله؟

يـا مَـن تُـحـلُّ بـذكـره عُـقدُ الـنوائبِ والـشـدائدْ
يـا مَـن إلـيـه الـمـلـتـجـا وإلـيـه أمـر الـخـلـق عـائدْ
يـا حـيُّ يـا قـيُّـومُ يـا صَـمَدٌ تنزَّه عن مضـادِدْ
أنت الـعـلـيـمُ بـمـا بُـلـيـ ـتُ به وأنت عليه شاهد
أنت الرقيب على العبا دِ وأنت في الملكوت واحد
فـرِّج بـفـضـلـك كـربـتـي يا مَن له حُسنُ العوائدْ

قال رجل لأبو الحسن: مالي أرى الناس يعظِّمونك، ولم أرَ لك كبير عمل؟ قال الشاذلي: بسُنةٍ واحدةٍ افترضها الله على رسوله تمسكت بها، قال: وما هي؟ قال الشاذلي: الإعراض عنكم وعن دنياكم!

الباب الخشبيُّ الكبير يفضي إلى فناء فسيح، على جانبيه غرفٌ أبوابها بضلفة واحدة، وتناثر في الزوايا مشنَّات السمك وقِطَع الفلين والإسفنج وهياكل القوارب القديمة، وعلقت — في السقف — شِباك الصيد.

في نهاية الفناء نقر — بتأدُّب — على باب الحجرة المغلقة.

ظهرت الحُجرة في ضوء اللمبة الخافت؛ سرير صغير، وثلاثة مقاعد، وترابيزة عليها كتبٌ وأوراق، ومرآة، وإناء للشرب، وأدوات لعمل الشاي، ووابور بريموس، وافترشت الأرض — أمام السرير — حصيرة متآكلة.

قال الشيخ يوسف بدوي بلهجةٍ معتذرة: هذا أهون من السُّكنى مع آخرين.

أضاف للدهشة في عينيه: المفروض أن هذه غرفة مفروشة!

كان قد سبقه آخرون، جلسوا على طرف السرير، وعلى مقعدين من الثلاثة، وتركوا له مقعدًا في مواجهة الباب، أعمارهم لا تجاوز العشرين، قدمه إليهم وقدمهم إليه، شغله الحرج عن تذكُّر الأسماء، وإن عرف أنهم عمال شحن في الميناء، وطالب في المعهد الديني.

قال الشيخ: عليك بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة.

ألف التردُّد على بيت الرجل، عقب صلاة العشاء، كل يوم خميس، يزيد عدد الجالسين فيبلغ أربعة، ينقص فيبلغ ثلاثة، يصعب — لضيق الغرفة — أن تسع المزيد، أباح لهم مجلسه، يقرأ عليهم، ويناقشهم، ويجيب على أسئلتهم.

حرص — بتوجيه الشيخ — على اتباع الطاعات، وأداء الفرائض والسُّنن، وركعتي الضحى، وبعد كل وضوء ركعتين، وشغل وقته بالتهجُّد، وتلاوة القرآن، وقراءة الأوراد، والذِّكر، ومجاهدة النفس، والاشتغال بالله، وترك ما سواه، والجلوس إلى الشيخ، يسأله فيما يغمض عليه من أمور العبادات، ربما مضى إلى بيت الشيخ — في غير موعد — إذا أشكل عليه شيء، يكلمه فيما يعانيه، أو يشغله، ينصت الشيخ باهتمام، يناقشه، يردُّ على أسئلته، يأمره، ينهاه، يشير عليه بما ينبغي اتباعه.

لاحظ تأثُّره مما يتعبه في الحلقة، همس في لهجة مترفقة: قال بعض العارفين: كلما سقطتَ من عين الخلق، عظُمتَ في عين الحق.

وقال: اقضِ حوائجك بالزُّهد فيها، والاشتغال بالله عنها، وقال: قل الله الله في كل أوقاتك، لا يشغلك أمر من أمور الدنيا عن هذا الذِّكر، حتى لو كان موت أبوَيك، وقال: الدنيا والآخرة ضرَّتان ... متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وقال: حبُّ الله وحبُّ الدنيا لا يجتمعان، وقال: كل ما ينزل بك من هذه الأمور نعمٌ كبيرة، وكان أشدُّ الناس بلاءً هم الأنبياء، وقال: إن لم تنلْ حقَّك في الدنيا فهو محفوظ في السماء، وقال: ليست الطهارة مجرَّد غسل الظاهر دون تطهير الباطن، وقال له بعد أيام: طهِّر باطن الجوارح من المعاصي والآثام.

فلما قدِم عليه ذات مساء، قال الشيخ: طهِّر القلب من الأخلاق المذمومة.

ثم وهو يهزُّ إصبعه في تأكيد: هذه درجة أخرى مطلوبة.

مضت أسابيع، ازداد فيها تقرُّبه إلى الشيخ يوسف بدوي، سأل وناقش واستفسر، وتعلم معارف كانت غائبة عنه.

ثم قال له الشيخ: عليك بدرجة خواص الخواص ... طهر السر عن كل شيء سوى الله!

عرف أن التطهير بداية الطريق إلى الله، بداية المجاهدات والمقامات والأحوال ومعرفة الله سبحانه، تطهير الباطن من القبائح، يلحق المرء بالأئمة والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء والحواريين والرجبيين، السالك هو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي ما دام في السير.

وقال له الشيخ في جلسة تالية: عندما تستقبل القبلة، اصرف همَّك عن كل شيء، لتتوجه إلى الله.

وقال: حين تنوي الصلاة، فأنت تعني عزمك على الامتثال لله، والكفِّ عن المعاصي، وحين تكبِّر، فإن ذلك معناه ألَّا يكون في قلبك شيء أكبر من الله.

تعلَّم أول آداب الحضور مع الله، وبين يديه؛ الإسلام له، والرضا بحكمه، وعدم الضيق به، وعدم الرغبة في تغيير ما فيه الإنسان من وضع، وأن يملك نفسه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب، وألَّا يرى لأحد في قلبه حسدًا ولا عداوة، وأن يفارق إخوان السوء وصحبة المعصية، ويكون مستعدًّا للموت، مستغفرًا من ذنوبه، مجتهدًا في طاعة الله.

قلَّ تردُّده على القهاوي، قد يلمحه قاسم الغرياني، أو حمودة هلول، أو خميس شعبان، في طريقه من الحلقة إلى أبو العباس، يدعوه فيلبي الدعوة، لا يفطن إلى جزيرته المنعزلة، وسط نداءات المشاريب وصيحات لعب الكوتشينة والطاولة، يستعيد كلمات الشيخ يوسف بدوي في الليالي السابقة، وما يعتزم سؤاله عنه هذه الليلة، يتظاهر بالإنصات والمتابعة، لا يتحدث عما يشغله، هو انشغاله الشخصي، لا شأن للآخرين به.

زار الشيخ في زاوية الأعرج.

غالب تردُّده: مَن هو الأعرج صاحب الزاوية؟

قال يوسف بدوي: كما أعلم، فإنه الوليُّ الجليل عبد الرحمن بن هرمز.

– ومسجده بشارع رأس التين؟

– المسجد به ضريح الشيخ ... أمَّا الزاوية فكما ترى، ليس بها ضريح.

لاحظ أنه يقوم بكل العمل؛ يؤذِّن للصلاة، يقرأ القرآن، يؤمُّ المصلِّين، يقضي أوقاتًا ما بين الصلوات في الجلوس إلى مريديه، إذا غاب عن الزاوية فلصلاة العشاء في أبو العباس، قبل أن يمضي إلى بيته، في شارع ابن وقيع، يُمضي بقية الليل في استقبال المريدين، أو تلاوة القرآن وقراءة الأحاديث، ربما غاب — لساعات — عن نفسه، فيظلُّ صامتًا لا يتكلم، ولم يكُن يسأل مريديه عن أحوالهم، وإنما يحدثهم عمَّا يفاجئون بأنه يعرفه، وينصح، ويوجه.

كان يعرف مواعيد الصلاة دون رجوع إلى ساعة أو سؤال، ينهض دون أن ينظر إلى شيء، ودون سؤال، يتجه إلى الميكروفون في الجانب الغربيِّ من الزاوية، يؤذِّن للصلاة في موعدها، لا يؤخِّر لحظة، ولا يقدِّم لحظة، ينشد — قبل أن يؤذِّن للفجر — ألوانًا من التراتيل والدعوات والابتهالات والتسابيح، يمهِّد بها للأذان، ويعدُّ الناس أنفسهم للصلاة.

كان الشيخ — إذا التقى بإمام أبو العباس — يُظهر الودَّ والاحترام، يطيل السلام والحديث، يُكثر من عبارات التفخيم، لكنه يتجنب مجالس الإمام، لا يشارك فيها. إذا دخل الجامع، اكتفى بإلقاء السلام — إن كانت حلقة الإمام قائمة — وسعى إلى قرب المنبر، فانتظر الصلاة، يؤديها وينصرف، ربما استوقفه أحد تلاميذه، ممَّن فتح لهم باب قلبه وبيته، يمضي معه إلى خارج الجامع، يستأنفان حديثهما في الطريق.

قرَّ عزمه على أن يتأدَّب بالشيخ، يتلقَّى منه، يتربَّى على يديه، أيقن أنه لا أحد من كل المشايخ الذين جلس إليهم في جوامع الحيِّ أجدر من يوسف بدوي للانتفاع بعلمه، حتى أمين عزب نقل إليه ما قاله الحاج قنديل، ثم نفض يده من الأمر، يتدخل بما لا يؤثِّر في صداقاته، ولا مكانته.

استولت عليه سلطنة محبة الشيخ، صار الشيخ حياته، وجد عنده التعاطف والمشاركة والعناية والأمن والسكينة. تلقَّى أسرار العلوم والمعارف والإفهام. قال الشيخ: زرت الشيخ في بيته، للشيخ رأي في هذه المسألة، نلتقي في مجلس الشيخ، ثلاثة أيام غاب فيها الشيخ عن أبو العباس ... كأنه يعرف الشيخ من قبل البدء، ويعرفه إلى ما بعد الختام. يطوف بباله وهو يختار أنسب المواقع لصيد الطير، يحصل على شروة من الحلقة، يفاصل زبائن في خطِّ الرمل، يضاجع أمَّ الأولاد، يتلو القرآن، ويطالع كتب الحديث والفقه والتفسير والسير. يكتفي — عكس ما كان — بالتطلع إلى القهوة، ويواصل السير إلى بيت الشيخ، أو إلى بيته.

سأل نفسه وهو يغادر بيت الشيخ ليلةً: إن لم تكُن الجنة لهذا الرجل ... فلمَن تكون؟!

كان يحرص على التأدُّب في مجلس الشيخ، لا يتكلم بين يديه إلَّا في الضرورة، ولا يقاطع كلامه. حتى لو رأى في الكلام ما يدعو للمناقشة، كتم الأمر في نفسه، لا يُبدي معارضة أو ملاحظة، أو يلقي سؤالًا يضمر عدم الموافقة. سار إلى الله في منازل النفوس، يحمل زاد التقوى والطاعة.

بدا له الشيخ جادًّا في طلب الحقِّ، معرضًا عن الأنس بالحقِّ، مستغرقًا في حبِّ الله وخدمته. غلب عليه التوكل والسياحة والفتوَّة والزهد والتبتل والأفعال الظاهرة المحمودة. لاحظ تقشفه في لباسه، وتذلله في نفسه، وزهده في الحياة، والإعراض عن مباهجها، والميل عن مطالب النفس، وشهوات الجسد، ونزعات الأرض. عصمه الله عن المخالفات، وعن المعاصي والوساوس والهواجس والتعلق بالأغيار. يصوم النهار، ويقوم الليل، ويؤْثر الخلوة على الاجتماع، والصمت على الكلام، والصيام على الشبع. اعتاد السهر، والصمت، واعتزال الناس، وإخماص البطن.

قال زكي تعلب، الطالب بالمعهد الديني، والشيخ في خلوة: هو مثل الترسة ... يستطيع أن يحيا أسبوعًا وأكثر بلا طعامٍ يدخل جوفه!

ألفوا أحواله، يباسطهم، أو يرفض التحدُّث إليهم، أو لا يحتمل وجودهم، يحصل له انجذاب إلهيٌّ، يغيب عمَّن حوله وعمَّا حوله، يفيق فيجد مريديه يحتضنونه بنظراتٍ مشفقة.

يحيا في عالمٍ غير العالم، يخالط الآخرين، يناقشهم، يستمع إليهم، ويجيب على أسئلتهم، لكنه ينطوي على مجاهداته وأشواقه، يتبعها إلى حيث تقوده، حفظ علوم الطريقة، أشرف العلوم وأنورها، زواهر الأنباء، وزواهر العلوم، وزواهر الوصل. استوى عنده الرجاء، والخوف، والضعف، والبسط، والقبض، والمدح، والذم. سقط عنده اعتبار الناس، فلا يرى منهم ضرًّا ولا نفعًا، وكان يراعي أنفاسه في دخولها وخروجها، وكان يقول: أخاف إن وُضعت في القبر وسألني منكر ونكير، هل أقدِر على جوابهما؟ لزم داره، لا يراه إلَّا مَن يتردَّد عليه في الزاوية أو في البيت، ولا يخرج إلى أبو العباس إلَّا لصلاة العشاء أو صلاة الجمعة، يحرص على أداء الصلاة في أوقاتها، هي كمال القرب والمواصلة الحقيقية، يختار الصفوف الأخيرة، القريبة من الباب الملكي، تنتهي الصلاة، فينفذ إلى الميدان، ومنه إلى شارع ابن وقيع، يدخل بيته، يتأكد من إغلاق الرتاج، لا يفتح الباب إلَّا إذا استخدم أحد زوَّاره السقاطة وأعلن اسمه، كان يعرف أسماء مَن يدخلون عليه، وما يزمعون التحدُّث فيه، لا يسألهم، وإنما يلجأ إلى بصيرته وإدراكه، وكان يحفظ الكثير من أسماء أهل الحقائق والأصفياء والأولياء وأقوالهم وصفاتهم وبركاتهم ومكاشفاتهم، يذكرها عفو الخاطر، لا يرجع إلى كتابٍ ولا يجهد ذاكرته.

لم يستطع — لضيق الشقَّة — أن يجعل لنفسه خلوة، وإن أكثر من الطلوع إلى سطح البيت، يتأمل السماء والقباب والمآذن ونهايات الأفق في الميناء الشرقية.

بدا لمريديه أنه يأوي إلى علمه ودينه، فلا أهل ولا مال ظاهر ولا مهنة أو وظيفة يتكسب منها، حتى زاوية الأعرج لا يتقاضى مقابلًا لإمامته فيها، لم يتحدث عن بلده، ولم يَظهر في بيته زوجةٌ ولا أبناء، ولا تردَّد عليه أقارب أو زوار من غير المريدين، ظلَّ الكثير من جوانب حياته في منطقة الظِّل، لا يعرفها أحد، ولا يحاول هو كشفها أو حتى الإشارة إليها، كأنه يتعمد أن يكون غامضًا، وأن تكثُر من حوله الأسئلة التي لا تجد أجوبة من أيِّ نوع.

قيل إنه ينفق من إيراد بيت قديم، في قبو الملاح، ورثه عن أبيه الذي ورثه عن جدِّه، وقيل إنه من مواليد عزبة خورشيد، له فيها سبعة أفدنة، نصيبه من إرث أبيه، يحيا على ريعها، تنقَّل بين المدن والموالد والمشايخ والنقباء والقراءات وحلقات الذكر، حتى استقر به المقام في الطريقة الشاذلية، في المرسي أبو العباس والبوصيري وياقوت العرش، والأولياء الكثيرين، يشغي بهم الحي، فتختلف صورته عن بقية الأحياء.

عُرف عنه أنه لا يأكل إلَّا الفاكهة والنباتات، قال له شبيروا الجزار يومًا: إني أدعو الله أن يقلِّدك الناس في كل شيء، ما عدا رفض أكل اللحم، فهذا سيخرب بيتي!

وكان يهمس باعتزازه أنه لم يغتسل عن جنابة، لم يحتلم، ولم يتزوج، شغلته عبادة الله عن كل ما عداها.

مع أنه كان يحفظ آيات القرآن، لا ينسى ولا يخطئ أو يلحن، فإنه كان يلتزم التلاوة في المصحف، وكان يطيل الصلاة، ليست مجرَّد حركات وسكنات، قيام وقعود، تلاوة أقوال محدَّدة وآيات، إنما هي وقفة بين يدَي الله، ورُويت حكايات عن تزوُّده بأدواتٍ وقدراتٍ خارقة، مؤيَّدًا بقوى عليا تعينه وتساعده.

لم يحدِّث مريديه عمَّن أخذ العهد، وإن رُوي أنه أخذ العهد على سيدنا أبو الحسن الشاذلي في المنام، أهمل من بعد ذلك دنياه وانشغل بالآخرة، وقيل إنه أخذ العهد على السلطان في قبره، علا صوت أبو العباس من داخل القبر بعبارات ردَّدها الرجل، ثم قرأ البسملة، وقل هو الله أحد، وآية الكرسي، أصبح — من يومها — كما أراد لنفسه، جعل من السلطان معراجه وسلَّمه إلى دنيا التصوف، استمدَّ سرَّه منه، واستلهمه الولاية، واستعان به على تبدُّل حياته، لزم الخلوة، لا يتردَّد على الجامع إلَّا لأداء صلاة العشاء وقراءة الفاتحة للسلطان، تعرَّف — بين المصلين — إلى مَن توسَّم فيه صلاحية الريادة، فدعاه إلى بيته.

لم يبدأ في إرشاد مريديه وسلوك طريق الحقِّ بهم إلَّا بعد أن عرف المخاوف والمهالك والحدود، درس الفقه والكلام والأصول على أيدي أساتذة المعهد الدينيِّ بالمسافرخانة،

وإن لم يلتحق — ذات يوم — بالدراسة المنتظمة، اقتصر فراغ وقته — أو كاد — على تلاوة القرآن ودراسته، ودراسة الحديث والفقه، وحضور مجالس الوعظ وحلق الذكر، أحكم معرفة آيات القرآن، ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، مكِّيه ومدنيه، وفهم تفسيره، وعرف الروايات والأصول، حفظ الأسماء السبعة الأُوَل، فصول الأسماء كلها؛ الحي، العالم، المريد، القادر، السميع، البصير، المتكلم، حفظ الكثير من الأحاديث الشريفة، والأدعية النبوية، والسِّيَر المضيئة، وأدعية الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين، والأذكار الشرعية على اختلاف مراتبها، وأوراد وأحزاب أهل الله، وتفقَّه في قواعد أهل السُّنة ومشايخ الصوفية الرافضة والجهمية والشيعة والمعتزلة والقدرية والمشبهة، عرف الاختلافات في أُسُس العقيدة والتوحيد، وتعلَّم الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والمنطق والحساب في حدود المسائل الشرعية، ثم نذر نفسه لدلِّ السالكين على سبيل العروج إلى الخالق، وإرشاد التائبين التائهين إلى منارات طريق الآخرة، ينصح بمجاهدات ورياضات وأوراد وأذكار وأعمال تزكي نفسه، تطهرها من أدرانها، يسأل المريدون ويجيب، يقرءون القرآن، يفسِّر لهم الشيخ آياته، يستنبط منها الأحكام، يروي لهم أحاديث الرسول، ومآثر آل البيت، وقصص الصحابة والأولياء والتابعين، تقتصر أحاديثه في الدين، لا يجاوزها إلى أحاديث أخرى، لا يتكلم إلَّا همسًا، لغلبة تجلِّي الفيوض الإلهية في أحواله، والغالب على طبعه البسط والتبسُّم ولين الجانب والشفقة. يعروه صمت، فيعرف مريدوه أنه يتأمل في الله وصنعته، ربما فزَّ من مجلسه، وكبَّر للصلاة دون موعد، يثق المريدون أن ما فعله هو بعض سرِّ الصلة بينه وبين الملكوت الإلهي. إذا رفع رأسه من السجود، بدت الدموع على الأرض موضع الرأس، كأنها البركة الصغيرة، يلجأ إلى غرفته، أحيانًا، يطفئ النور، ويحكم إغلاق الباب والنافذة، لا يأذن بتسلُّل ضوء القمر أو الأنوار الباهتة من الحارة الخلفية، يلزم المريدون أماكنهم في الخارج، تصل إليهم كلماته المتسائلة والآمرة، فيعرفون أنه قد خلا في حُجرته المظلمة إلى قوى لا يعرفونها، يناقشها، ويُصدر إليها أوامره.

اتسعت دائرة تلاميذه ومريديه، قصده في زاوية الأعرج خلْقٌ كثيرون من أهل بحري والأحياء المجاورة، غالبيتهم من الصيادين والعمال والباعة السريحة وأصحاب الحِرَف، مَن يتردَّدون في إلقاء الأسئلة بمجلس الشيخ طه مسعود إمام أبو العباس، أو أن الإمام يهمل الإجابة على أسئلتهم، لا يختار لنفسه موضع الصدارة، يجلس حيث ينتهي به المكان، وندواته — في الأغلب — على صورة حلقة، يحرص أن يخدم زائريه، أصدقاءه ومريديه وتلاميذه، يتصاغر لما يفد على ألسنتهم من آراء تفد عفو الخاطر، لا يُبدي تأففًا،

ولا يرفض الإجابة إن تضمنت الكلمات سؤالًا، ويتواضع باشًّا في وجوه محدِّثيه، لا يشتطُّ به الغضب، ولا يعلو صوته بعبارة محذِّرة، وإن لم يكُن يأذن لمريدٍ أن يبصق في مجلسه، أو يدخِّن سيجارة، أو يضع رِجلًا على رِجل، أو يجلس في وضع اللامبالاة.

أضاء نفوسهم بكلماته، له آراؤه في الحقيقة المحمدية، وأهل البيت، والأولياء، والمعجزات، والكرامات، والاستغاثة، والزيارة الشرعية، وفي علم الكلام، وآراء الفلاسفة، وشطحات الصوفية، واجتهادات الطوائف والفرق.

اشتُهر بمعرفته بالأصول والفروع والعربية واللغة والتفسير والقراءات، وبتفوقه في علم الحديث، سواءً في التاريخ، أو في الإسناد والنسخ والتصحيح والضبط، وفي حفظ الألقاب والأسماء والكُنى.

تركزت كلماته في الدعوة إلى الزهد ومخالفة النفس، والندم والاستغفار، والعمل بآيات القرآن، والاقتداء بسُنة الرسول، وأكل الحلال، وكفِّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

تحدَّث عن الإخلاص، والصدق، والتوكل، والزهد، والورع، والرضا، والتسليم، والمحبة، والفناء، والبقاء، والذات، والصفات، والقدرة، والحكمة، والروحانية، والبشرية، ومعرفة حقيقة الحال، ومقامات أهل الولاية.

دعا إلى التخلص من معايب الدنيا؛ الحسد، والكبر، وحب الجاه، والسيطرة، والرغبة في الرئاسة، وهمِّ الرزق، وخوف الفقر، وخوف القلب من الثقة في الله وعطاياه وقسمته للأرزاق، وخوف انخفاض المنزلة عند الناس، والشح، والبخل، وطول الأمل في قادم الأيام، والغل، والغش، والمباهاة، والتفاخر، والمداهنة، والطيش، وضيق الصدر، والخوض فيما لا يعني.

كان يتروى، لا ينطق بالرأي إلَّا قبل أن يتدبره، ويختار الكلمات التي تعبِّر عن المعنى جيدًا.

لم يبالغ في شروطه كمشايخ آخرين، فيأخذ على مريده ألَّا يبقى له تصرُّف في ماله ولا زوجته ولا نفسه، إنما التصرُّف كله للشيخ. تحدَّدت شروطه — لا يجاوزها المريد — في الفرائض والسُّنن والأوراد والأحزاب والطهارة.

– ليس شيخك مَن سمعت عنه ... إنما هو مَن أخذت عنه ... فهل اكتفيت بالسماع من إمام أبو العباس، أو أخذت عنه ما قاله؟

قال زكي تعلب: لم أجد فيما قاله ما يغريني بأخذه.

قال الشيخ: إذَن ... هو ليس شيخك.

ثم وهو يضغط على الكلمات: شيخنا يتحدث عن المبصرات، ونحن في حاجة إلى أحاديث البصائر.

وخالط صوته تأثُّر: شيخنا يقول للناس ما يحبُّون أن يسمعوه.

وجال بعينيه في الملتفِّين حوله: أنا أفضِّل أن يعرفوا ما تفيدهم معرفته.

قال زكي تعلب: إنه يظنُّ أن الله يسكن جبته!

أظهر الضيق: مولانا عالِمٌ جليل ... لا أحبُّ أن نتحدث عنه بتحقير.

وقال لعلي الراكشي وهو يودعه ليلةً: الحقيقة مثل اللؤلؤ ... وهو لا يوجد إلَّا في البحر، ولن تصل إلى ذلك البحر إلَّا بالسفينة ... والسفينة اسمها التصوف.

وقال له في ليلة تالية: التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب.

وفاجأه — ليلةً — بالسؤال: ألست مسلمًا؟

قال الراكشي: طبعًا!

قال يوسف بدوي: التصوف من الإسلام كأنه الروح من الجسد، اتبع شيخك يصحَّ إيمانك.

ثم في لهجة مشجِّعة: إذا ترقيت في مقامات الإيمان ... فستصل بعون الله إلى مقام الإحسان، فتعبد الله كأنك تراه.

قال الراكشي: وهل هذا آخر المقامات؟

– إنه مقام العارفين، الواصلين، المكرمين بأنوار الله وأسراره.

مع أنه أفاد من دروس إمام أبو العباس، استوعب منها ما استطاع، فإن كلمات الشيخ قادته إلى دنيا مغايرة من القراءات والأدعية والغوامض والأسرار، كشف له عن تلقِّي العلوم الإلهية، علَّمه ما ينبغي أن يكون عليه المتلقِّي من الاستعدادات وآداب الأخذ والعطاء، والقبض والبسط. عالَمٌ لم تطأه قدماه من قبل، يحفل بالنورانيَّة والرؤى والصفاء والأغنيات الجميلة الغائبة المصدر.

لما اطمأنَّ إلى إخلاص انتباهه قال: قبل أن تواصل سيرك في الطريق ... عليك أن تطمئنَّ إلى علمك أولًا!

استطرد موضحًا: العلم هو أول ما فرضه الله على عباده.

دفع إليه — وهو يودِّعه — ذات مساء، بمظروفٍ كبير الحجم: هذه الأوراق ... أتركها عندك وديعة.

غلبته الدهشة: لماذا؟!

– اقرأ ما بها ... ثم أعدها.

أظهر القلق: لست متعلمًا بما يكفي.

حدجه بنظرة مترفقة: قلت إنك تعلَّمت إلى الابتدائية.

ثم وهو يربت كتفه: ما يصعب عليك فهمه ... سلني عنه!

رأى الحاج قنديل — في الليلة نفسها — يغادر نقطة الأنفوشي.

تبعه.

أعدَّ في فمه كلمات الاعتذار والمصالحة، أسرع في خطواته بحيث إذا نادى على الحاج سمعه، لكن قدميه أبطأتا، حتى مضى الحاج في قلب السيالة.

حقيقة ما جرى للصياد جمعة العدوي

الموت على رقاب العباد، لكن الزميل الحبيب جمعة العدوي — في الحقيقة — لم يمت، وكان من الصعب إنقاذه من الأيدي التي احتضنته، وغابت به داخل البحر ... ورأيناها.
لذلك تفاصيل كثيرة.

صورة لما يجري في بداية كل رحلة

الجدُّ السخاوي يصعد إلى البلانس أولًا؛ هكذا تقضي الأصول. عجوز، يهمل قص أظافره، أو مداواة جروحه، فالقبر يخفي كل شيء.

يشيح بيده للملاحظة: عندما نكبر ... لا يكون لذلك أهمية!

يعلو حاجبا حمودة هلول بالدهشة: هل الكبر هو انتظار الموت؟!

وهو يغمض عينيه في سرحة: إني أركب البحر، وأنفق على نفسي ... لكن العناية بتلك الأمور — يعبِّر بيديه — تختلف عن عنايتنا بها حين نكون شبابًا.

تقدَّم السنُّ باديًا عليه، وإن صعب عليه تحديد عمره. التجاعيد تعرُّجات في وجهه، وأجفانه ضاقت على عينين غاب التماعهما.

لا أحد يتذكر طفولته، أبناء جيله ماتوا، والآخرون وعوا عليه وهو عجوز. لم يتعلَّم سوى حروف الهجاء، وكيفية وصلها، وقواعد الجمع والطرح، وآيات من القرآن. يحتفظ بكمِّية طيبة من الأمثال والحكم والألغاز والحواديت والحكايات الجميلة، يعرف بالأنساب، وأسماء الرجال، في السيالة وما حولها، وغالبية أسماء النساء، عرفهن قبل أن يكبرن ويتزوجن ويلدن الأبناء. إذا قادته خطواته في حواري السيالة، نادى عليه النسوة

من النوافذ وأبواب البيوت، ربما استوقفته واحدة في الطريق وشكت له معاملة زوجها، قد يبادر بالسؤال عن الزوج الغائب أو صحة الابن المريض، يردُّ على الدعابة بما تسعفه بديهته، ويبذل النصيحة عن طيب خاطر، يزوره الرجال، يسألونه، يناقشونه، يعرضون مشكلاتهم اليومية، حتى الذي تهجر امرأته فِراشه، يشكو له همَّه.

ابنته الوحيدة — كبرى أبنائه — جدَّة لبنين وبنات، أولاده الثلاثة اختاروا مِهنًا مغايرة؛ الأول تاجر منيفاتورة بشارع الميدان، والثاني عرضحالجي أمام سراي الحقانية، والثالث سائق بترام الرمل، اعتادت زوجته البقاء — لأيام — في الشقَّة المطلَّة على زاوية الزواوي، وإن تردَّد عليها، معظم ساعات النهار، سيدات من الحي ينظِّفن لها البيت — فهي مريضة — ويجهِّزن الطعام، ويغسلن الثياب، ويملأن القُلل، ويبخِّرنها، ويقضين حاجياتها من السوق، يحببنها لأنها زوجة الجدِّ السخاوي، ولأنها طيبة، سهلة العِشرة.

لا يغادر جلسته، يحتضن النفس — وأشعة الشمس — بقبضتين لا تفتران، ينزع غطاء رأسه قبل أن ينام، يؤمن بفائدة الشمس للجسم، لا يخشى منها حتى على رأسه.

يرنو إلى السماء بنظرة ممتنَّة: عندما يضايقني أيُّ شيء … أشكوه إلى الشمس لحظة طلوعها، فتهدأ نفسي.

يضيف بلهجته الطيبة: إذا غابت الشمس … أحسست بالغربة!

كأنه مسكون بانجذابٍ نحو الشمس، لا يتصور أنها مجرَّد كائن جامد، يراها كيانًا وروحًا وعقلًا، ربما وجد نفسه مستغرقًا في التحدُّث إليها، يكلِّمها بما يفد إلى ذهنه ولسانه ويشكو همَّه، لا يعنيه إن لاحظ مَن حوله أو أنصتوا، يحبُّ الشمس، والتنفُّس بعمق، والتمدُّد فوق الأرض الرملية، والبحث عن الهدوء ما أمكن، يحبُّ الجدار القديم، يلتصق فيه بالرؤى التي لا يتبيَّنها الرجال، لا يشرب الكيف ولا القهوة، ولا يدخِّن، وإن أسرف في شرب الشاي، إذا أصابته إنفلونزا أو نزلة برد، شالها على قدميه، يرفض أن يلزم السرير، لا يركب البحر، وإن قضى يومه في قهوة الزردوني، يروي ذكرياتٍ قديمة، يردِّد أغنيةً بعدت أيامها، يرسل حكمةً عفو الخاطر، يعطي خبرته، يفرغ معلوماته للسؤال: هل البحر اليوم شرد أو حصيرة؟

الهواء له دوره في نجاح الصيد أو فشله؛ الهواء الشماليُّ يزيد في ضغط الجو، الهواء الجنوبيُّ يؤثِّر على حركة الأسماك، فتستقرُّ في الأعماق، حقول الأسماك خرائط في رأسه؛ في الأنفوشي والميناء الشرقية وأبو قير ورشيد ومطروح والسلوم والبرلس وبور سعيد وخليج السويس، المكان، والعمق، وأنواع الأسماك، يعرف الكثير عن تيارات المدِّ والجزر

والتيارات والضوء والحرارة، على طول الساحل حتى آخر الحدود الليبية؛ الأمواج والرياح والعواصف والأنواء وسحب الأمطار ومواعيد السفر ومناطق الوفرة والجدب، البحر صديق قديم يطمئنُّ إليه، فلا يمكن أن يخذله، وإن اعتاد الرجال قوله: البحر عندما يعطي فهو يعطي بسخاء، أمَّا إذا أخذ فالله هو المنجي!

دلَّ الرجال — بعد انتهاء الحرب — على مناطق جديدة للصيد شرقي الساحل، غنية بالبربوني وسمك موسى والمرجان واللوت.

بكى الرجال فرحًا.

عمليات الصيد غربي المدينة ضعيفة، رغم توافر الأسماك، البلانسات والفلايك تخلو من الثلاجات، فيفسد محصول الأيام الصعبة، لكن الرجل يؤكد — في النهاية — أن بركة الله — وحدها — هي التي تحمي الرجال، لا قيمة للتأكد من ارتفاع الموجة، وحرارة الماء، وكمية الرطوبة، وسرعة الريح، والتطلع — بفهم — إلى الأفق. البراعة تتركز في التأكد من متانة الدفَّة، وسلامة الشراع وطريقة فكه ونشره في مواجهة الرياح واتجاهاتها؛ بحرية أو غربية أو مريوطية. ما تبقَّى فمن تساهيل الله. يردِّد التسبيحات والصلوات على النبي، يردِّدها الرجال من بعده.

نحذر التعثر عند صعودنا إلى البلانس، لا ننظر وراءنا، نقضي على أسباب النحس، نبصق على الغزل أو في القارب، استجلابًا للحظ.

ربما أرجأ الجدُّ السخاوي موعد الإبحار، إذا قفز أحد الرجال إلى البلانس بالقدم اليسرى.

ينزلق البلانس في المياه ببطء، سبحان الذي سخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين. طوله أقلُّ من ثلاثين مترًا، مع هذا، تكدَّس على سطحه وفي دخانيقه زاد وزواد؛ الماء والزيت والشحم والثلج والخيش والغزل والحبال والطبالي وصناديق الدخان والأدوية وأدوات النظافة والجرادل وقِطع الفلين. يغادر الأنفوشي إلى ظهر البحر، بعيدًا عن الشاطئ والبيوت والسفن الصغيرة وسماع أصوات الاستغاثة.

الجدُّ السخاوي يضع يده على حافة عينيه، يحدِّق في الأفق، ما بعد الجزيرة، ربما يتوه في أزقَّة الأنفوشي ورأس التين، معظم وقته — في البر — في قهوة الزردوني أو في بيته، يحبُّ حائطًا بالذات، في سطح البيت المطلِّ على زاوية الزواوي، يجلس إليه غالبية أوقات النهار، يغفو، يصحو، يتأمل تموجات الخيوط المتصاعدة — بتأثير حرارة الشمس — من مياه الخليج، يهزُّ الرأس لمرأى أسراب النورس، الغربان البيضاء التي مسخها الله لأنها تسرق طعام الصيادين.

يقول حسان عبد الدايم: أَلِسْطَة!
يشير الجدُّ السخاوي إلى السكومندو قاسم الغرياني: افرد الشراع.

بعض ما رواه قاسم

في لمحة، أو أقل، اعتليت الصاري.

فككت الحبال من حول الشراع، فردته ببطء، أطلقته، هبَّت الريح فامتلأ بالهواء. لا أترك مكاني، أتأمل البلانس، حركة الرجال من فوقه، بيوت الأنفوشي تتحول — من بُعد — إلى خطٍّ رمادي، يتضاءل، يشحب، يغيب، فتحيط بنا المياه من كل جانب، أتعمَّد ألَّا أطيل إليها النظر؛ انفراجة الموج لمقدمة البلانس في عناق الرحلات المتصلة، ساقا امرأةٍ تتشوقان للمضاجعة.

أنزل إلى الدفَّة، خلِّ عنك يا جد سخاوي.

شعور الراحة يتملكك وأنت تواجه — من نافذة مرتفعة — ليل المدينة الغويط، الشعور نفسه يتملكك وأنت تدير الدفَّة في مواجهة الموج الهادئ، البحر أرضك، يدان لذراعك، لسطوتك، تقفز في دائرة الشِّباك التي ألقى بها الرجال، تتأكد من كردون الفلين الذي يحيط بالدائرة، تتأمل صحوة السماء، امتداد تكسرات الموج من كل الجهات، تردِّد — مع الرجال — مقاطع أغنية، تساعد في إعداد الطعام والشاي، ترفُّ ابتسامة لذكرى قريبة، تملأ النفس رؤًى وأحلام، حتى الشتاء له أيامه الطيبة الكثيرة.

لسنواتٍ عملت جنديًّا في سلاح الحدود، كرهت الصحراء؛ سكونها، جمودها، امتدادها إلى خواء. الصحراء تبدأ رمالًا وتنتهي كما بدأت. بقدر ما كرهت الصحراء أحببت البحر، البحر نعرف أوله ولا نعرف أخره، نرى سطحه ولا نعرف ماذا في قاعه، هل توجد حياة وناس من عوالم تحتية، أو أن الأسماك الهائلة، والكائنات التي لم نرها، تلتهم البشر؟! السطح المكشوف، الأعماق الغامضة المبهمة، القوة الهائلة الطيبة القاسية، تبدل الأجسام والأصوات والألوان في السطح، وفي الأعماق حياة البحر لا تعرف الانطواء وأخذ الجانب، لا بد أن تصادق، تحادث، تسأل وتجيب، تبدي الدهشة والفرحة والأمل، تكشف ما بداخلك، حتى لو كنت ذا طبيعة كتومة ... البحر يفرض المصارحة، يفرض الجرأة والشجاعة أيضًا، بمجرَّد الخروج إلى عرض البحر أنت تواجه المجهول؛ الأسماك الشرسة، والنوَّات، والأمواج العالية، وتمزقات الأشرعة، وأعطال الآلات، والدُّوار، والبرد القارس، والشمس اللاهبة.

الجدُّ السخاوي لا يخطئ في ترتيبات الرحلة، متى نعد البلانس للإبحار، الثياب والأغطية المطلوبة، ساعة القيام، العودة، اتجاهات الريح، توقعات العواصف والنوَّات ... لكن البحر — في النهاية — بأهله، حياتنا في المركب أطول من حياتنا داخل البيوت، جيراننا السماء والشمس والمياه والأسماك وأغنيات الصيد، البلانس هو البيت والقهوة والشارع والعمل، نخالط مَن تمتدُّ مودَّتنا لهم حتى آخر العمر، ونلتقي بمَن تنتهي معرفتنا بهم عقب مغادرة الميناء الذي التقينا فيه. الأغنيات التي نردِّدها في عرض البحر تختلف عن أغنياتنا عند إنزال أو رفع الشراع أو جرِّ المرساة، أو إذا كان البلانس ينزل البحر للمرَّة الأولى. لكل مناسبة أغنياتها، نتطلع — بعد أيام — خلف حاجز المركب إلى الخطِّ الرماديِّ الضئيل، الممتدِّ في نهاية الأفق. يهتف أحدنا، أو نهتف في صوت واحد: أرض!

نصادف مركبًا أو اثنين، ثم تتوالى السفن المتجهة إلى عرض البحر، والعائدة، والواقفة في أماكنها. زحام من السفن الكبيرة والصغيرة تؤكد دخولنا الميناء، ثم تتناثر المرئيات؛ مئذنة أبو العباس، صاري العلم فوق سراي رأس التين، قلعة قايتباي، أسطُح البنايات العالية، صفُّ البيوت في امتداد الشاطئ.

يصعد الحاج قنديل إلى البلانس، قبل أن يصل الشاطئ، يتسلم «المحصول»، يتقاضى هديته، ونحمل باقي الطبالي إلى الحلقة، أو يشتريها الباعة على الشاطئ، أو في الحلقة، نعطي حاملي الأوعية والسِّلال ما يأذن به الجدُّ السخاوي من الأسماك والثعابين والجمبري، يكرِّر الجدُّ السخاوي اعتزازه بأيام كانوا يفاضلون بين صيد المركب، يختارون الأنواع النظيفة، ويعيدون الأنواع الأخرى إلى البحر.

تُفتح الأبواب المغلقة، وتطلُّ النسوة من النوافذ، ويقفن على الأبواب. تتعالى التعليقات الصاخبة والهامسة، ويُؤمر الأولاد بالذهاب إلى أماكن نومهم مبكرين.

موال للصيادين

أقوم من النوم أقول يا رب عدِّلها،
بلدي قصاد عيني ومش عارف أعدِّلها،
وادي ريس البحر محتار ما هو عارف يعدلها،
سألت شيخ عالم بيقرا في معادلها،
سند الكتاب من يمينه والتفت قال لي:
بين المسا والصباح ربك يعدِّلها!

ذكر حادثة قديمة كتمهيد مناسب

البلانس «تماظا» خرج إلى البحر — بعد عَمرة — منذ ثلاث سنوات، غيبت الأيدي المجهولة الحبيب تماظا الهوا من فوقه في نوَّة العجوزة.

نادى على عم حزين الهوا الذي كان يعالج الدفَّة في مواجهة الريح الشديدة.

تألم الرجل، بكى، صرخ، بسمل وحوقل وتهدَّج بدعوات ... لكنه لم يحاول حتى أن يترك مكانه.

كان البحر ملك أهله، والأيدي المجهولة لن يشقَّ عليها أذى مَن يقاومها، نفَّس الرجل قهره في البلانس، حطمه — بعد العودة — تمامًا، ثأر منه، أضافه إلى خسارة الابن الغالي، لم يكُن لديه حيلة أمام قوى مسيطرة باطشة.

ماذا جرى في الرحلة المشئومة

خرجنا إلى عرض البحر، شرقي الإسكندرية.

الدفَّة في يد حسان عبد الدايم، يديرها دون عناء، الوحيد الذي يغلق فمه على كمية من الزيت، إذا غاص، ينفثها في الماء، فتضئ له البحر، ويرى طريقه.

ما يشبه الوسوسة ترامى إلى أسماعنا، اختلاط أصوات الرمال من جُزرٍ لا نراها، بالمياه، بالأصوات الهامسة التي يغيب مصدرها. جُزرٌ مجهولة، يسكنها كائناتٌ ليست من البشر، ترعى في أحراشها دوابٌّ هائلة، تأتي المراكب فتضربها، تحطمها، أو تركب فوقها، تهبط بواحدٍ من ركابها، أو أكثر، أو بالمركب كلها إلى قاع البحر.

الجدُّ السخاوي لم يخفَّ قلقه. هزَّ رأسه، وأشاح بيده.

أهل البحر يضمرون الشر، فلم يكُن في الأفق — لَمَّا بدأنا الرحلة — ما ينبئ بعاصفة: اليوم أربعاء ... فيه أُغرق قوم نوح!

بدا الجدُّ السخاوي أشبه بالمارد؛ أوامر، وشخط، ونطر، وقوة على النفس وعلى الرجال.

أشار، فقفز قاسم إلى الصاري، يحتضنه، يلمُّه، يحيطه بالحبال، تقلصت قبضتا عبد الدايم القويتان على الدفَّة، أغلقنا الأبواب المفتوحة، ربطنا المعدَّات المتناثرة في البلانس، حتى الطبالي الممتلئة بالأسماك والثلج، ربما طيرها عنف الرياح، وأعددنا الجرادل لنزحَّ المياه عندما يركب الموج سطح البلانس المكشوف.

اهتز البلانس دون رياح حقيقية، تشنَّجت أصابع عبد الدايم على الدفَّة.

علت الأصوات الهامسة، تداخلت، فأصمَّ الآذان زعيقٌ وصراخٌ وضحكاتٌ مجلجلة، تكاثفت الظُّلمة، وهاجت الرياح، وتدافعت الأمواج كالجبال، لا تتكسر مياهها.

ارتطمت سلاسل الجبال الصغيرة بجانب البلانس، فمالت به، كل موجة تحمل في طياتها روحًا حية، تدفعها، تعلو بها، ملايين الأفواه — لا نراها — تنفخ الهواء الراكد، يصبح ريحًا، فعاصفةً، فنوَّةً قاسية.

همس الجدُّ السخاوي بِورد البحر: فلنأمل في بركات سيدنا الخضر.

شاب صوتَ قاسم غضبٌ: وما شأن سيدنا الخضر بما نحن فيه؟!

قال حسان: إنه يظهر لمثل مركبنا، فيقودها إلى الطريق الصحيح.

نطَّت سمكة هائلة في البروة.

صاح الجدُّ السخاوي: لا يلمسها أحد ... حتى قطرة الماء ربما تحمل الخطر!

في لحظاتٍ أحاطت الأيدي الخفيَّة بالبلانس، واختطفت جمعة العدوي.

الصورة الأخيرة التي نذكره عليها، حين كان يحتضن البروة، ثم اختفى؛ تدافعت الجبال الصغيرة، فأخفته في ثناياها، لم يجد الفرصة للاحتماء أو المقاومة أو الاستغاثة، اسم قاسم — دون سواه — رفَّ في أسماعنا: الحقني يا قاسم!

كانت البروة قد خلت منه، الجبال الصغيرة تناطح البلانس بقسوة وحشية.

نزع قاسم ثيابه، وهمَّ بإلقاء نفسه وراءه، جذبه الجدُّ السخاوي، احتضنه في صدره المتعب، المقاومة ربما تدفعهم إلى اختطاف البلانس بأكمله.

ملاحظات ذات أهمية بالغة

حين تطوفين بحُجرات البيت، تكنسين التراب من الصالة إلى الداخل، لا تكنسيه ناحية الباب الخارجي، فلا تكنسي الحظَّ السعيد، تطلقين البخور، تبسملين، تحوقلين، تردِّدين الأدعية، تقرئين آية الكرسي، تتأكدين من إغلاق النافذة المطلَّة على سيدي كظمان — حتى ولي الله لا تأمنين جانبه — فلأن تلك هي الوسيلة التي تجنِّبين بها البيت أذى عوالم أخرى، الأولاد والبنات يصارحون بالشكِّ وعدم التصديق: ما عفريت إلَّا بني آدم!

قال قاسم الغرياني: لو أن هناك عفاريت بالفعل ... فستختار بيوت الأغنياء!

أضاف وهو يطلق ضحكته الرائقة: يكفي أمثالنا عفريت الفقر!

تستعيذين بالله، وتطلبين المغفرة، مكتوب في القرآن الكريم الذي لم يحسنوا الإفادة من قراءتهم آياته، لكنك – لِمَ؟ – ترفضين رواية اختطاف أهل البحر لزوجك جمعة العدوي، أكدها كل الرجال، ربما أخطأ الجدُّ السخاوي، ربما الأربعاء ليس أفضل الأيام ... لكن البحر عندما أقلعنا كان حصيرة، بعدنا عن الشاطئ بأزيد قليلًا من كيلومترين، اختطاف جمعة العدوي هو المعنى لكل ما حدث، أثاروا الرياح بآلاف الأفواه، حركوا الأمواج بملايين الأيدي والأقدام، أحاطوا بالبلانس، وأصروا على ما يريدون.

لم يكُن بوسعنا أيُّ شيء. قاسم همَّ — لسماع اسمه — بالقفز وراء العدوي ... لكن الأعماق البعيدة، الدنيا الغامضة المجهولة، كانت — في ثوانٍ — قد ابتلعته.

لعلَّه — يومًا — يعود.

غيَّبت النوات — من قبلُ — رجالًا كثيرين، فجأةً عادوا، رووا الكثير من الحكايات والأعاجيب.

هذا أملنا.

الأسطى مواهب

بدوا غرباء عن القهوة، بالسروال الفضفاض، والصديري المزركش، واللاسة الحرير.

الكراسيُّ من الليف المجدول، والطاولات مستطيلةٌ رخاميةُّ السطح، وفي الصدر كنبة خشبية ذات مساند على الظهر والجانبين، وتناثرت على الكراسيِّ والطاولات والجدران آلاتٌ موسيقية قديمة؛ عود، كمان، طبلة، رق، ناي، مزمار ... وثمة صور — على الجدران — لسلامة حجازي وسيد درويش وزكريا أحمد وأحمد المسيري وحمامة العطار.

تعالت النداءات والدندنات والشتائم وعبارات اللوم والمعايرة، ولغة السيم التي غابت معانيها؛ كواني ... زبال ... آميد ... فورتي ... تشنيب ... موزة جهرة ... أبيِّج ... عنترة ... صولي ...

وضع الجرسون أمامهم طاولة من النحاس بثلاثة أرجل، وضع عليها — باليد الأخرى — صينية بها ثلاثة أكواب من الشاي.

نظر إلى الوجوه الثلاثة التي تحيط بالمكان في استغراب، أكبرهم في حوالي الستِّين؛ قامة مدملجة، ورأس أصلع، على الفَودَين شعر أبيض. دائم التلفت، ويجري بظهر يده على عينه كمَن يعاني رمدًا، الآخران شابَّان يشبهانه في الملامح، وإن بدا جسماهما أطول وأنحف، قدَّر أنهما ابناه.

– جئتم للاتفاق على صهبة؟

قال المعلم عباس الخوالقة: نعم!

أنهَوا تردُّدهم على الصاغة وسوق الترك وسوق المغاربة، لشراء الأساور الذهبية والطسوت، وأناجر النحاس المطروق. أنهَوا مشوارهم بقراءة الفاتحة لسيدي المغاوري، في التقاء شارعي إسماعيل صبري وصفر باشا، لم يعُد إلَّا الاتفاق مع العوالم، وتحديد موعد الزفاف.

قال الجرسون: هل جئتم لاسم بالذات؟

قال الخوالقة: لا!

وهو يومئ برأسه: إذَن ... عليكم بالأستاذ حسن عشم.

بدا — في جلسته على ترابيزة محاذية لشارع إسماعيل صبري — وحيدًا ومنعزلًا عمَّا يشغي في القهوة، يرتدي بدلةً سوداء ظاهرة الرثاثة، أسمر الوجه، وإن خالط سُمرته شحوبٌ، وفمه واسع، تحيط به شفتان غليظتان، يعلوهما أنف ضخم، يطلُّ من منخاريه حزمتان صغيرتان من الشَّعر الأبيض، بدأ حياته قارئًا ومنشدًا في أبو العباس، تعلَّم أصول ترتيل القرآن وإنشاد التواشيح، طال تردُّده على حفلات القرَّاء والمنشدين، وحاول تجويد الترتيل، صار على معرفة جيدة بالألحان في أصولها الدينية، واستوعب أصول الأنغام، احترف الغناء في الموالد والمناسبات الدينية والليالي والأفراح، أفلح في أن يميِّز الناسُ صوتَه بمجرَّد سماعه، دون أن يرَوه: عشم يغني! حين خذله صوته — بتأثير السنِّ والكيف — عمل «مطيباتي» يبدي الإعجاب، ويهلِّل للمطربة أو الراقصة: آه يا سيدي ... كمان والنبي ... يا عيني على كده ... أعد!

لما بدأ جلوسه على قهوة الفنانين، حرصت فرق العوالم على استخدامه، أشار على الأسطى مواهب أن تهمل أداء أغنيات مطربات الفترة وتغني من ألحانه، قرن نصيحته بتقديم أغنياتٍ قوامها الموشَّحات والبشارف والسماعيات، أدَّتها مواهب في حفل زفاف، فتمايل الحضور طربًا، وطلبوا الإعادة، ذاعت الأغنيات، فقلَّدها عوالم الإسكندرية، حتى الرجال خنثوا أصواتهم، وأعادوا غناءها!

اعتزم عباس الخوالقة أن يكون حفل عَقد قِران ابنته وزفافها في بهاء حفل ابنة الحاج قنديل وزفافها، هو مثله شيخ صيادين، يجمعهما الودُّ والصداقة والجلوس في درس إمام أبو العباس، وأمام صالون الحاج محمد صبرة، لكن المكانة الاجتماعية لا تعرف العواطف، ولا تأذن بالتغاضي عن كلام الناس وملاحظاتهم، وعن تأكيد مكانته في الحي، وبين الصيادين.

قال حسن عشم، وهو يعبث بإصبعيه في الشَّعر المتدلي من أنفه: كان المغنى زمان ... والله زمان يا طرب!

ثم وهو يمسح أنفه بظهر يده: هذه القهوة هي الامتداد لقهوة الجمهورية القديمة ... غنى فيها سيد درويش، وسمعه جورج أبيض وسلامة حجازي والست الغندورة والشيخ زكريا.

استطرد الجرسون وهو يضع الصينية بفناجين القهوة: في هذه القهوة كان المغني يحصل على رخصة الغناء واعتلاء التخت!

هزَّ حسن عشم رأسه في تأكيد: كان المغني يسمع ما يحفظ أمام أساتذة الطرب والموسيقا ... إذا وافقوا على أدائه، سمحوا له بارتداء حزام احتراف الغناء!

وأشار بيده ناحية الميناء الغربية: سلامة حجازي ولد بالقرب من هنا ... في حارة بز امه ... لكن والده كان صيادًا من رشيد ... وهكذا كل الأُسر القديمة في المدينة ... أصلها من رشيد.

وخالط صوتَه أسًى واضحٌ: القهوة تحتفظ — حتى الآن — باسمها ... لكن الفنانين لم يعودوا هم زبائن القهوة، أو أنهم تخلَّوا عن مكانتهم لآخرين.

واتجه إلى المعلِّم عباس الخوالقة بملامح متسائلة: هل تحسب أنك ستجد هنا عالمةً تجيد تقسيم الليالي؟ حسبك وجه مريح ... الوجه المريح أمر ضروري ... وصوت يخفي ضعفه بأداء الأغنيات الخفيفة.

واعتدل في جِلسته: أغنية يعجبني مثلًا.

ودندن:

يعجبني اللي يكلمني، وبحنية يغازلني،
وف نص الليل يسايسني، بس ماحبش يقرصني!

وتنحنح: حتى هذه الأغنية ... لا يقدر على أدائها مطرباتنا اللائي يتعاطين الأفيون بشراهة رجل!

قال عباس الخوالقة: كل ما أطلبه صهبة جيدة، تسعد البنت، وتسعد أمُّها.

قال حسن عشم: الأسطى مواهب هي الوحيدة التي تغني في تياترو أحمد المسيري.

قال محمود عباس الخوالقة: ربما تطلب مبلغًا مرتفعًا.

قال حسن عشم: مَن يعشق الفنَّ لا تشغله الفلوس ... والأسطى مواهب تحبُّ الفن.

قال الجرسون وهو يقدِّم كوب شاي لحسن عشم: أسطتنا أزاحت عن عرش الطرب أسماءً كبيرة.

وتظاهر بالعدِّ على أصابع يده: فاطمة القطورية وفاطمة كهربة وام النخيلي والتقيلة والحاجة زنوبة.

وتنهد: كثيرات!

قال حسن عشم: أسطتنا تخت بأكمله ... تجيد الغناء والعزف على كل الآلات ... وإن احتاج الأمر، فهي ترقص أيضًا.

مال عباس الخوالقة على أذن الرجل: لكنها — فيما علمت — عجوز.

قال حسن عشم: الدهن في العتاقي.

ولاحظ نظرة السخط في عيني الجرسون، فاستدرك: ثم إن أسطتنا ما تزال في أول شبابها.

اتجهت الأعين إلى باب البيت المجاور.

وقفت الأسطى مواهب بجسمها المتلئ، والأصباغ ملأت وجهها، والشبشب تطلُّ منه أصابع مطلية بالحناء، يتبعها رجل ضئيل القامة، ضيق العينين، شاربه كخطٍّ فوق شفتَيه، يرتدي جلبابًا مكويًّا، ودسَّ قدميه في قبقاب.

أطلقت — فجأةً — ضحكةً عابثة، تمهِّد بها لدخول القهوة، تبعتها بدندنة:

ما تخافش عليا،
أنا واحدة سجوريا،
في العشق يا إنته،
واخدة البكالوريا،
ما تخافش عليا!

علا صوت حسن عشم مغنيًا:

يا دلالي عليك يا دلالي سنتين وانا احب واداري

أطلقت المرأة ضحكةً مصحوبةً بغنجة:

عايق على خدك شامة وعينك منهم يا الله السلامة

أمضت شبابها في حارة العوالم، خطوات من شارع محمد علي؛ زوبة الكلوباتية ونبوية شخلع وعزيزة كهربة وعايدة وصفي وعزيزة حظ وقمر المصرية وحميدة المناصرة والفن والسهر والليل والنجوم والموسيقا والغناء والطرب وضبط الآلات والتقاسيم والصاجات وأغنيات الأفراح والسيم والسلام المربع. تعلَّمت كل الرقصات؛ الشرقي والشمعدان والزفة

والشرقاوي والنوبي والإسكندراني، تقدمها في الأفراح، ما عدا الشمعدان التي لم يطلبها أحد، فنسيتها.

لم تكُن مجرَّد مؤدِّية، كانت تجيد العزف على الآلات الموسيقية، وتفهم الغناء على أصوله، ثم لم تعُد المهنة كما كانت، زمان ومضى، لم تعُد العالمة تستحقُّ اسمها.

قالت وهي تعدُّ بيديها: الطاقم يتكون من قانونجي وعازف كمان وعازف بيانو منفاخ وطبال ومونولوجست ومطرب ... زائد راقصتين أو ثلاثًا لزوم الزفة.

أضاف الرجل وراءها متسائلًا: والحقاقة؟

قال لنظرة عباس الخوالقة الداهشة: هي التي تقول المديح في حقِّ العريس إن شاء الله.

قال مصطفى عباس الخوالقة: نحن أهل العروس.

قال الرجل: وتمدح العروس أيضًا!

قال الخوالقة محتجًّا: لم يبقَ إلَّا أن ندفع أجر المطيباتي.

قالت مواهب متغاضبة: نحن لا نستأجر مَن يبدي الإعجاب أو يهلِّل ... فنُّنا يكفينا!

أردفت في لهجة متفاخرة: لدينا راقصات يُجدن كل ألوان الرقص؛ إسكندراني وشرقاوي ونوبي وشرقي.

قال الخوالقة: سمعنا عن سناء العطار.

قال الرجل وراءها: هذه راقصة زنقة ... يُستعان بها إذا غابت الراقصة الحقيقية.

قال مصطفى عباس الخوالقة: نحن نطلب زفافًا محترمًا.

قالت مواهب: يا جارية اطبخي ...

قال الخوالقة: كل ما تريده الصهبة ندفعه.

أضاف موضحًا: ليلة الحنة ... وليلة الفرح.

زوى الرجل وراءها حاجبيه في استنكار: طبعًا!

قال حسن عشم: الأسطى مواهب من عائلة عوالم.

ثم وهو يضحك عن فم تساقطت معظم أسنانه: ولدتها أمُّها في فرح!

علا صوت الأسطى دون توقُّع:

يا ريس البحر خدني معاك من البر أحسن لي،
أتعلم الكار بوسع البال أحسن لي،
أزود بمدرة ... أجر لبان أحسن لي،

طلعت ألم القلوع لقيت العويل أطول من الصاري،
رميت المداري ... وقلت البر أحسن لي!

قال عباس الخوالقة: طبعًا ... توجد راقصة شمعدان؟

شهقت وهي تضرب صدرها بأصابعها: ماكانش يتعز! رقصة الشمعدان لا تعرفها الإسكندرية ... اذهب إلى محمد علي.

فوَّت الملاحظة: ليتك تتعاقدين أيضًا مع فرقة نحاسية.

أطلقت ضحكة مائعة: الفِرق النحاس عند المبيضاتي.

أضافت بجد: هذا زمان وفات ... لم تعُد فِرق النحاس — بعيد عنك — إلَّا للمآتم ... الصهبة تحلو بالطبلة والرق والقانون والعود.

وأغمضت عينيها كالمتذكرة: زمان ... كانت الغلبة للموسيقا الشرقية الأصيلة ... أمَّا الآن فالكل يعزف الموسيقا الخوجاتي!

قال الرجل الواقف وراءها: أفراح زمان ... أين هي الآن؟ ربما حمامة العطار هو آخر الفنانين الحقيقيين.

قالت الأسطى مواهب: متى الفرح بإذن الله؟

قال مصطفى عباس الخوالقة: الأربعاء.

علا حاجباها بالدهشة: ولماذا؟ عروسة الأربع يا تطلق ... يا على بيت أبوها ترجع.

قال محمود عباس الخوالقة: فال الله ولا فالك!

قال عباس الخوالقة: هذا هو الموعد الذي حدَّدناه مع أُسرة العريس.

قالت مواهب في تمنُّع: غيروه ... أنا مشغولة الخميس والسبت والأحد ... والجمعة إجازة ... الاثنين موعد مناسب ... عروسة الاتنين يزورها الحسن والحسين.

استطردت وهي تميل برأسها إلى الوراء: زمان ... كانت البدرة في الزفة جنيهات ذهب ... نحصل على النقطة بالعافية في أيام النحس!

قال حسن عشم: الأسطى لا تقبل سوى أفراح الشاطبي وطالع.

قال الرجل وراءها: النقطة في أحياء البلد لا تأتي بهمِّها.

تدخلت الأسطى مواهب: أنت أخ عزيز ... وابنتك ابنتي.

وقالت في حسم: اتفق معهم على ما يريدون.

قال حسن عشم: سلمتِ لنا يا معلمة ... هذا عشم الناس الطيبين.

وأخرج من جيب جاكتته العلويِّ ورقةً صغيرةً مطوية، جرى فوقها ببقايا قلم كوبيا: عشرة قروش عربون ... عشرة قروش أجر العربة الحانطور ... خمسة وعشرون قرشًا ثمن سجائر.

قال الرجل وهو يتبع الأسطى إلى داخل البيت: مقاولة الأسطى مواهب معروفة للجميع ... لا فصال فيها!

تناهى صوت امرأة من نافذة فوق القهوة: الأسطى ترفض أن يُفتح البوفيه بدونها.

قال عباس الخوالقة: المفروض أنها تحضر قبل ذلك بساعات.

قالت المرأة من مكانها: لا بدَّ للأسطى أن تقف بجوار العروس عند افتتاح البوفيه.

انصرف الشابَّان، تأخَّر المعلم عباس الخوالقة، همس في أذن حسن عشم: مَن هذا الرجل؟

هشَّ حسن عشم — بيده — ذبابة، حطَّت على حافة كوب الشاي، امتعض لسقوطها في الكوب، اهتزت، تحاول التخلُّص، ثم سكنت.

تلفَّت حسن عشم حوله: أيُّ رجل؟

– الذي كان يقف وراءها ... يسأل بدلًا منها، ويردُّ على أسئلتنا.

كشف حسن عشم عن أسنانه المتساقطة: إنه طبال الأسطى وزوجها ... وقوادها في حالات الضرورة!

قهوة كشك

مع أن الضابط الشابَّ أفاض في شرح البواعث التي جعلت من إغلاق القهوة — وكل محالِّ الإسكندرية — أمرًا مطلوبًا، فقد سأله المعلم كشك في قلق: ما المطلوب بالتحديد؟

القهوة منذ أنشأها المعلم كشك الكبير — في أعقاب الحرب العالمية الأولى — لم تغلق أبوابها يومًا، تستقبل الرواد إلى الواحدة صباحًا، تهدأ الحركة، يأتي الولد عزت بالمعدَّات والأغطية، يصفُّ الطاولات، تتحول بالتصاق كل طاولتين — إلى أسرَّة — يريح الرواد أجسامهم عليها.

قال الضابط: كل المحالِّ ستُغلق غدًا ... يوم حداد بمناسبة ذكرى توقيع اتفاقية السودان.

تساءل بيومي جلال: ما لنا والسياسة؟!

قال الضابط في غضبٍ واضح: ضع فلسفتك في فمك!

قال المعلم كشك: ولكن القهوة لوكاندة أيضًا.

جال الضابط بعينيه في المكان؛ الطاولات المتجاورة لم تُرفع عنها المخدَّات والأغطية، ورائحة النوم، وأكواب الشاي المتناثرة في الرَّدهة الفسيحة، وصورة على الجدار — علاها التراب — لخراف في مروج خضر.

– أيًّا كانت الصفة ... فإن المحالَّ العامة يجب أن تُغلق أبوابها اليوم كله.

قال سيد الفران في لهجة متوسلة: هل بوسعنا أن نلزم القهوة، ونغلق على أنفسنا من الداخل؟

زغده في كتفه: إن شئت ... تعال نستضيفك في القسم!

التقت نظرات الرجال في قلق.

لم يكُن غادر القهوة سوى ثلاثةٍ من التسعة الذين استقرَّ بهم الحال، بتوالي الأعوام والرواد، سعى حسنين الدمنهوري إلى محطة البنزين في أرض المحافظة القديمة، يعدُّ لتشغيلها قبل السابعة صباحًا، وبدأ عم محمد الطوشي جولته بصينية الحلوى، بعد أن اطمأن إلى تسويتها على المياه الساخنة، وحمل زناتي الكناس عهدته؛ مكنسة كبيرة. منطقته المحدَّدة من قسم المنشية إلى مبنى البورصة.

توالت الأعوام، فأحكمت العادة قبضته على القهوة وسكانها، لم يعودوا روادًا، أصبحوا جزءًا من حركتها اليومية، غابت الوجوه الطارئة، فيما عدا بعض الذين يجلسون على الموائد مصادفةً، ينهون صفقةً عاجلة، أو سائق تاكسي يميل إلى جانب الطريق ليحتسي كوب شاي، أو متقاضين ينتظرون فتح أبواب أو بدء جلسات، المحكمة الشرعية في مبناها القريب. اكتفت القهوة بسكانها التسعة، يغادرونها ويعودون إليها، في مواعيد ذهابهم إلى أعمالهم وعودتهم منها، لا يذهبون إلى مكان آخر.

نزع الضابط فتيل القنبلة، فانفجرت بعد انصرافه: كيف يترك السكان جزيرتهم المنعزلة إلى عوالم أخرى، لم يحاول غالبيتهم — من قبلُ — ارتيادها، ولا يعرفون عنها شيئًا؟!

بيومي جلال

دعا أقرب التسعة إلى نفسه؛ مصطفى حجازي ومؤمن الدشناوي، للجلوس على شاطئ الميناء الشرقية، يصعب أن يمتدَّ الإضراب إلى الصيادين، يشاهدون صيادي السنارة المتناثرين في امتداد الكورنيش، أو يتابعون صيد الجرافة، منذ استدارة حلقة الفلين في المياه، حتى سحبها إلى الشاطئ، والأسماك تلعلط داخل الشبكة.

وجد مصطفى حجازي في إغلاق القهوة المفاجئ فرصةً لزيارة أهله في كفر الدوار، استهوت الفكرة مؤمن الدشناوي، قرر قضاء اليوم بكامله في قريته القريبة من دمنهور.

لم يكد يقطع خطواتٍ في طريق الكورنيش، حتى أدرك سخافة الفكرة، ربما استهواه المشهد ساعةً أو نحوها ... فماذا عن بقية اليوم؟

خلا الطريق من الجنود والسلاح والمصفحات، اقتصر وجود الجنود على المعسكرات في مصطفى باشا وكوم الدكة والميناء، ربما يخرجون بأعداد قليلة في شوارع المدينة، فلا يفطن المارَّة إليهم، يحسبونهم على بحارة السفن الأجنبية، وثمة صيادون علَّقوا غزلهم — ليجفَّ — على المراكب المهجورة فوق الرمال والحواجز والجدران.

مال إلى شارع إسماعيل صبري، ومنه إلى رأس التين، فالحجاري توقف أمام بيتٍ صغير، تطلُّ واجهته على أول شارع المسافرخانة، تذكَّر — بلا مناسبة — أغنيةً قديمة، فدندن بها:

والصبر أمره طال،
واش بعد وقف الحال؟!

أدهشه — قبل أن يستخدم السقاطة — أنه لم يناقش البواعث، ولا كيف ساقته قدماه إلى هذا البيت بالذات، ثماني سنوات، أو تزيد، منذ غابت القرية المطلَّة على طريق المعاهدة، وإن لم يعرف من الإسكندرية سوى قهوة كشك، يكاد لا يغادرها إلَّا لشراء الطلبات من شارع الميدان.

حين أطلَّ وجهها من الباب الموارَب، حدَّقت للحظاتٍ، ثم عرف أنها تذكرته، لمَّا فتحت الباب على وسعه.

ظلَّ في وقفته يغالب الحرج!

تناهى صوتها من الداخل: تفضل يا سي بيومي … حسن موجود.

حسن عبد المقصود! دنديط؛ التُّرع والجداول وشجر التوت والصفصاف والطرق الترابية، المقابر تعلو — في هضبتها — عن البيوت، ناظر محطة السكة الحديد، جلسته المسترخية في المنتصف بين شبَّاك التذاكر ومخزن العهدة، إمام المسجد بعصاه التي لا تفارق يمناه، محمود المنسي وحسن النجار ورمضان أبو العلا وإبراهيم سليمان، أيام النزهة في ميت غمر والزقازيق، ورش البلاط واللحام والصاج، صناعة السِّلال وأقفاص الجريد لم تؤتِ همَّها، فترك القرية.

أدرك من مغالبة حسن — في الداخل — لنومه، وإلحاح المرأة الزاعق، أنه لم يُحسن اختيار وقت الزيارة، كان بوسعه أن يتمشى على الكورنيش، يتأمل صيادي السنارة والجرافة، يتطلع إلى المياه والقوارب وطيور النورس، يخالط الناس، ويدخل معهم — كما يحدث أحيانًا — في أحاديث تبدأ — في العادة — بلا مقدمات. طرف الخيط؛ رأيٌ، والتعقيب عليه. يتصل الحوار، ويتشابك الخيط إلى حيث تنشأ صداقة، يعلم أنه سيخلفها وراءه فور العودة إلى القهوة.

كان الأمر قد انتهى، ولم يعُد بوسعه التراجع، غالب حرجه بـ: يا ساتر، وبسم الله الرحمن الرحيم.

تعالى صوت المرأة من الداخل: تفضل يا سي بيومي.

الحُجرة بالغة الضيق، احتلَّ السرير ثُلثيها، وتطلعت إليه، من تحته، ستة أعينٍ صغيرة، في حين بدا حسن كالمتكوم على حافة السرير، يدعك عينيه بظهر أصابعه، ويغالب التثاؤب.

اكتفى بالتحية من بعد، وجلس على الكرسيِّ الوحيد في ركن الحجرة، أحسَّ بسخافة الموقف، لعن الإضراب وسنينه، لو أن القهوة لم تُغلق أبوابها، ربما كان يغسل الهدمتين، ويعدُّ لنفسه طعامًا، بدلًا من الأصناف الثابتة التي يقدمها له مطعم التوفيق القريب.

– خير يا بيومي؟

عمق السؤال إحساسه بالحرج: خير إن شاء الله ... وجدت في الإضراب فرصة لزيارتكم.

تناثرت السلامات والتحيَّات من جديد، فاترة، لمجرَّد أن يدور حديث، ثم أخلت الأعين الستة — فيما بعد — مكمنها، ونزل حسن إلى الحوض القريب، فغسل وجهه، وسحبت المرأة كبَّاس وابور الجاز، دفعته في تلاحق حتى علا الوش، وتعدَّدت أدوار الشاي، وأتى أكبر الأولاد بالطعمية الساخنة من «حسونة» بشارع صفر باشا، وعلت الضحكات لذكريات بعيدة.

صابر الشبلنجي

أطلَّ المعلم التميمي على ندائه من النافذة، فوق الإسطبل: إجازة اليوم يا صابر.

علت دهشته بالسؤال: حتى الإسطبل؟!

وهو يعيد إغلاق النافذة: أوامر الحكومة.

لو أنه صحا من النوم على مهل، في الوقت الذي يختاره، يتمطَّى، ويداعب بإصبعه خصلة شعره الأمامية، لا يشغله مَن تخلي القهوة لهم طاولاتها. يعدُّ — بنفسه — كوب الشاي بالحليب، يقلِّب في «غَلَق» الثياب، ربما غسل المتسخ منها. القهوة أغلقت أبوابها، والإسطبل أيضًا، راحة مدفوعة الأجر من تنظيف اللُّجُم، وغسل الحناطير والبنزات والكارو، وبيع الرَّوث للحدائق، وشعيرات الحصان تلتفُّ حول زوائد السِّنط، فتسقطها.

مضى في شارع السيالة إلى نهايته.

الدكاكين مغلقة، والشوارع مهجورة، انقطعت الرِّجل، فيما عدا أفراد اقتعدوا الأرصفة، ربما يعانون نفس ظروفه، أو أن لهم ظروفًا أخرى، لم يميِّز من بينهم أحد

معارفه، يجلس إليه، يحادثه، يأخذ منه ويعطي له، ينقذه من الحيرة التي لم تكُن في باله، ولا استعدَّ لها.

تأمل إعلانات ثلاثة أفلام — عرض مستمر — بسينما الأنفوشي، بالكاد نطق أسماءها: دايمًا في قلبي، بطولة عقيلة راتب وعماد حمدي ... طاقية الإخفاء، بطولة تحية كاريوكا ومحمد الكحلاوي ... المنتقم، بطولة أحمد سالم ونور الهدى. حتى باعة اللبن غابت نداءاتهم، واختفى الزبالون من مكان تجمُّعهم، أمام منزل أبو خطوة.

توقفت خطواته — بعد أن اتجهت، بتلقائيةٍ، في شارع شيمي بك المفضي إلى السينما — لَمَّا تذكَّر أن كل الأمكنة مغلقة.

عاد إلى ساحة المرسي أبو العباس، أسرع لرؤية جانب من البوابة المطلَّة على ميدان الأئمة مفتوحًا.

قبل أن يصعد الدرجات الرخامية، أشاح له الخادم بظهر يده.

مال ناحية شريط الترام، ومنه إلى الحديقة المقابلة لمستشفى الملكة نازلي.

جلس على السور الحديدي، يتطلع إلى البحر بعينين لا تتأملان، ينصت إلى أصوات التكسرات المتتالية للمياه على الصخور، وتناثر العجائز على الشاطئ يغزلون الكنار.

لو أنه يعرف!

القطار يصل رشيد في ساعة أو أقل، يقضي النهار بكامله، يعود أول الليل، يجاوز طاحونة أبو شاهين، فتبدو المشربيات مغلقةً كالعادة. مَن؟ أنا صابر. تستعيض عن عينيها المنطفئتين بيديها، تفسحان لها الطريق. هل تذكرت أمَّك؟!

قال المخبر: معك بطاقة؟

وهو يفكُّ الأستك عن المحفظة: نعم!

تساءل القادم من ناحية البحر: بلا عمل؟

– إجازة.

– تصيد بالجرافة؟

– لا أعرف!

– هذا شأني!

– ولكن ...

– الأجر عشرون قرشًا حتى الظهر.

مضى وراءه.

وكان نورسٌ قد مال إلى صفحة الماء، التقط شيئًا بمنقاره، لعلَّه سمكة، ثم حلَّق — ثانية — في السماء.

سيد الفرَّان

لحقها وهي تهمُّ بإغلاق الباب الخشبي الضخم، أهمل النظرة المتسائلة، عكست صيحتها: أنت؟!

زاد من اقترابه، فتركت الباب مواربًا: ماذا تريد؟

في لهجة متودِّدة: بصراحة ... الحكومة ضيعتني فأتيت.

روى لها ما حدث.

كانت خطواتها العائدة قد انتهت إلى الصالة الواسعة، خلت من الأثاث، فيما عدا كنبة وحيدة التصقت بالجدار، وكراسي، وطاولات قديمة تكوَّمت في جانبٍ منها، وثلاث إطارات مستعملة، وعِرق ضخم من الخشب، وصل ما بين المنتصف وأعلى النافذة المطلَّة على مَنورٍ خلفي.

تبعت نظراته.

كأنه يتعرف — للمرَّة الأولى — إلى البيت الخالي، كان ينتظرها — عقب انتهاء العمل — أول دحديرة أبو العباس، طريقها التي لا تغيِّرها منذ ألحقها بالعمل في بيته المطلِّ على سيدي البوصيري، عبد الله أفندي الكاشف الموظف بسراي الحقانية، تنظف وتغسل وتكنس، تتحمل أحاديث الرجل عن شقيقتين تزوجتا، وتركتاه وحيدًا، فاته سنُّ الزواج، ولم يعُد ثمة مَن يملأ حياته. تزوم وتواصل العمل، وافقت للإيراد الثابت، لم تشغل بالها — رغم تلميحاته المفاجئة — في أن يجاوز دوره كمخدوم، تشعر بالضيق — وربما القرف — من وجهه المستطيل، وشاربه الذي أخفى شفتيه، يطيل التأكد — في المرآة — من انتظام أطرافه، والزبد المهمل في جانبي فمه، والصوت الرفيع، ثم من الأحاديث المفاجئة المفعمة بالإشارات والتلميحات.

تدخل في الثالثة، عقب قدومه من الحقانية، وتنصرف في السادسة، تصعد الدحديرة إلى الموازيني، تشتري حاجياتها من شارع الميدان، تلتقي في طريقها بسيد الفران، أو سواه، كلمتين أو ثلاثًا، تحدِّد الموعد في ناصية الحجاري والمسافرخانة، تواصل سيرها إلى البيت، تظلُّ خلف البيت، لا تغلقه قبل أن يأتي الآخر، تحرص أن تكون الليلة لموعدٍ واحد، إذا واجهت إصرارًا فإنها تأخذ العنوان، وتطلب الانتظار.

لم تكُن تتوقع سيد الفرَّان في كل ليلة، الخبز الرجوع لا يعطيه حقَّ العشيق، تدبر الحُجج لرؤيته، يعلو الهمس أحيانًا، يتوضح الإصرار في لهجته الحادَّة، والتماع عينيه، وارتعاشة أصابعه التي اسودَّت بما يختلف مع بشرته المائلة إلى السُّمرة، تنهي الموقف خشية الفضيحة: اتبعني. ها هو ذا يحدِّثها عن اليوم كله، والمقابل، يتأمل داخل البيت الذي لم يكُن شاهده في النهار، لو أنها أصرت على الرفض أو قاومت، فمن يدري؟

– هل نقضي اليوم كله في حُجرة مغلقة؟

في استسلام لامس إشفاقها: إني ملكك، فتصرفي!

دخلت إلى حُجرة مجاورة، فلم يتبعها.

عادت بحقيبة من القماش، ملأتها بما لم يتبيَّنه، وإن أطلَّت منه عروق خس، حبكت الملاءة على خصرها، رفعت طرفها الأيمن، فبدا كاحل قدمها، تنعِّمه بالحجر الخفاف، أسدلتها على الساق اليمنى، ضاقت عند الخصر، ثم اتسعت لاستدارة الصدر، علت إلى الكتفين، وطوى الساعد الأيسر أطرافها، بينما المنديل بأوية يغطي الرأس، تنزلق منه خصلات الشَّعر الأسود، وضعت البرقع تحت العينين، فغطَّى باقي الوجه، ثم ثبتت «العروسة» على الأنف.

– ما أخبار المواصلات؟

وهو يؤكد بهزَّات من رأسه: رأيتها تعمل في طريقي إلى هنا.

ركبت الأتوبيس من أمام مستشفى الملكة نازلي.

تبعها في صمت، تشاغل بالنظر إلى البحر، يقذف برذاذ الموج خارج الكورنيش، ازدحمت السيارة في المحطة التالية، حرص أن تكون نظراته ثابتة عليها، فلا يغيِّبها الزحام.

نزلت في محطة الشاطبي، اتجهت إلى حدائق الشلالات، دون أن تُعنى بالنظر وراءها أو تشير إليه، فيقترب منها.

اختارت ظلَّ شجرة أمام المستشفى الأميري، وضعت طبقًا كبيرًا به كومة من أمِّ الخلول والجندوفلي وبلح البحر والجمبري.

رنا إليها بنظرة متأملة.

كانت قد أهملت الملاءة، وتربعت، وإن غطت ساقيها بفستان من البوبلين الملوَّن، دارت آثار حرق في رقبتها بإيشارب، دسَّت أطرافه في صدرها، عيناها الواسعتان الشديدتا الصفاء، تغمضهما — لكلماته — في خجلٍ يدهشه.

أطال تأمل تقاطيع وجهها المنمنمة، ولثغتها الواضحة، وهزَّة رأسها في الكلام، وكلماتها العفوية، والتعبير بأصابعها.

شرقت في حديثها وغربت.

مع أنها لا تتردَّد إلَّا على بيوت العزاب أو تدخل بيوت المتزوجين في غيبة النساء والأولاد، فإنها عرفت الكثير من أسرار البيوت، استمعت إليها في أوقات الصفو والمؤانسة، وهي تستبدل ثيابها، وهي ترتشف كوب الشاي قبل أن تدخل غرفة النوم، وهي تتهيأ للانصراف، لا تسأل، إنما تترك أذنيها، قصعة يقذف فيها الرجال بمشكلاتهم وما يعانون، تفرق بين شكوى التبرير للخيانة والشكوى الحقيقية، لا تشارك إلَّا إذا تطلع الرجل إليها، ينتظر رأيها.

أحسَّ بتحرك الدمع في عينيه لمَّا قالت: إذا أردت، فاترك لي هدومك أغسلها.

وحين لمحته يتأكد من شيء بين إصبعيه، ثم يدسُّه ثانيةً في جوربه، تساءلت: ما هذا؟

– قطعة أفيون.

ضربت صدرها براحتها: تتعاطى الهباب؟!

قال في تصعُّب: أستعين به على السهر.

أسندت ذقنها على إبهامها وسبابتها: ألسنا أولى بثمنه؟!

اعتادت رؤيته في الفرن، السيالة والفانلة الممزقة والوجه المتسخ والقدمين الحافيتين، ابتسمت لهيئته الجديدة؛ البنطلون، والقميص الصوف، والوجه الخالي من الأوساخ.

بدا طيبًا، وإن أصرَّ — بالكناية والتورية — على تأكيد فحولته، بما لا يتفق مع جسمه الضامر كأن نار الفرن لم تُبقِ له إلَّا العظم، كانت تخلي له ساقيها، فلا تلحظ الفارق بينه وبين المتردِّدين عليها في البيت المهجور، أو يستقبلونها في بيوتهم، ربما شرد ذهنها إلى جزر بعيدة، تفطن إلى انتهائه حين ينهض من فوقها، لا فوارق إلَّا عندما تفاجأ بغير المألوف، تحاول المسايرة أو الاعتذار، إذا أصرَّ علا صوتُها وهدَّدت بالفضيحة.

كان قد أهمل شعر رأسه فتلبَّد، ما عدا الخصلة المتهدلة على جبهته، وأحاط بوجهه النحيل، يناقض اتساع عينيه، وتضخُّم أنفه، والسنَّتين العلويتين الأماميتين، تضغطان — إن أغلق فمه — على شفته السفلى. لنحافته البالغة، فإن تفاحة آدم تتحرك في رقبته إذا تكلم أو ابتلع شيئًا.

فاجأته بالسؤال: من أين أنت؟

أطلق من أنفه ضحكة قصيرة: من هنا.

– أقصد ... بلدك؟

– كفر الدوار.

– أنا من سحالي ...

أدركت أن الكلام في هذا الأمر ربما يجرُّها إلى ما تحرص على كتمه. حياتها مع أبويها في القرية القريبة من دمنهور تبدو في ذهنها كالأطياف، وعت على الخدمة في بيت المستشار صلاح توفيق، على ناصية شارع الصاغة بدمنهور، لَمَّا اتهمها بسرقة النقود من محفظته، تأكدت أن أباها — لَمَّا استدعاه الرجل — سيدافع عن براءتها ... لكنه أغلق عليها باب المطبخ، وتلاحقت ضرباته، احمرَّت عيناه، وارتعش شاربه، وتقلصت ملامحه، فلم يعُد ذلك الرجل الذي يجلس إليها أول كل شهر، يسألها عن أحوالها، ويُطمئنها على أمِّها وإخوتها، ويدسُّ في يدها خمسة قروش من راتبه الشهري، ويعود، شغله انتزاع اعترافها بمكان المحفظة، دون أن يسألها إن كانت قد سرقتها بالفعل، أو يصغي إلى صراخها وتوسلاتها، ظلت في مكانها، تكتم الألم، وتنصت إلى إلحاح أبيها بألَّا يبلغ سيدها البوليس، وأنه لن يتركها حتى تعيد المحفظة، فتحت باب المطبخ، وجرت بآخر ما عندها.

لاحظ محمود عباس الخوالقة حيرتها في محطة دمنهور، سألها، فأجابته، رافقته — يائسة — إلى الإسكندرية، تنقَّل — لثلاثة أيام — بين أصدقائه، ثم تركها، التقطت طرف الخيط، فعادت إلى الشقق بمفردها.

فاجأها بالسؤال: لماذا سُمِّيت أنسية؟

قالت بعفوية اعتادها: قالت لي أمي إن أبي اختار اسمي على اسم سيدة تركية، لها أرض في قريتنا.

قال متضاحكًا: أنتِ إذَن أنسية التركية.

مصمصت شفتيها: ليت لي جمال التركيات!

لمحته — وهما عائدان — يدسُّ النقود في الحقيبة القماش، أجهشت — فجأةً — باكية: تعدمني!

بعد أن اطمأن المعلم كشك إلى إغلاق أبواب القهوة، لحقه صوت سيد الفرَّان من الطريق.

أدار المعلم ظهره إلى الداخل.

قال مؤمن الدشناوي، وهو يسحب الغطاء على صدره: وحدي جئت قبل الموعد.

تخلَّلت صوت المعلم ارتعاشة غضبٍ واضحة: عرفوا السهر منذ يوم الإضراب.

أضاف وهو يتأكد من التصاق الطاولتين: منذ الآن ... لن أسمح بأيِّ تأخير!

فلنعبر النهر أولًا

من حزب الشاذلي: الله، إنك تعلم أني بالجهالة معروف، وأنت بالعلم موصوف، وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك، اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فهنيئًا لمن عرفك فرضي بقضائك، والويل لمن لا يعرفك، بل الويل، ثم الويل، لمن أقر بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك، يا شديد البطش، يا جبار يا قهار يا حكيم، نعوذ بك من شرِّ ما خلقت، ونعوذ بك من ظُلمة ما أبدعت، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدَّرت ورأست، ونعوذ بك من شرِّ الحسَّاد على ما أنعمت، ونسألك عز الدنيا والآخرة، كما سألكه نبيُّك سيدنا محمد ﷺ: عز الدنيا بالإيمان والمعرفة، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة، إنك سميع قريب مجيب، واذكرنا إذا أغفلنا عنك بأحسن ما تذكرنا به إذا ذكرناك، وارحمنا إذا عصيناك بأتمِّ ما ترحمنا به إذا أطعناك، واغفر لنا ذنوبنا، ما تقدَّم وما تأخر، والطف بنا لطفًا يحجبنا عن غيرك، ولا يحجبنا عنك، إنك بكل شيء عليم.

عاد إلى البيت — للمرَّة الأولى — قبل أن ينتصف الليل.

جلس في الصالة يقرأ، الأولاد ناموا في حجرتهم، وحجرته مضاءة، رأى أمَّ الأولاد مشغولةً برتق الثياب، تركها وعاد إلى الصالة.

عمل — بتوصيةٍ من أمين عزب — شيالًا في الميناء، حمل أجولة قمح من البواخر إلى السيارات، تنقلها إلى شون الورديان، تقاضى — في عصر كل يوم — ثمانية عشر قرشًا، فاجأه الولد عبد العال صبيُّ الحاج قنديل بنظرته المتسائلة: هل تركت مهنتك؟

زفر في ضيق: معلمك أنساني مهنتي.

– أكلمه لك، فتعود إلى البلانس.
رفت على شفتيه ابتسامة مهزومة: لا أريد إلَّا أن يتركني في حالي.
تسلَّم مكافأة اليوم التالي مشفوعةً بالاستغناء عنه.
فاجأ الإمام، ونصف الدائرة حوله، في درس المغرب: اقض بيني وبين الحاج قنديل.
أخلى الإمام وجهه للدهشة: لماذا؟
– يرفض إعادتي إلى البلانس، ويحاربني في رزقي.
اتجه الإمام بنظرته الداهشة إلى الحاج قنديل.
ظل الحاج قنديل ساكنًا.
ارتفع صوت حمادة بك: هذا — يا مولانا — مجلس علم.
فتَّش الإمام عن الكلمات: هل يرضي جلساءه في نصف الدائرة، فيغضب الآخرين؟
أعفاه الراكشي من الحرج حين مضى ناحية الباب الرئيسي.

قال له الشيخ يوسف بدوي: الصوفيُّ الحقيقيُّ لا يكره ... والمحبة درجات أولاها رفض الكراهية!

ووضع يده — بودٍّ — على كتفه: إذا كنت مخلصًا في توجهك ... فابدأ.

التمعت عيناه بحيرة: كيف؟

قال الشيخ: صلِّ، وصُم، وأدِّ الفرائض أولًا.

استطرد موضحًا: توضأ ... وصلِّ ركعتين بنيَّة التوبة والإنابة، ثم اقرأ واستمع، حتى تجد في نفسك استعدادًا للتعلم.

وتسارعت حبَّات مسبحته: العلوم والمعارف ثمرات التصفية والتطهير ... فإذا تطهرت الأسرار، مُلئت بالعلوم والمعارف والأنوار.

اقتصرت دنياه — بعد العودة من الحلقة — على الجوامع والمساجد والزوايا والحصر والأبسطة والمنابر والأعمدة الرخامية والقباب والأضرحة والأهلَّة والمصاحف والكتب الدينية والسبح والبخور والخيام والسرادقات والحضرة وحلقات الذكر وترتيل القرآن والإنشاد وسماع المدائح النبوية والتسابيح والتواشيح والأهازيج الصوفية والدعوات والابتهالات والعزائم ودقات الدفوف وإيقاع الطبول وأنغام الربابة وأصوات المنشدين والصمت والانزواء والانفراد والتواجد والشطح والهزات العنيفة.

كان يصلي العشاء، ويخلو إلى القرآن والأوراد والأحزاب وكتب الصوفية، لا يقوم من مجلسه إلَّا عند طلوع الفجر، وكان يصلي الفجر بوضوء العشاء، وقرأ في مناقب الصالحين،

وكرامات الأولياء، وأخبار الفتوح والغزوات، وشمس المعارف الكبرى في السحر، وكتب الأوراد والوعظ والإرشاد، وسِيَر الهلالية والزناتية وعنترة والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن.

أدرك أن المقام صعب المرتقى، أزمع أن يختم كل أسبوع ختمة، قارئ القرآن في آخر درجة، فدرجات الجنة على عدد آيات القرآن، لزم طريق الاستقامة، وتستَّر ستر الإخلاص، وطهَّر نفسه بالعبادة، وطهَّر الروح بدوام الذكر، حرص على مبادئ النهايات؛ الصلاة والصوم، وبذل ما في اليد، وشوق النفس إلى الحج، ترك لله أمره، يتولاه، ويحفظه من العصيان، ودعا الله أن يعصمه من الحسد والغلِّ والحرص والطمع والشره.

صرف قلبه عن المخلوق إلى الخالق، خلَّف دنيا الناس وراءه، مضى مع المسارعين إلى ظلِّ الله، أهل المجاهدة والأوراد، ألقى همومه في مياه البحر، متلاحقة الأمواج إلى غير انتهاء، سرح في لانهائية الأفق، استغرقته لحظات من التبرِّي والتخلِّي عن كل الدعاوى والغايات، وعاد إلى بداية البداية، حفظ أسماء الخلوة: يا أله، يا حي، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا نهاية النهايات، يا نور الأنوار، يا روح الأرواح، حجبت أنوار التقوى ظُلمة الغفلة، وتوقَّد القلب بنار الذكر، وطار إلى الله اشتياقًا.

قال له الشيخ: الحزب بلا وقتٍ مخصَّصٍ لقراءته، أمَّا الأوراد فإنها تُقرأ في أوقات منتظمةٍ بالليل والنهار.

لازم الشيخ يوسف بدوي ملازمةَ المريد الصادق لشيخه العارف، يخفض عينيه في مواجهة نظرات الشيخ، تلتمع ببريق لم يجده في عينَي رجل آخر. إذا لم يتكلم، ضغطت أسنانه — بعفوية — على شفته السفلى، وذقنه مشذَّبة، أشبه بإطار رقيق مختلط السواد والبياض، وعباءته السوداء الشفافة مسدلة على جلبابٍ من البوبلين الخفيف، بما يناقض الجبَّة والكاكولا، زِيَّ المشايخ.

حفظ الأوراد؛ ورد الليل، وورد النهار، وورد السفر، وورد البحر، وورد الجو، وورد التهجُّد، وورد السحر، انتظم في قراءتها، بها العمل ولا حساب فيها، ويوم القيامة حساب ولا عمل.

قرأ في الوحي والرؤى والملائكة والشياطين والكرامات والمعجزات والمكاشفات والصفات واللوح والقلم، وحقائق الرسل والأنبياء والموت والقبر والغيبيات والخوارق والحشر والميزان والصراط والحساب والجنة والنار، وسِيَر الأولياء والقدِّيسين، وأسرار العوالم الأخرى، والأرواح الساكنة في الحيوان والطير والزواحف، والأحلام وتأويلها، والطبِّ الشعبي، وقراءة الطالع، وبركات العباد والزهَّاد والورعين والمريدين والعارفين.

قرأ في تقاليد الصوفية ومراسمها؛ الموالد السنوية، والأحزاب، والأوراد، وحلقات الذكر والسماع والإنشاد، والعهد بين الشيخ والمريد.

كان قد شاهد الأقلَّ من تلك المراسم، ولم يتعرف إلى غالبيتها.

قرأ لابن عربي، والجيلاني، والنابلسي، والشعراني، والحلاج، والبسطامي، والأشعري، والشاذلي، وأبو العباس، وقرأ الوجيز لابن عطية، والمصابيح للبغوي، وإحياء علوم الدين للغزالي، وختم الأولياء للترمذي، وقوت القلوب للمالكي، والرسالة البيانية للقشيري، واللمع للطوسي، وبُردة البوصيري، وديوان ابن الفارض، وقرأ في الزُّهد والتقشُّف ومخافة الله ومجاهدة النفس، زاد، فقرأ في الحبِّ الإلهيِّ والطاعة المجرَّدة عن الرغبة والرهبة، ثم قرأ في الفَناء والجذب والمحو والغيبة والكتاب والبقاء والحلول والتجلِّي، وقرأ عن الصالحين والمحبِّين والمطيعين والمشتاقين والمقرَّبين، وحصل على سِيَر وشروح وتفاسير ومعارضات.

حفظ الذكر؛ الفناء والبقاء، الموت والحياة، التخلص من آثار الرغبة والأنانية، تثبت الروح في طهرها وبراءتها.

قرأ في المقامات والأحوال والشوق والصبر والخوف والرجاء والقرب والبعد والزهد والأنس والبسط والقبض والمراقبة والهيبة والمشاهدة وسائر الأحوال، والوقت والوجود والجمع والتفرقة والصحو والذوق والمحو والإثبات والتجلِّي والمحاضرة.

عرف مقامات الإيمان بالله وملائكته ورسله، وباليوم الآخر والغيب وقضاء الله وقدره؛ التوبة، والشكر، والصبر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والتوحيد، والزُّهد، والفقر، ومحبة الله، والأذواق الباطنية، والأنس بالله، والرضاء بأحكامه، والشوق إلى يوم اللقاء.

تعرَّف إلى معانٍ لم يكُن يعرفها، تصوَّر أنه لا يصحُّ أن يعرفها مسلم؛ الحب، الخمر، الشرب، السكر، المدام، الكأس، الصد، الهوى، الجفا، الوجد، العتاب، الصبابة، العشق، التولُّه، الوصال، الهيام، الندامى.

زاد على ما قدَّمه الشيخ إليه، تردَّد على مكتبة أبو العباس، وعلى المكتبة الحجازية أول شارع الميدان، ومكتبة حمامة النن بالموازيني، وباعة الكتب على رصيف شركة ليبون بالمنشية الصغرى، يستعير الكتاب لليوم التالي، يظلُّ ساهرًا، يقرأ ويقرأ ويقرأ، لا يخلو إلى فِراشه إلَّا إذا قهره النوم.

انصرف إلى رياضات العزلة والخلوة والصمت، في صحن أبو العباس، في ركنٍ يطلُّ على الدحديرة الخلفية، يبعد عن زائري الجامع، وحتى عن المنشغلين بأداء ركعات السُّنة، لا يغادر مجلسه إلَّا لأداء الصلاة في مواقيتها، أو للتردُّد على مساجد الحيِّ الأخرى، أو

لبيع شروةٍ يحصل عليه من حمودة هلول، أو للذهاب إلى البيت بعد إغلاق أبواب الجامع، يفتح النافذة المطلَّة على زاوية الزواوي، ويضيء لمبة الصالة، يكتفي بالضوء المنبعث منها، يتربع فوق مخدَّة صغيرة، يخلو إلى بحرٍ يغيب أفقه.

لجأ بالسؤال إلى علماء الشرع والفقهاء وأهل الحديث والتفسير، مجالس الأئمة في ياقوت العرش والبوصيري وعلي تمراز، واستأذن في الجلوس إلى قاضي المحكمة الشرعية بشارع فرنسا، وأنصت إلى اجتهادات مشايخ الطُّرق في موالد أولياء الحي، لم يفرِّق بين جامع وآخر، ولا بين جامع ومسجد وزاوية، ولا بين إمامٍ ذائع الاسم، أو آخر مجهول، يستزيد من العلم دون انشغالٍ بالمصدر، يسقط ذقنه على صدره، ويغمض عينيه، وينصت، يترك الأسئلة للمحيطين، لا يسأل إلَّا إذا أوشكت الجلسة على الانفضاض، يغالب حياءه برفع إصبعه، يأذن له الإمام، فيسأل، لا يطيل، ولا يعلو صوته، يهمس بالسؤال في كلماتٍ قليلة، ثم يعطي انتباهه لإجابة الشيخ.

لاحظ أمين عزب — في انحناءة الطريق إلى الميناء الشرقية — ثيابه المتسخة، وإهمال شعر رأسه، علت الدهشة بصوته: مَن أرى … علي الراكشي أم الشيخ حماد؟

اعتاد الناس رؤية الشيخ حماد داخل المساجد، وأمامها، وفي حلقات الذكر، وفي الشوارع، وعلى أبواب الدكاكين. جسمه الضخم، وشعره المهوش ينسدل على كتفيه، ويتداخل مع شعر ذقنه، وفمه المنفرج عن شفتين متدلِّيتين، وأنفه الذي أجهده زكامٌ دائم، وخطواته المهرولة تتوقف، فيظل في مكانه، يرنو إلى الناس والأشياء، كالمتأمل، ثم يطلق الصيحة بآخر ما عنده: حي!

كان معظم الوقت غائب الحسِّ، عرفه الناس من أهل الجذب والصحو والكرامات، وإن لم يكُن أحدٌ يعرف عن حياته شيئًا؛ من أين أتى؟ أين يقيم؟ أين يختفي عندما تطول غيبته؟ وبمَن يلتقي؟ ومن أين ينفق — وهو يرفض مساعدات الناس — على نفسه؟ ولم يكُن يتقاضى مقابلًا حين يسبق في الطريق أمَّ طفلٍ تائه، يكتفي بالقول: يا عدوي … ويسأل الناس المرأة عن طفلها التائه، وإن روى دياب أبو الفضل أنه رآه يختلي ببائعة فجل في ضريح سيدي كظمان، تبيَّنهما دياب في غبشة الفجر، سبقت صيحة الرجل بانجذابه صيحة دياب بإعلان الفضيحة، تكاثفت الهمسات والتساؤلات والتخمينات، وإن لم تلتقِ على تصور محدَّد، عرف الناس أن له حالاتٍ وكرامات، منجذب إلى قوى يراها ولا يرونها، فلا أحد يسأله عن تصرفاته وأقواله، يحدِّث نفسه، ويعلو صوته بما يصعب تبيُّنه، ويلوح بيده، ويبتسم — ويكشِّر — لَمن لا يرونه، واشتهر بالكلام على الخاطر،

والإخبار بالمغيبات الماضية والحاضرة المستقبلة، ربما تكلَّم بكلام من الحكمة، وقد يفاجأ جالسًا أو مارًّا بشتمة أو بصقة أو ضربة عصا، قيل إنه يتجه بها إلى مَن أغضب بعصيانه الله، وكان يعروه في بعض الأوقات ذهول، فينصرف عن الناس، لا يستمع إليهم، ولا يحادثهم، يمضي في طريقه، أو يقف حيث هو، وتتجه نظراته إلى ما لا يراه أحد، لم يكُن — مع جذبته — يترك من الصلاة فرضًا، يؤدِّيها في المسجد القريب، لا يتردَّد على مسجدٍ بالذات، وربما خلع نعلَيه على رصيف، وكبَّر بالصلاة، وإذا تناهت إليه أصوات ذِكرٍ أو تواشيح أو ابتهالات، دارت رقبته — بتلقائية — في تناسقٍ مع النغم.

دبَّر علي الراكشي الكلمات في ذهنه، لاكها في فمه، غمغمت شفتاه بما لم يتبينه أمين عزب، فهز رأسه — متحيرًا — وواصل السَّير إلى قلب السيالة.

أحسَّ أن مناهل استزادته تتسع، فاشتطَّت به الأشواق، واقتصرت صداقاته على العارفين والزاهدين والعابدين والمشايخ والمنشدين وسمَّار الليالي وأهل الطريق، وأكثر من الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي.

فاجأه الشيخ وهما ينزلان الدرجات الرخامية البيضاء: أنت لن تصل إلى ما تريد … لأن ما تريده بلا غاية.

وخالط صوته حسم: مهما بلغت من منزلة، فستظلُّ فوقك منازل ودرجات.

وتوقف عن السَّير، وقال للتساؤل في ملامحه: ما لم تنضم إلى إحدى الطرق، فستظلُّ من أهل الظاهر والرسوم!

أضاف لحيائه المطرق: الحرص على العلم والتعلُّم، هو البداية في الطريق.

ولجأ إلى تعبيرات يدَيه موضحًا: لا بدَّ في البداية، أن يتأدب المريد على شيخٍ يثق في علمه.

زاد إصراره على أن يكون من الشاذلية، لَمَّا قرأ أنهم يختصون بثلاثة أشياء، لم تكُن لأحد قبلهم ولا بعدهم؛ الأول أنهم مختارون من اللوح المحفوظ، الثاني أن المجذوب منهم يعود إلى الصحو، الثالث أن القطب منهم دائمًا أبدًا إلى يوم القيامة.

خلا إلى حياة قطب العارفين، كان يعرف الاسم والصفات المطلقة، تغيب السيرة التي ولدت الطريقة والتلاميذ والمريدين والأتباع، انفتحت أمامه دنيا واسعةٌ تفيض بلطائف الحكمة، وحقائق المحبة، وأنوار العلم.

همس لنفسه وهو يميل من شارع الحجاري في طريقه إلى البيت: هل يصبح — ذات يوم — من الأقطاب؟ يؤدِّي ورده بمفرده، يتخطَّى اجتهادات أهل النجدة، وأهل

الغيب، يبدِّل خلقًا بعد خلق، ويصفى تصفية بعد تصفية؟ يعلم ما لا يعلمه إلَّا الصفوة المختارون؟ تشرق عليه أنوار الأرواح السماوية العرشية؟ يعرف حقائق الأسرار، وكيفية الصعود والنزول والاستواء، وسرَّ الاستمداد والتدبير والتسخير، يظهره الله إلى الوجود، يصرفه إلى الكون، يُنطقه بالمغيبات، يخرق له العوائد، يقلب له الأعيان، يظهر على يديه العجائب والمكاشفات، يمشي على الماء والهواء، يطوي الأرض، يركب السماء، يكلِّم الملائكة والأرواح المهيمنة في جلال الله تعالى، والجماد والحيوان الذي لا ينطق؟

هوَّن الأمر بأن الأقطاب كانوا مريدين صغارًا، ثم تدرَّجوا، فهل يُتاح له التدرُّج والترقِّي، فيصبح من الأبدال، والنجباء، والنقباء، والأبرار، والأوتاد، ثم يصبح قطبًا له فضائله ومكاشفاته؟

في قهوة مخيمخ

قال الجدُّ السخاوي بنفس مكروش: أنا قادم من القضاء.

همس قاسم الغرياني لحمودة هلول: يقصد مساكن السواحل ... اسمها أيام عرابي!

اختار الجدُّ السخاوي كرسيًّا بجانب طاولة، تفصل بينه وبين حمودة هلول، الجدران مغطَّاة بالخشب المكفت، تزينه قِطَع مرايا هائلة، والكراسي خشبية؛ قاعداتها ومساندها العلوية جدائل مصنوعة من الخوص، وثمة — على الجدران — صورة لخالد بن الوليد يطعن بسيفه، من فوق جواده، مسيلمة الكذاب، الملقى تحت قدميه.

كانت مساحة الظلِّ قد اتسعت، فملأت ميدان المساجد، يشغي بالناس، والباب الجانبي لأبو العباس فُتح لصلاة المغرب، والمتصوفة يسندون أجسامهم وأعلامهم على جدران الجامع، استعدادًا لحلقات الذِّكر.

لمح الجدُّ السخاوي شهابًا ساقطًا في نهاية الأفق، عند نهاية السلسلة.

قال بتلقائية: سهم الله في عدو الدين!

كان يرتدي جلابية من الزفير، وعلى رأسه طاقية بيضاء، ودسَّ قدميه في قبقاب خشبي، يُصدر — إذا سار — صوتًا ذا إيقاع.

ضحك حمودة هلول لملاحظةٍ أبداها قاسم الغرياني، وأكدها باقي الرجال؛ الذباب لا يقترب من الجدِّ السخاوي، لا يقف حتى على ثيابه، كأنه يعرف مكانته بين الصيادين.

قال الجدُّ السخاوي: المظاهرات بطول الكورنيش ترفض قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين ... مزق المتظاهرون علم أمريكا، وداسوه بالأقدام.

قال قاسم الغرياني: معلوماتي في السياسة مثل معلومات حمودة هلول في الهنك.

وطوَّح بقطعة حبلٍ في الهواء: مع ذلك فإني أسأل: لماذا لا نقبل ... ثم نساوم؟

ثنى إليه الجدُّ السخاوي ملامح متسائلة: نساوم على أرضنا؟

قال الغرياني: أفضل من البكاء — فيما بعد — على ما خسرناه.

قال حمودة هلول: مع أن الغرياني اسكومندو الجدِّ السخاوي فإنهما لا يتفقان إلَّا في حبِّ البحر!

قال عبد الوهاب أفندي مرزوق، الموظف بمكتب صحة الجمرك، بنبرة عليمة: هذا قرار تقف وراءه الدول الكبرى.

رغم تقدُّم عمره، فقد ظلَّ شعره أسود كثيفًا، دهنه بالفازلين، ومشَّطه إلى الخلف، يقصُّ ذقنه، لا يطلقها، ولا يحلقها بالموسى، وكانت جبهته تبرق دائمًا — حتى في الشتاء — بقطرات عَرَق، وكان يرتدي بدلةً من الكتَّان البنِّي، وحذاءً أبيض على بنِّي.

قال محمود عباس الخوالقة لمحيي قبطان: هل قررت إطلاق لحيتك؟

قال محيي قبطان: زوجتي نفسة ... لا أستطيع أن أدخل عليها وأنا حالقٌ ذقني أو رأسي ... ربما تنشهر أو يتكبَّس لبنها.

كان محمود عباس الخوالقة قد وصل إلى الثالثة الابتدائية، ثم عمل مع أبيه في البلانسات، وفي الحلقة. الحاج قنديل شدَّد على أبنائه، فلا يتردَّدون على الحلقة أو القهاوي، تخرَّجوا في الكليات، والتحقوا بوظائف في الحكومة، وتزوجت الابنة الوحيدة، لا يعرفون حتى الصيادين الذين يعملون على بلانسات الحاج قنديل، ولا السمَّاكين الذين يتعاملون معه. لم يكُن يشغل المعلم عباس الخوالقة، رؤية محمود ومصطفى في القهوة، ولم يكُن يضع على مائدته أسماكًا يسهل صيدها، طُعْمها البسارية والجمبري الميت وقِطَع الخبز المبلول. ثعابين البحر والكابوريا أطباقٌ دائمة، ولحم الترسة طبقٌ رئيسيٌّ في غداء كل جمعة وأحد، ربما أوصى بشراء لحم قرش من البحر الأحمر. الأسماك المفترسة والمؤذية تؤثِّر في قلب مَن يأكلها، يواجه الخوف والمجهول، لا يميل في أول انحناءة، عاونه محمود ومصطفى في الحلقة، لم يركبا البحر لصيد، وإن أجادا السباحة والدخول بالفلوكة في عزِّ النوَّة. عُرف عنه أنه لا يختار جلساءه، يرحِّب بالحاج قنديل والحاج محمد صبرة وحمادة بك وعبد الرحمن الصاوي، ويدعو خميس شعبان ومحيي قبطان وقاسم الغرياني وبقية الصيادين والسمَّاكين في الحلقة. البلانس للصيد، والحلقة للبيع، والقهوة لقضاء الوقت والمودَّة والمؤانسة، وإذا جلس في القهوة فإنه — وحده — يدفع حساب كل الجالسين معه، حتى حمادة بك كان يضغط على يده إن امتدَّت إلى جيبه.

وقف الجالسون لجنازةٍ في طريقها من الحجاري إلى مقابر العامود، همس الغرياني لصوات امرأة: صواتها جميل ... ليتها تصوِّت في بيتنا!

قال الجد السخاوي: مَن كان يعلم أن الكورنيش سيحيط بالإسكندرية؟

قال عبد الوهاب مرزوق: خُلقت الإسكندرية بالكورنيش خلقًا جديدًا.

قال حمودة هلول: لو أني كنت أعلم بالكورنيش، ربما كنت أبيع كل ما عندي لأشتري أرضًا على البحر.

قال محمود عباس الخوالقة: أبي سمكة ماؤها السيالة.

لما عرض على أبيه شراء بيت في طريق الكورنيش، رفض، عرض هدم البيت، وإقامة بيتٍ جديد، رفض عباس الخوالقة، هاجسه أن هدَّ البيت سيؤدِّي إلى انهيار البيوت القديمة المجاورة المتلاصقة.

قال قاسم الغرياني: هل أصبح الستر عملةً جديدة؟

قال عبد الوهاب مرزوق: انتهت الحرب، واستقرت الأمور ... مع ذلك فما تزال غالبية بيوت الشاطئ ترفع لافتة شُقق للإيجار.

قال حمودة هلول: لماذا لا يحاول المقتدرون — مثل حمادة بك — أن يفيدوا من هذه الفرصة؟

قال صابر الشبلنجي لحسان عبد الدايم: لماذا لا تستأجر شقَّةً على الشاطئ ... بدلًا من جُحر حارة قراقيش؟!

قال حسان وهو يدفع بيديه خطرًا مجهولًا: وأين أذهب من الجدِّ السخاوي؟

كان الجدُّ السخاوي دائم التحدُّث — والسخط — عن بدعة انتقال أبناء الأنفوشي ورأس التين إلى منطقة الرمل، والعمارات الجديدة في طريق الكورنيش، أصاب الناس خبلٌ بعد إنشائه في ١٩٣٤م، نسوا أصولهم، ومهنتهم، وأولياء الله الذين يتبركون بجيرتهم، وانطلقوا إلى المناطق والعمارات الجديدة، لم يعودوا يعرفون من الإسكندرية سوى الرمل وطالع.

قال الغرياني: حسان يدفع ثمن تكاسله عن الحصول على شقَّة أيام الحرب.

وأردف في نبرة متصعبة: كانت الشُّقق الخالية على قفا من يشيل.

قدَّم الجرسون هارون شايًا لخميس شعبان، فرفضه، قال: هات كوب كزبرة مغلية.

قال هارون: قد لا أجد كزبرة ... تأخذ كمونًا؟

قال خميس شعبان: لا ... أحسُّ بانتفاخ في البطن ... الكزبرة أفيد.

قال صابر الشبلنجي: مسكين سيد الفران ... تزوره الكوابيس كل ليلة ... نصحه الشيخ جابر برغوت بتعليق جورب بشكلٍ تقاطعيٍّ ناحية قدميه من السرير، بعد أن يشبكه بدبوس.

استطرد متحسرًا: المشكلة أن سيد لم يرتدِ جوربًا في حياته ... ولا ينام — مثل العبد لله — على سرير!

ألقى محمود عباس الخوالقة ببقايا السيجارة في الطريق وهو يقول: دستور!

قال للدهشة في وجه حسان عبد الدايم: ربما أصابت واحدًا من إخواننا ... عليَّ أن أعتذر له.

انتفضوا لصيحة مفاجئة من خليل أفندي زيتون، ثنى إليه قاسم الغرياني ملامح مبتسمة: لا تحزن يا خليل أفندي ... عثرت لك على عروسٍ مناسبة.

كان خليل زيتون من أُسرة موظفين، يغلُب على أفرادها الانطواء، تزاوج تردُّده على البلقطرية ومساجد الحي، اكتفى من تدخين الحشيش — في البداية — بالقطعة، لا يجاوز الدخان الفم إلى الحلق، ثم يطرده، ويمضغ ليمونةً كاملة. إذا طالت الجلسة، لا يتأثر، ولا يغيب ذهنه، ثم جاوز تدخين الحشيش إلى مضغه، وقال لجُلسائه في لحظة صفاء: لو أن جسمي عُصِر، فسينتهي إلى قطعة حشيش! وقال: الحشيش هو أفضل وسيلة لتحقيق المساواة بين البشر! وفاجأ رواد قهوة مخيمخ، لمَّا أقبل عليهم — ذات مساء — يرتدي طربوشًا بغير زرٍّ، قال للنظرات المستغربة: لم أجد لزرِّ الطربوش فائدة! اعتاد الناس رؤيته — فيما بعد — في شوارع بحري، اعتادوا صيحاته ونداءاته واستغاثاته، وجلوسه — منفردًا — على القهوة، يتحدث مع نفسه، يهمس صوته ويعلو ويغضب ويتشاجر ويزعق، لا ينشغل به الرجال، ويمنعون الأولاد من أذيَّته، فهو بركة.

قال عبد الوهاب مرزوق: المجانين وحدهم هُم الذين كانوا يشترون بيوتًا تطلُّ على البحر، كان الشاطئ — قبل إنشاء الكورنيش — مجرَّد رمال وصخور ومياه لا يردُّها سور.

قال الجدُّ السخاوي: عندما بنى صدقي الكورنيش، لم يكُن في الإسكندرية سوى الأنفوشي والشاطبي ... ثم تضاعفت الشواطئ إلى المنتزه.

وعلا صوتُه بلهجةٍ متباهية: هذا الشاطئ هو أصل الإسكندرية!

قال مختار زعبلة: أريد أن أركب البحر.

قال قاسم الغرياني: اركب امرأة أحسن!

أغمض عينيه، وأردف: قبل أن أموت ... سأوصي أن أُدفن فوق امرأة!

قال محمود عباس الخوالقة: كنت ظُهر اليوم في سوق الدقَّاقين.

قال حسان عبد الدايم: خيرًا!

قال محمود: بحثت عن وصفةٍ لعلاج الكحة التي طالت مع أبي.

قال الجدُّ السخاوي لخميس شعبان: إذا أكثرت من أكل الخضراوات، فلن تكون بحاجةٍ إلى طبيب.

قال محيي قبطان: خميس في حاجة إلى دواء ينقذه من الخوف!

عرف عنه الرجال تلفُّته لأقلِّ صوت، كأنه يتوقع قادمًا أو يخشى المجهول؛ كلاكس سيارة، سقوط مجداف، ارتطام باب، وقع أقدام، نداء، تعالي أذان من مسجدٍ قريب. ينتفض كالمنتبه، أو ينصت باهتمام، ربما مال — بعفويةٍ — كأنه يفرُّ من المكان، ابتدره علي الراكشي — يومًا — بالسؤال: هل تتوقع أحدًا؟ غالب انفعاله: لا أحد!

لحظت المرأة النظرات الموجهَّة إليها، وإن تظاهرت بأنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق.

هتف قاسم الغرياني وهو يصفِّق بيديه: أحبُّ السمك الرعاش!

وأسند ظهره إلى الكرسي: إنها امرأة مثل الترسة ... يكفي أن تقلبها على ظهرها، فيسهل صيدها!

قال الجدُّ السخاوي: لولا بركات أولياء الله، لاحترق هذا الحيُّ من فساده!

– لماذا لا تتزوج؟

عرف الغرياني من نظرة حمودة هلول المتسائلة، أنه يقصده بالكلام، قال: ولماذا أقيِّد نفسي ببيت وزوجة وأولاد؟ لماذا أحمِّل نفسي مسئوليةً لا أقوى عليها؟

كان في حوالي الثامنة والعشرين، طويل القامة، أميز ما في وجهه عينان لوزيتان واسعتان، شديدتا الالتماع، وحاجبان كثيفان، تدلَّى شعره على عنقه وقفاه، وشفته السفلى ممتلئة، وله شارب نحيل يميل إلى الصُّفرة، يرتدي سروالًا طويلًا واسعًا، فوقه صديري، وفي قدميه حذاء من الكاوتش، لم يتزوج، وإن عُرف عنه ميله إلى النساء، يعرِّي المرأة الواقفة — أو المارَّة — أمامه من ثيابها، يتخيل التفصيلات الدقيقة، يحكي على القهوة تخيلاته، كأنه رآها بعينيه، لا يشغله إن كانت المرأة زوجًا أو أختًا لأحد أصدقائه، جعلت النساء للمتعة في كل أشكالها.

رماه دياب أبو الفضل بنظرة ضيق: لو أنك على الأورمة ... لاكتفيت بقطع رأسك!

قبل طلوع الفجر يغادر حمَّام الأنفوشي، يقف أمام «أورمة» في الحلقة، ينظف شروات السمك الصغيرة إلى ما قبل الظُّهر، يتوالى فتحه لبطن السمكة، يُخرج أحشاءها، يغسلها بالماء المالح، ينظف القشور من الجسم، يقذف بها في الطبق النحاس المجاور،

تنتهي الشروة، أقة أو أقتين، يقذف بها في القرطاس، ويضع على الأورمة شروةً أخرى، يغادر الحلقة، يوزِّع وقته بين قهوة الزردوني وقهوة مخيمخ ومشاهدة مباريات الكرة في الساحة الترابية الملاصقة للحلقة، حتى الغداء يتناوله في مطعم النُّبلاء، ربما تسكَّع في الشوارع والحواري بلا هدف، يلقي السلام على مَن يعرفه، أو يأخذ منه ويعطي، يشارك في الموالد وحلقات الذكر، وإن اكتفى بأداء صلاة الجمعة في سيدي نصر الدين.

قال محيي قبطان: الغرياني مثل فأر المركب ... عامت يقرقش ... غرقت ينط على البر.

قال الغرياني: أنا لا أريد لأحدٍ أن يشاركني حياتي.

قال حمودة هلول: لكنك تريد مَن يخدمك.

قال الغرياني: هل أعجز عن تدبير اللقمة وغسل الهدمتين؟

وأشاح بيده، فبدا إصبعه الخنصر مختفيًا، قضمته ترسة بكفيها: لا تنسَ أن معظم حياتي في البحر!

قال عبد الوهاب مرزوق: ما أجمل أن تعود لتجد امرأةً في انتظارك.

شوح الغرياني بيده: لا يُهمُّ أن تكون هذه المرأة زوجتي!

حين عرض دياب أبو الفضل على قاسم الغرياني أن يقاسمه شقَّته ذات الحُجرتين والصالة، اعتذر بأنه أَلِف الحياة بمفرده، لا يستطيع أن يحيا مع شخص آخر — ولو كان صديقًا غاليًا — تحت سقفٍ واحد، وكان يتجه — أحيانًا — إلى طريق الكورنيش، يتمنى رؤية امرأةٍ وحيدة تشاركه المغامرة.

مع أن المعلمة أنصاف كانت قد جاوزت الشباب، ولم تكُن تعنى — في تردُّدها على بحري — بمظهرها، فإن ملامح وجهها كانت تشي بجمالٍ قديم، تدقُّ الأرض بكعبَيها، فيتعالى رنين الجلاجل والخلاخيل. قيل إنها لا تتردَّد على بيتها بالأنفوشي — قبالة الحلقة — منذ استقرَّت في كوم بكير، إلَّا لضرورة. حتى آخر أزواجها عبد العال حلوفة، غاب عن بحري، واقتصر على المدافعة عن نساء المعلمة.

قال حسان عبد الدايم: بالمناسبة ... المعلم التميمي صاحب إسطبل السيالة ... شاهدته أمسِ في بار بكوم بكير.

قال الجدُّ السخاوي: وأنت ... هل كنت تصلي هناك؟!

قال حسان: كنت في طريقي إلى كوم الناضورة.

واستطرد مؤكدًا بتعبيرات يديه: الحمد لله ... لا شأن لي بكوم بكير ... وشربت الخمر في غلطة وتُبت.

جرَّه الغرياني لشرب الخمر في بار البوستة، أحزنه أنه لن يستطيع الصلاة أربعين يومًا، هكذا قال له أمين عزب حين صارحه بما فعله، روى أمين عزب حديثًا عن الرسول يؤكد المعنى، أثر الخمر يظلُّ في جوف المرء وعروقه وأعضائه أربعين يومًا كاملة.

سرحت أخيلة الرجال في الحيِّ القريب؛ قوادين، وبرمجية، ونساء صبغن الوجوه بالبودرة الملونة والأقلام وأحمر الشفاه، وأسدلن الشعور، وارتدين قمصان النوم الشفافة، والصنادل ذات الكعوب العالية، تطلُّ منها أصابع مطلية الأظافر.

قال قاسم الغرياني: جعل التميمي من الملكة نازلي مَثَله الأعلى ... فهو يحرص على التلذُّذ بالحياة إلى آخر قطرة.

قال مختار زعبلة لعبد الوهاب مرزوق: معي كابوريا.

قال عبد الوهاب مرزوق: لا أحبُّها.

قال مختار: إنها كابوريا حمراء، وليست زرقاء ... طعمها أشهى.

علا صوت الجدِّ السخاوي: وهل للزرقاء طعم؟ فائدتها الوحيدة أنها تأكل الأسماك، وتقضي على كل ما تصادفه!

قال حمودة هلول: في السنة الماضية لدغتني واحدة ... ومع محاولات الحاج محمد صبرة، فلم أنَم ثلاثة أيام بطولها.

فاجأ الجدُّ السخاوي مختار زعبلة: هل أنت صياد بالفعل؟

دارى مختار ابتسامة مشفقة: ماذا ترى؟

قال الجدُّ السخاوي: ولا كل من ركب الحصان ...

ثم وهو يُدني الكابوريا من عينيه: إنها تسمُّ البدن إذا دخلته.

وقذف بها إلى أرض الطريق: اكتفِ بالإسفنج ... فهو القطن الطويل التيلة عند الصياد.

تنهد مختار زعبلة: وماذا أعمل لظَهري الذي أقعدني؟

حدَّق حمودة هلول في القادم: الحاج قنديل يطلبنا في رحلة جديدة.

أولى مراتب السالكين

يا رب صلِّ على الحبيب محمدٍ خير الوجود المصطفى نور الهدى

اللـه اللـه نـكبِّره اللـه اللـه ونـذكره
اللـه اللـه يـجمِّعنـا والنور تبِينُ مشاعرُه
النور تبِينُ بشائرُه والقلب طوته نظائرُه

بدأت بسم الله أدعوه ربيا
إلى كشف أسرار الموالي الخوافيا
وصلَّيتُ دومًا على الحبيبِ محمدٍ
صلاةَ الحبِّ للحبيب الهاديا
سألتك يا أله يا مَن بك اهتدى
قلبي وروحي وفؤادي وعقليا
أَلِّف قلوب العالمين لقلبيا
وأَمِدَّني يا ذا الجلالِ بنفحةٍ
تجعل القلبَ والفؤادَ صافيا

قال الشيخ يوسف بدوي: لا تركب البحر على الشاطئ!

ثم وهو ينظر إلى ما لم يتبيَّنه علي الراكشي: الذِّكر — كما قال أولياؤنا — أكبر من الجنة، الذِّكر نصيب الله، والجنة نصيب العبد.

وقال الشيخ: إن الجنة تُبنى بالذِّكر، فإذا حُبس الذكر، كفَّ البناء.

يبدأ مجلس الذِّكر بالمستفتح، تنتظم على توجيهات الشيخ حركةَ الذاكرين بالإنشاد، والإخلاص فيما هم مقدِمون عليه. يستغرق في الذِّكر، فيخرج النور من فمه، يندا ح في المكان، تشرق به وجوه المريدين.

اشترى للطريقة — على نفقته — دفًّا، تضبط بإيقاعاته حركات السير في مواكبها، حدَّد لهم طريقة الاهتزاز أثناء الذِّكر، والجهة التي ينبغي أن يميلوا فيها، عند نطق كل كلمة، يمدُّ الكلمات، يمطُّها، ينغِّمها.

قال الشيخ: التوبة أولى مراتب السالكين لطريق الصوفية.

وصمت حتى استردَّ أنفاسه: التوبة هي أول ما يجب أن نفعله في الطريق الصوفي، إنها — كما يقول إمامنا الغزالي — مبدأ طريق السالكين، وأول أقدام المريدين.

قال علي الراكشي: فأنا إذَن بدأت السير في الطريق.

قال الشيخ: لا أستطيع أن أَهَبَ إشارة الاستمرار إلَّا لَمن يستحقُّها، واصل تعلُّمك أولًا.

لمحه يتثاءب وهو قائمٌ يصلِّي، طلب منه أن يستعيذ من الشيطان، نفخ في أنفه حتى يتثاءب وهو في الصلاة، كان يجب أن يتحرَّز فيضع يده على فمه، حتى لا يدخل الشيطان جوفه.

تاب إلى الله، واجتهد في التمثُّل بالشيخ، اشتغل بأنواع المجاهدات من صوم وقيام الليل وقراءة القرآن وكثرة التسبيح، تعلَّم كيف يدخل الحضرة بخشوعٍ وحبٍّ وطهارةٍ كاملة، يغادر حمَّام الأنفوشي، وقد تطهَّر جسده، يحاول — في الطريق إلى أبو العباس — أن يطهِّر داخله أيضًا، يُسقط ما عدا ذكر الله، والانشغال بحبه، والشوق لذكره، عرف أسماءً؛ الأستاذ، وإمام الوقت، وشيخ العهد، والنقيب، والبدل، والوتد، لكلٍّ مقامه واختصاصه. غفر الله لهم أجمعين. وقرأ في الكبرياء، والعزة، والقوة، والعظمة، والإجلال، والاتصاف بالقدرة التامة، والعلم المحيط، وسائر أوصاف الكمال. تعرَّف إلى عالم الأسرار والأنوار والرموز والإيحاءات والدلالات والمشكاة والزيتونة والظاهر والباطن والزيت الذي يضيء ولم تمسَّه نار. تمنَّى أن يطيب قلبه بنور التوحيد والمعرفة والإيمان، يطهِّره الله من الأوساخ، يحفظه ويحرسه، ويملأه محبةً وخشية، يقفل عليه قفل القدرة، يصل إلى الكرامة العظمى؛ المعرفة، والاستقامة، ورفع الحجاب، وفتح الباب.

قال يوسف بدوي: قال شيخنا الشاذلي: مَن لم يتغلغل في علمنا هذا، مات مُصرًّا على الكبائر وهو لا يشعر.

أقبل على التصوف والامتثال لأحواله ومواجيده، لم تعُد الألفاظ عنده بلا معنى، أو بمعانيها الظاهرة، صار لها في نفسه مدلولاتٌ أعمق؛ الذوق والوجد والقبض والبسط والهيبة والأنس والغيبة والحضور والسُّكر والمحو والفناء والبقاء، وغيرها من الكلمات التي ينطقها الناس، يشغلهم معانيها الظاهرة، دون أن يجاوزوا ذلك إلى عمق المعنى ودلالاته الخفية، لم يكُن يستقرُّ على حال، فهو بين البسط والقبض، والسرور والاكتئاب، والميل إلى الكلام والعزوف عنه، والإقبال على الناس والابتعاد عنهم.

قال له الشيخ وهما يغادران أبو العباس عقب صلاة العشاء: أنت الآن متوسط سالك ... ومقامك يعني ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات.

نصحه بأن يتلو — كل مساء — قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرَّة، وقال للتساؤل في عينيه: مَن فعل ذلك، بنى الله له قصرين في الجنة.

أردف في تأكيد: مَن قرأها ثلاثين مرَّة، بنى الله له ثلاثة قصورٍ في الجنة.

دعاه إلى أن يصقل مرآة قلبه، يصفِّيها من الخبائث الطبيعية، يمنع تراكم الصدأ داخل القلب والعقل، يحسن التلقِّي والأداء، فلا يقول حتى يعلم، ولا يردَّ ما لم يعلم.

حذَّره من أن يقصر همَّته على الأفعال الظاهرة، دون أن يرى ما هو عليه من هذه الأفعال، لا يعرف الأصول ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدُنية، ولا الأسرار ولا الكشوف. لو أنه اكتفى بذلك، فسيظلُّ في مرتبة العباد، مرتبة جليلة لها قدرها، لكنها دون ما يأمله منه، ويتمناه له.

تأخَّر عن المريدين — ليلة — وقال: لقد اخترت شيخي.

قال يوسف بدوي: مَن؟

وهو يومئ ناحيته: مولاي.

قال الشيخ في لهجة باترة: إذا أخذت العهد عليك، فأنت ترتبط بي إلى الأبد.

هزَّ رأسه: أعرف!

قال الشيخ في لهجته الباترة: لا تخالفني، ولا تعترض عليَّ، وتقدمني في كل الأمور على غيري من المشايخ، ولا تتردَّد على ولي من أهل العصر، ولا صالح، إلَّا بإذني، ولا تحضر مجلس غيري، ولا تسمع من سواي.

وهو يخفض نظره: أعرف! أعرف!

خالط صوت الشيخ حدَّة: أنت معي على صورة الميت، لا حركة ولا كلام، لا تتحدث بين يديَّ إلَّا بإذني، ولا تعمل شيئًا إلَّا بإذني، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو غير ذلك.

– تعلمته كله!

قال الشيخ في استنكار: كيف تفهم دقائق الأسرار وأنت لم تتُب من هفواتك؟!

احتضن الصمت والمسكنة، أبو العباس المرسي خلف من المعجزات ما جعله سلطان الإسكندرية، هل يحقِّق في نهاية الطريق ما يجعله شيخًا له استقلاله وكراماته ومكاشفاته ومريدوه؟

عنترة يسترد جواده

١

رأيناه — للمرَّة الأولى — يسير في شوارع السيالة، يختلف عن المارة، في سحنته المنمشة، وعينيه الزرقاوين، وقامته الطويلة، وشعره الأصفر المنسدل على قفاه، وخطواته المتمهِّلة، ونظرته المتأملة لكل ما حوله.

كان الوقت ظُهرًا، والشمس تريق أشعَّتها الساخنة على أرض الطريق.

يصعد إلى رصيف قهوة الزردوني، اختار أقرب ترابيزة، وجلس، لم يُلقِ السلام، ولا عُني بنظراتنا المتطلعة، أو المتسائلة، أو المستريبة، نادى على الجرسون ياقوت، وطلب شايًا.

انشغلنا بلعب الطاولة والكوتشينة والدومينو، فلم ندرِ كيف بدأ العراك بينه وبين ياقوت، لصق الولد بالجدار، وانهال عليه بضرباتٍ قاسيةٍ موجعةٍ حتى تهاوى تحت قدميه، خلَّص ساقيه من الجسد المتكوِّم، ومضى ناحية شارع السيالة.

فاجأنا ما حدث، فعجزنا عن التصرف.

٢

جاء إلى القهوة ظُهر اليوم التالي.

جلس على طاولة خالية، ونادى على ياقوت.

ترك المعلم أحمد الزردوني مكانه: انصرف من هنا.

تساءل في صوت كالهمس: لماذا؟

وهو يزغده في كتفه: القهوة ليست للفتوَّات.

لم يتحرك في جلسته: لست فتوَّة.

ثم وهو يهزُّ رأسه: ولن أنصرف!

نادى المعلم على عمَّاله بعينيه، فزَّ الرجل وبيده الكرسي، تناثرت ضرباته على رءوس المعلم والعمَّال، وفي أجسامهم. سكتت الصرخات، أو تحولت إلى أنَّات متقطعة، فألقى ما تبقَّى من الكرسي، ومضى — دون تلفُّت — ناحية شارع السيالة.

٣

كأن الأمس لم يكُن.

قدِم — هذه المرَّة — من شارع العوامري، المفضي إلى الميناء الشرقية. تجاهل آثار العراك، واختار كرسيًّا سليمًا، أسنده إلى جدار القهوة، وجلس.

لم نتوقع مجيئه، نقل المعلم الزردوني وعمَّال القهوة الثلاثة إلى مستشفى رأس التين، ووصل البوليس بعد أن اختفى الرجل في انحناءة الطريق.

كنا قد أتينا بمفاتيح القهوة من بيت الزردوني، أشعلنا المنقد، ورصصنا الكراسي، وأعدنا تشغيل القهوة قدر استطاعتنا.

القهوة لها ثلاثة أبواب، وإن أُغلق بابان؛ أحدهما يطلُّ على شارع العوامري، وفُتح أحد البابين المطلَّين على شارع السيالة. تقع أسفل بيت قديم من طابقين، أكلت ملوحةُ البحر القريب واجهته، فبدت الثقوب في الأحجار البيضاء، وأطراف السقوف الخشبية الفاصلة بين الطوابق.

اخترنا الجلوس فيها؛ لأنها وسط بيوت الصيادين، وقريبة من شاطئ الأنفوشي ومن مرسى البلانسات، والمراكب الصغيرة في الميناء الشرقية، وحلقة السمك، وساحة نشر الغزل، وورش المراكب، وميدان المساجد باتساعه المفضي إلى أبو العباس والبوصيري وشارع الميدان، وأمامها مسجد المسيري الصغير، يفتح أبوابه طيلة اليوم، فيسهل أداء الصلوات.

نقضي في القهوة معظم أوقاتنا، لا نغادرها إلَّا إلى بيوتنا، أو إلى البحر، ندخل الجوامع في صلاة الجمعة، أو لأداء الأوقات إذا تناهى الأذان من مسجد المسيري، ربما تردَّدنا على حمَّام الأنفوشي … لكن القهوة هي المكان الذي نتحاسب فيه، ندفع عربون شروة اليوم التالي، نتفق على السفر في البلانسات، نتناقش في الظروف والأحوال، نلعب الطاولة والدومينو والكوتشينة. إذا غاب أحدنا، فلأنه في البحر ونحن نعلم، أو لأنه مريض ويجب

السؤال عنه. اعتدنا قهوتها وشايها وقرفتها وزنجبيلها ونداءات ياقوت، وصوت الراديو منذ يبدأ إرساله إلى السلام الملكي، وقعدة المعلم أحمد الزردوني بالقرب من الباب، حتى الكراسي التي بُزَّت مساميرها، أو تهالكت، نعرفها فنتجنب الجلوس عليها، اعتدنا ما فيها وما حولها، لم يعُد يشغلنا إلَّا النقاش والفصال وإطلاق صيحة التباهي عند الفوز في أدوار اللعب.

انتترنا من أماكننا، وتقدَّمنا نحوه.

لم يبدُ أنه فوجئ بتصرفنا، رفع كرسيَّه يتَّقي ضرباتنا، ويوالي ضرباته كيفما اتُّفق. انبثق الدم والتأوهات والصراخ والزياط والفوضى، خلا المكان في دقائق، إلَّا من جلسته المستندة إلى الجدار.

٤

قال مختار زعبلة إنه شاهد الرجل مرَّاتٍ كثيرةً في الميناء، يخلِّص أوراقًا باستيراد بضائع من الخارج، وأكد قاسم الغرياني أنه لم يلتقِ بالرجل من قبل، وإن بدت ملامحه مألوفة، وتناولت قعدات البيوت أصله وفصله، وأكد البعض، في حسم، أن الرجل ليس من الإسكندرية أصلًا، وأنه جاء ضمن بحَّارة سفينة أجنبية، فاستبدل زيَّه، وظلَّ في المدينة.

٥

تذكرناه.

كان قد مضى زمنٌ طويلٌ على لجوء الشيخ أمين عزب إلى زاوية خطاب، آخر معاركه خاضها ضدَّ بحَّارة زرق العيون، طاردهم في شارع المسافرخانة بشومته التي لم تكُن تفارقه، أُغلقت أبواب الدكاكين والبيوت، وماتت حركة الطريق، فيما عدا صرخات البحَّارة، والصيحات المعجبة من النوافذ، وضربات الشومة ترتطم بالأجسام المتأوِّهة.

كان قد لزم الزاوية، لا يغادرها منذ صلاة الظُّهر إلى صلاة العشاء، يتلو آيات القرآن، ويؤذِّن للصلاة في مواعيدها، وربما خطب المصلِّين في صلاة الجمعة.

لم يكُن فتوَّة، ولا خالط الفتوَّات من قبل، سمع عن حكايات حميدو فارس والسكران وأبو خطوة، المعارك الدامية في أحياء الإسكندرية، سطوة الفتوَّات والأبوحمدات على التجار وأصحاب الدكاكين، إتاواتهم من مواكب الزفاف في ميدان المساجد، سرقاتهم من معسكرات الإنجليز في رأس التين.

بدا أبوه متأثرًا وهو يقول في عودته — ذات مساء — إلى البيت: مات أبو خطوة.

أضاف دون أن يبين عن هوية الرجل: كان يفاصل على شروة سمك لبيته، في الحلقة ... أحسَّ بالتعب، ومات قبل أن يلحقه الطبيب.

روى له أبوه — فيما بعد — عن حميدو والسكران وأبو خطوة وأبوحمدات الإسكندرية وفتوَّاتها، أعلن إعجابه، وترك لخياله صورة معاركهم.

لمَّا خاض أولى معاركه، فاجأه عبد الرحمن الصاوي بالقول: ذكَّرتنا بحميدو فارس!

عرف أن طرده للغرباء عن الحيِّ هو من أفعال الفتونة، وإن لم يصادق الفتوَّات، ولا شاهد أفعالهم في حياته.

فاجأنا — عقب وفاة أبيه — بترك الدراسة، خلع البنطلون والقميص، وارتدى الجلابية، وقف على طاولات أبيه في حلقة السمك، أعانه معلمو الحلقة على فهم ما غاب عنه من أصول البيع والشراء، زاد الطبالي لباعة الشروات والسريحة، عرف الجلوس في القهاوي والدكاكين، والتردُّد — مع الصيادين — على حمَّام الأنفوشي، والمشاركة في الموالد وفي حلقات الذكر أمام أبو العباس والبوصيري، تجاهل المصمصة ونظرات الإشفاق لصغر سنه.

فاجأته خناقة في مولد أبو العباس، تلقَّف كرسيًّا يتجه نحوه، طاح في الوجوه المنتوية الشر، الغريبة عن بحري، طاردهم من الدحديرة الخلفية للجامع، إلى الموازيني، توقَّف عن المطاردة في أول شارع الميدان.

ضرب — ذات أصيل — ثلاثة شبَّانٍ من خارج بحري ضايقوا فاطمة بنت الحاج توفيق الشمرلي، لاحقوها حتى قهوة مخيمخ، قام من مجلسه، وتصدى لهم، تنبَّه الناس — من يومها — إلى قوته، جعلوه حلقةً في سلسلة الفتوَّات الذين تصوَّر الجميع أنه انتهى زمانهم.

قيل إن الشيخ عرفة الأنصاري ظهر له في رؤيا منامية، حذَّره من مغبَّة الاعتماد على قوته، طالبه بأن يلزم جانب الله، فيترك الحلقة — آخر النهار — إلى زاوية خطاب، يغادرها إلى البيت.

لم يعُد يتردَّد على قهاوي الحيِّ، أو يشارك في مسابقات الحناطير والبنز، أو يتردَّد على الحمَّام، أو حتى يشارك في موالد الأولياء. يبيع الشروة، فيترك الحلقة إلى البيت، قبالة مطحن شيمي بك، يتناول طعامه، ويتوضأ، ويستريح إلى ما قبل العصر. يتجه إلى زاوية خطاب، يلزمها إلى صلاة العشاء، ثم اعتزل الناس، انقطع إلى الله، يغادر الزاوية

إلى البيت، عقب صلاة العشاء، أو لزيارة أبنائه ساعاتٍ من النهار، يقوم بمهامِّ الخادم والمؤذِّن والإمام، ويتولى — بنفسه — فتح الزاوية، لأداء الصلاة، وإغلاقها.

أطلق لحيته، فبدت، بلونها الكستنائي، إضافةً إلى العينين البُنِّيتين، والبشرة البيضاء المشرَّبة بحمرة، والقامة الطويلة في اعتدال، جسَّد ما ارتسم في تصورات الناس عن الشاذلي وأبو العباس والبوصيري ونصر الدين وكظمان وعلي تمراز والأولياء الاثني عشر، وغيرهم من أولياء الله الصالحين، ثم زادت مهابته بالعباءة الجوخ، يحرص على ارتدائها في الطريق، وفي الزاوية، وفي استقباله للمتردِّدين على بيته.

٦

طوى صفحة القرآن على إصبعه، وقال: عرفت كل ما حدث.

ثم في تقريرية هادئة: لكي يعود الحيُّ إلى سابق عهده، فلا بدَّ من طرد الرجل.

قلنا: حاولنا ... لكنه يتقن من أساليب العراك ما لا نعرفه.

وهو يهُمُّ بالعودة إلى قراءة القرآن: دعوه لي!

٧

ترك زاوية خطاب بعد صلاة الفجر.

سار في المسافرخانة إلى نهايته، مال إلى شارع الكناني، ومنه إلى شارع أبو العباس، حتى الميدان الفسيح.

أخرج من الصديري — في بداية السيالة — مطواة ملتمعة النَّصل، وسبق الجميع في الجلوس على طاولة ملاصقة لجدار القهوة.

لَمَّا تلاشت الظلال الرمادية، وارتفع الضحى، كان الشارع قد امتلأ عن آخره بالعشرات من أبناء الأنفوشي والسيالة ورأس التين، تساندوا على أبواب البيوت والدكاكين المغلقة، وأطلَّت العيون من خلف النوافذ الموارَبة، واقترب البعض مستترًا بعربات اليد الفارغة.

ظهر الرجل في الحارة الضيقة، الملاصقة لمسجد المسيري، حلَّ صمتٌ سادرٌ غريب، يعمِّقه نبش قطة في قمامة الطريق.

فزَّ الشيخ أمين عزب لاقتراب الرجل، أسند ظهره إلى الحائط، واستلَّ سكينه.

زوى الرجل عينيه في دهشةٍ حقيقية: لماذا؟

قال أمين عزب وهو يحرك السكين أمام عينَي الرجل: لا مكان لك هنا.

دون أن يجاوز هدوءه: إني أدفع ثمن المشروب.

علا صوتُه، فبدا كالصراخ: ولو ... انصرف حالًا!

بحركةٍ مفاجئة لوى ذراعه، وضغط بقبضته على عنقه، صرخ الشيخ بآخر ما عنده، وقذف بنفسه إلى الأرض، يحاول التملُّص ... لكن الرجل لحقه، وبرك عليه، ظلَّ فوقه بقامته العملاقة، لم يتركه إلَّا بعد أن هدأت ارتعاشات يديه وقدميه، فتصورنا أنه مات.

٨

عاد إلى موضعه في زاوية خطاب، يقرأ القرآن، وينصت إلى شكاوى الناس وأسئلتهم، وإن لم يعُد يستطيع أداء الأذان، أو القيام لإمامة المصلين، مدَّ ساقه التي لفَّها الجبس أمامه، وكانت آثار المشاجرة واضحةً في وجهه.

٩

تابعناه وهو يترك موضعه في زاوية خطاب، يمضي في المسافرخانة إلى نهايته، ثم يتجه من الحجاري إلى شاطئ الأنفوشي، يخلِّف الكبائن، وورش المراكب، ودار السينما، يميل إلى الساحة الحجرية المطلَّة على البحر، يفتح حقيبة من القماش، متوسطة الحجم، يفرد خناجر وبلط وسكاكين وجنازير وسلاسل، وأشياء أخرى يتلاعب بها، ويقذفها في الهواء، ويستعيدها، ويصوِّبها إلى نُصب خشبيٍّ غرسه في وسط الساحة.

إذا حلَّ به التعب، أسند ظهره إلى صخرة هائلة في طرف المكان، وانشغل بمطالعة كتبٍ بها رسوم وصور وخرائط، ثم يعاود أداء تمريناته القاسية!

راعينا مشاعره، فلم نسأله إن كان هجر ملازمة الزاوية، وأنه سيعود إلى الفتونة.

١٠

أنهى — ذات عصر — تدريباته في الساحة الصخرية، لم يدسَّ الأدوات — ككل يوم — في الحقيبة القماش، لفَّ الجنزير حول وسطه، ووزع الخناجر والسكاكين على جيوب الصديري.

لم يستكمل مشوار العودة اليوميَّ في طريق الكورنيش، مال إلى داخل السيالة، ونحن نتبعه.

بدا رصيف القهوة خاليًا، إلَّا من الرجل، كان يرتشف — في استرخاء — كوب الشاي.

السائر إلى الله

قال أبو العباس: العارف لا دنيا له، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربِّه. وقال: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا، وقال: الزاهد غريب في الدنيا؛ لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة؛ فإنه عند الله. وقال: معرفة الوليِّ أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقًا مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب، وإذا أراد الله أن يعرِّفك بوليٍّ من أوليائه، طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيَّته. وقال: الوليُّ يكون مشحونًا بالمعارف والعلوم والحقائق، حتى إذا أعطى العبارة، كان ذلك كالإذن من الله في الكلام، كلام المأذون له يخرج من فمه، وعليه كسوةٌ وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذَن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فتُتقبَّل من أحدهما، وتُردُّ على الآخر.

غالب تردُّده وهو يقترب من الباب الحديديِّ الضخم، فُتحت ضلفة واحدة على دنيا تشغي بالجلابيب والعمائم والأنوار المبهرة والخافتة والمذاكرة والمناقشات وروائح الطعام.

سأل أقرب الواقفين: أين أجد الطالب زكي تعلب؟

قال الطالب وهو يتأمل سيالته: من أيَّة مدينة؟

أظهر الحيرة: لا أعرف ... لكنه في السنة الثانية.

أشار الطالب إلى حُجرة صغيرة على يمين المدخل: اسأل عم إبراهيم القسط حارس المبنى ... إنه يعرف كل الطلبة.

جلسا إلى دروس الشيخ يوسف بدوي، عرف سحنته، أَلِفها، توالت الدروس كل خميس بعد صلاة العشاء، تتجه الأسئلة إلى الشيخ، يردُّ بكلمات مقتضبة، أو بما يملأ

مساحة الجلسة، ثم يدعوهم لتلاوة آيات القرآن، أو الأوراد، تلتصق الأكتاف، وإن انشغل الجميع بالمتابعة، فلا يجاوزوا ألفة السِّحَن، إلى التحدث والمعاشرة.

لَمَّا قدَّم إلى الشيخ آخر ما نصحه بقراءته من كتب، قال الشيخ في ودٍّ: كتب الزاوية قليلة … فالجأ إلى أخيك زكي تعلب.

نظر إلى حيث أشار الشيخ، شابٌّ في حوالي العشرين، نحيل القامة، يرتدي جبَّةً حال لونها، فبدت بلا لون، استغنى عن العمامة، فظهر الصلع في مقدمة رأسه، يشوب عينيه آثار رمدٍ قديم، ويعاني تعثرًا في خطواته، شفته السفلى المتدلية من أوسطها، كأنها بزبوز إبريق، غادرا الجامع — عقب الصلاة — معًا، رحَّب زكي تعلب بإعارته ما عنده من الكتب، وما عند زملائه في المعهد الديني، قال: أنتظرك في أيِّ وقتٍ بعد العشاء.

هزَّ الحارس رأسه بما يعني عدم معرفة الاسم، أشار، فصعد السلالم العريضة، ذات الدرابزين الحديدي، إلى غرفٍ متلاصقة، تجاورت فيها الأَسِرَّة، في نهايتها ردهةٌ واسعة، تحلَّقت فيها مجموعاتٌ حول أدوار الشاي والمذاكرة والمناقشات.

لحق تردُّده في السؤال صوتٌ من آخر الرَّدهة: أهلًا!

الحُجرة متوسطة، على اليمين سريرٌ حديديٌّ صغير، فوقه مرتبة بلا غطاء، ومخدَّة يتوسطها آثار عرق، وعلى اليسار مرتبة احتلت الزاوية، تناثر فوقها كتبٌ وقِطعٌ من الخبز الجاف، بجوارها «سبت» مغطًّى بقطعة قماش ملونة، خمَّن الراكشي أن به خبزًا أو «قرص». في المنتصف طاولةٌ خشبيةٌ متآكلة، عليها كتبٌ وبرطمانات طعام وكيسٌ ورقيٌّ ملفوف، وعلَّق ملابسه على الحائط؛ جبَّة وكاكولا وقفطانًا وحزامًا عريضًا، ولصق الجدار المجاور للباب كرسيَّان من الخيزران.

قال زكي تعلب: تشرب شايًا؟

– سكر خفيف.

أشعل وابور الجاز ووضع عليه البرَّاد، لقَّمه ثلاثة أكواب ماء، وملعقتين من الشاي.

قال الراكشي: نحن اثنان فقط.

قال زكي تعلب: والفاقد؟

قاده زكي تعلب إلى الحياة داخل المعهد؛ البوابة الضخمة — طالما مرَّ من أمامها — تخفي عالمًا فسيحًا من المشايخ الصغار، وتلاوة القرآن، والدروس في علوم الصرف والنحو والمعاني والتوحيد والتفسير والحديث والفقه، ورواتب الطعام اليومية؛ الفول النابت بعد

صلاة الفجر، الفتة باللحم في الغداء، ربما أضيف إليها أنواعٌ أخرى من الخضر والفاكهة، وأكواب الشاي، وفناجين القهوة، وأطباق الحلوى، والنقل.

قال زكي تعلب لنظراته المتسائلة: المعهد يحيا على إيراد العقارات الموقوفة من تجار وأثرياء.

تسبح في المكان أصوات قرقعة الأواني في المطابخ، واندلاق الماء من الحنفيات، والنداءات، والقراءات، والدردشات الصاخبة، والهامسة، حتى يؤذن للفجر، يبتسم لتزاحم الطلبة على باب دورة المياه.

تعدَّدت زياراته للمعهد، ولقاءاته بزكي تعلب، ينصت إلى تلاوة الطلبة لسور القرآن، فُرادى في ليالي الأسبوع، ويشاركهم قراءاتها في ليلة الجمعة، عرَّفه زكي تعلب بآخرين صاروا — فيما بعد — أصدقاءه، أذهله أنهم لم يكونوا جميعًا من المؤمنين بما يدرسون، لاحظ زكي تعلب حيرته فيما يثيره الطلبة من قضايا الدين والسياسة، ومن السخط والرفض، قال في لهجة مشفقة: أنت الآن في مرحلة التزوُّد والمعرفة ... فاكتفِ بالإنصات والاستيعاب.

وقال له بما ذكَّره بالشيخ يوسف بدوي: الترقِّي في العلوم والمعارف لا نهاية له.

واحتضنه بنظرة دافئة: ربما استغنى المرء عن هذا العلم أو ذاك، أمَّا التصوف فهو العلم الذي لا يستغني عنه أحدٌ أبدًا.

ثم في صوت مبطَّن بالود: العلوم ناقصة أو ساقطة ما لم يكملها التصوف ويحسِّنها.

وقال له وهو يدفع إليه بمجلدٍ هائل الحجم: لا تصوف إلَّا بفقه ... فلن تعرف أحكام الله سبحانه إلَّا منه.

استطرد موضحًا: هذه هي الحِكَم العطائية، قال عنها شيخنا مولاي ابن عربي رضي الله عنه: إنها كادت أن تكون وحيًا ... ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن، لجازت بكلامها!

قال علي الراكشي: قرأتها ... استعرتها من المكتبة الحجازية.

قال زكي تعلب: إنها تحتاج إلى ما هو أكثر من قراءة الاستعارة، اقرأ كل يوم بضع فقرات ... وتأمل المعاني.

لاحظ زكي تعلب تأمله المشفق للحُجرة، قال: إني أفيد من حفظ القرآن بتلاوته في البيوت.

رفَّت على شفتيه ابتسامة: وهل تجيد الأداء؟

ركب الاعتذار صوته: أقلِّد ما استطعت مصطفى إسماعيل أو الشعشاعي.

أردف بالنبرة المعتذرة: هذه مهنة مؤقتة، أمامي — بعد التخرج — إمامة المساجد أو التدريس أو القضاء الشرعي.

حدَّثه زكي تعلب عن بلدته الدلنجات، التابعة لمديرية البحيرة، تلقَّى تعليمه الأوليَّ في دمنهور، ثم انتقل إلى المعهد الديني بالورديان والمسافرخانة. اعتمد على نفسه منذ استقرَّ في الإسكندرية، لا يتردَّد على الدلنجات إلَّا يومًا أو يومين، في الإجازة الصيفية، وفي الأعياد.

مع أنه أكبر من تعلب بسنواتٍ كثيرة، فإنه كان يتعامل معه كأستاذ، يفيد من قراءاته وملاحظاته وتوجيهاته، يكتفي بتوجيه الأسئلة، ويعطي انتباهه لكل عبارة.

انقطع للتهجُّد، وذكر الله، وإقامة الصلاة، وقراءة الأوراد، وتلاوة القرآن، والاطلاع على ما يقدِّمه له الشيخ يوسف بدوي — ثم زكي تعلب فيما بعد — من كتب التصوف والعلوم الدينية، والتأمل في ملكوت الله. اختار المجاهدة، ورياضة النفس ومراقبتها ومخالفتها، سعيًا للخلاص والنجاة والوصول، عانى قلَّة الزاد وطول السفر، وشدَّة الأهوال، وعِظَم العقوبات، ربما مضى عليه الليل وهو يقرأ الوِرد الذي اختاره، لا تدخل عليه زوجته ولا الأولاد، ينعزل تمامًا عن كل ما حوله، يتنبَّه لأهازيج السَّحَر؛ تسابيح المنشدين والمؤذِّنين قبل أذان الفجر، يذهب للصلاة بوضوء العشاء، تعلَّم آداب الذِّكر؛ ما يسبقه ويصحبه ويلحقه، التوبة، والتطهر، والصلاة، وطريقة الجلوس، والجو المحيط، وحالة القلب والخاطر، واختيار صيغة الذِّكر، والتهيؤ لاستقبال الوارد، مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد، وطريقة الاهتزاز أثناء الذِّكر، والناحية التي يتجه إليها برأسه وأعلى جسمه عند نطق كل كلمة. اعتاد مشاهد الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام.

سأل زكي تعلب: لماذا تتعدَّد الطرق الصوفية؟

قال تعلب: كلهم من رسول الله ملتمس.

خالط نبرته تشكُّك: ولماذا لا نكتفي بالسنَّة؟

استطرد في نبرته المتشككة: تفرُّع الطرق يطرح الخلاف.

قال زكي تعلب: اقرأ أولًا ... ثم أظهر اختيارك.

وسأل ليلةً: هل يغني الوِرد عن قراءة القرآن؟

قال زكي تعلب: هذه اجتهادات الغُلاة.

ثم بلهجةٍ باترة: لسنا منهم!

وفاجأه الشيخ يوسف بدوي — ذات مساء — بالقول: أنت الآن على عتبة مقام المريد ... وهو مقام المجاهدات والمكابدات، وتحمُّل المشاق، وتجرُّع المرارات، ومجانبة الحظوظ.

سار في طريقه، تدفعه وتحدو به الأشواق والمجاهدات.

أزمع أن يطهِّر نفسه من حُبِّ الدنيا، ومن الإقبال على الخلق، قطع المعاملة مع العباد، سلك طرق العبادة والزهد.

لازم الخلوة، وداوم الصلاة والذكر والصوم والعبادة، لوَّن طاعته لله، إذا مَلَّ من الصلاة انتقل إلى الذكر، وإذا ملَّ من الذكر قرأ السِّيَر والأحزاب والأوراد، أَلِف رياضات النسك والصلاة والصوم والسهر والمفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحبة والشوق والأنس والرجاء والتوكل والقرب وموارد القلوب. وتفيض التجليات، تأتي وتذهب، تشفُّ الروح، وتتخفَّف من قيود البدن، تموت الشهوات، تتصل الروح بالملأ الأعلى، تتكشف لها الأنوار الربانية، يسمع — حيث يذهب ويجيء — أكثر من ثلاثة عشر ألف نبيٍّ ورسولٍ يعانون ويقاسون التجربة، يتحدثون عن الوحي والتنزيل، تتناغم أصواتهم مع أصوات الألوف من أولياء الله والصالحين والتابعين، وأصوات الملايين من طالبي البرء والشفاعة والستر.

قال الشيخ يوسف بدوي: هذا علم لا يؤخذ من الأوراق ... إنما يؤخذ من أهل الأذواق.

قال علي الراكشي: أنت الذي دفعتني إلى القراءة.

قال الشيخ كأنه لم يسمعه: أتممت الجانب النظري للبداية، ويبقى عليك استكمال الدائرة!

استطرد موضحًا: آن أوان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن.

وقال له ذات مساء سبق فيه الآخرين إلى شقة الشيخ: المريد لا يصل إلى شيءٍ من مبتغاه دون شيخ!

المريد!

هل أوشك على تخطِّي العتبة إلى دنيا الفيوضات الربانية؟

وقال يوسف بدوي: لا بدَّ للإنسان من شيخ يرشده ... ومَن لا شيخ له، فالشيطان شيخه!

كان إذا جلس إلى الشيخ يوسف بدوي، طوى علمه ورؤية نفسه، هو عارٍ يطلب الكساء من فم الشيخ ونصائحه، يمتثل للأوامر، ويجتنب النواهي، ويجتهد في الابتعاد عن المعاصي، لا يفعل ما توبخه عليه نفسه حين يأتي الليل أو يقبل الصباح، يحرص أن يكون غده أفضل من اليوم الفائت، وعلى المحبة التي تدفع إلى النوافل والمستحبَّات.

وقال له الشيخ وهما يغادران أبو العباس: أنت في حاجة إلى واصلٍ موصِّل.
قال في حيرته: كيف؟
قال الشيخ: التوبة أولًا ... وهي لا تكون إلَّا على يد شيخك.
في نبرة متوسلة: فلتكُن شيخي!
قال الشيخ: اعرف أولًا ما ينبغي معرفته من الإجراءات التي يجب أن ترقى عن طريقها.
ثم بلهجةٍ تقطر محبةً: كلما كانت البداية أحكم، كانت النهاية أتم!
وهزَّ إصبعه في الهواء: حذارِ من فساد الابتداء!

متى يأذن الله، فيصبح من أهل الحجاب، أهل الدليل والبرهان؟ يخلص قلبه لله، فيضيء طريقه بأنوار المعارف، يهبه علومه وأسراره، ينكشف الغطاء، ويُفتح الباب، ويُرفع الحجاب، ويكشف نور الشريعة ظلمة البطالة والتقصير، ويظهر نور المجاهدة، وتشرق شموس العرفان، وتنادى هواتف الحقيقة، وتتألق جواهر العلم المكتوب، ويتسع ضيق الأكوان، وتحصل أنوار المواجهة، وتصير الروح سرًّا من أسرار الله، ويُقبل القلب على معرفة مولاه ... تطوى له الآفاق، يصبح من أهل الخطوة، يطير في الهواء، يمشي على الماء، مثل الشاذلي وأبو العباس. المراحل — إن أحسن ارتقاءها — تنتهي به إلى حيث يريد، يخلص في المقامات والأحوال، فيصبح في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات، يكشف عالم الغيب المحجب وما في القلوب، ويستشرف الآتي وتوقعات المستقبل، يدرك أسرار السمك والطير والحيوان والحشرات والنبات، يتحدث إليها، ويطوِّعها في أشكال مختلفة، يتصرف في الكون بالهمَّة، يدخل على الحاج قنديل في الحلقة، أو في جلسة العصر أمام دكان محمد صبرة، أو في درس إمام أبو العباس، يملي عليه شروطه، فلا يقوى على الاحتجاج أو الرفض، يتلو أدعية، فيحيل الظالم جمادًا في مكانه، يحيل التراب ذهبًا، يتزوج الحور العين، يقطف ثمار الجنة وهو على الأرض.

ابتسم لرؤية الحاج قنديل وقدماه تتأرجحان فوق الصراط، قبل أن يهوى إلى جهنَّم، وجزَّ أسنانه لتأوُّهات الرجل وهو يحاول اتِّقاء لسعات الكرابيج المشتعلة في أيدي الجان، وقال الحاج في تذلُّل: إن لم تعفُ عني، فالخلود في النار مصيري. وركب حصانًا في جلوة المولد يفوق جماله حصان التميمي، يحيط به المريدون والأتباع وأهل الطريقة، يحملون الأعلام، ويدقون البازات، ويبتلعون النار، ويغرسون الأسياخ في الخدود، وأعان الصيادين

على ركوب البحر في عزِّ العاصفة، وأحنى الشيخ طه مسعود رأسه — تأدبًا — في مجلسه، وأذنت له رئيسة الديوان بالحضور في مجلسها، جنبًا إلى جنب، مع الرفاعي والبدوي والشافعي والجيلي، وانخرط صيادو الحلقة في حضرة، يتهدجون بالدعوة له، والشفاعة، والمدد، وتضوَّع البخور، وتعالت الزغاريد، وترنَّمت الأصوات بحُبِّ النبي، وباحت الطلاسم بألغازها، وتألَّقت الفيوضات بما يصعب تخيُّله.

الحال يسبق المقام

أنكر ابن عطاء الله السكندري — في مقتبل شبابه — على التصوف ورجاله، وذهب إلى أبو العباس المرسي لينظر ماذا يقول، وجده يتكلم في الأنفاس ودرجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به — سبحانه — وقُربهم وتقرُّبهم إليه، فما زال يتحدث ويتحدث عن الإسلام والإيمان والإحسان، ومقامات الشريعة والحقيقة والتحقُّق، قال ابن عطاء الله: ... إلى أن بهر عقلي وسلب لبِّي، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحرٍ إلهيٍّ ومددٍ رباني، فأذهب الله ما كان عندي من إنكار واعتراض. ولزم ابن عطاء الله — فيما بعد — أبو العباس، وصار من مريديه.

جلس قبالة الشيخ، أسند ركبتيه إلى الأرض، قرأ الشيخ الفاتحة ثلاث مرَّات، قرأها بعده، قرأ الشيخ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

وقال الشيخ: استغفر الله.

قال علي الراكشي: أستغفر الله العظيم، الذي لا إله إلَّا هو الحيُّ القيوم، وأتوب إليه، تُبت إلى الله، ورجعت إلى الله، ونهيت نفسي عمَّا نهى الله، ورضيتك شيخًا لي، ومرشدًا لطريقة الشاذلي.

قال الشيخ يوسف بدوي: أنت الآن تقف على باب الأبواب.

وتأمل ما لا يراه سواه، في الفراغ أمامه: التوبة هي أول ما يدخل به العبد حضرات القرب من جناب الرب!

التوبة هي الاعتراف، والندم، والإقلاع، والتقوى، والاستقامة، والزُّهد، والورع، والخوف، والرجاء، والرضا، والتسليم، والإخلاص، والصدق، والطمأنينة، والمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة.

قال الشيخ: أقمتك مريدًا بهذه الطريقة العليَّة ... وعلى هذا العهد المبارك.

أضاف في ترفُّق: قُم مريدًا في هذه الطريقة!

قال الشيخ يوسف بدوي: قبِلتك لأوصلك إلى طريق الله بقدْر ما تعرف، وإني لن أبخل عليك بقدْر ما عرفته. وقال: من شروط التلمذة أن يختار المريد الفقر على الغنى، والذلَّ على العز، والله على غير الله. وقال: لا شجرة بدون غارس، قد تورق، لكنها لا تثمر. وقال: اسلك الطريق على هدى ما تلقاه عني من إشارات وإرشادات. وقال: المريد يجب أن يكون بين يدَي شيخه كالميت بين يدَي غاسله، يقلِّبه كيف شاء.

لاحظ ارتجاف عينيه، خالط صوته إشفاق: لا أريد لعلمك أن يقتصر على الشريعة، فتصبح من العامة، ولا أحبُّ لنفسي أن أصبح من علماء الرسوم.

وقال في صوته المشفق: أملي أن تصل إلى المقام الذي أتمنى من الله أن أصله يومًا.

قال علي الراكشي: ما هو؟

قال يوسف بدوي: مقام المحبة ... هو أعظم المقامات ... ليس بعده مقامٌ آخر.

حذَّره من ضعف النفس، يشاهد اللوامع بالحواسِّ الظاهرة، تتراءى له أنوار كأنوار الشمس والقمر والشُّهب، فتضيء ما حوله، تبهر أهل البدايات، فيسيئون الرؤية والفهم والتصور، تجتذبهم، فيتبدى السراب واحةً يتصور فيها الضال غاية تعبه.

ألزم نفسه حُسن الاعتقاد في الشيخ، الإيمان بصدق ولايته، أوقد في قلبه مصابيح الهوى، أجاد تربيته، والإشارة إليه بمستلزمات السلوك، ومقتضيات الوصول إلى قُرب الخالق، آن الأوان كي يجاوز العبادة الظاهرة من صلاة وصوم وطهارة، إلى العبادة الخفية؛ الخوف والرجاء والزُّهد والصبر والورع والرضا والتسليم.

أوصاه الشيخ بألَّا يجادل، الجدل يفضي إلى المماراة، وتغليظ القلب، والانتصار للنفس على حساب الحق، يصرفه عن مغالبة الشهوات، والسموِّ إلى عالم الصفاء، يشوِّش عليه، فلا يدخل العالم الذي ينتظره؛ عالم الصادقين، القانتين، الخاشعين، السائحين، الموقنين، المخلصين، المحسنين، الخائفين، العابدين، المتوكلين، المتَّقين، الأبرار، المقرَّبين، المصطفين، الأخيار.

وقال له الشيخ: حفظ العهد يعني ألَّا تُفقد حيث ما أُمرت، ولا توجد حيث ما نُهيت!

أقبل القلب على بهجة الأسرار، لمعات نورانية تضيء في سماء حياته، ثم ما تلبث أن تزول وتنطفئ، كأنها لم تكُن، تعود ثانيةً كما كانت، بلا مقدمات، ولا محاولة منه لاجتلابها، سمَّاها الشيخ يوسف بدوي طرائق الأحوال، لم يفهم المعنى على نحو محدَّد، وإن اعتاد التماعها بين لحظاتٍ وأخرى.

قال الشيخ: لا بدَّ أن تمرَّ بطريق طويل قبل أن تصبح سالكًا، لا بدَّ من صحوة وقيادة مرشدٍ كي تصل إلى نهاية الطريق.

قضى أيامه في تأمل وصلاة، وتلاوة سور القرآن الكريم، يا دوب يبيع شروة، يأخذها من محمد كسبة، يمضي بعدها إلى أبو العباس، أو إلى البيت. الصلاة، والصوم، والتسابيح، والقراءات، قبل كل صلاة وبعدها، ما يُستحبُّ من الذِّكر والدعاء، أوراد الليل والنهار، محاسبة النفس، تعلَّم المقامات، والغفلة، وعلوم الباطن.

أيقن أنه يحاول الدخول إلى الحضرة الإلهية من باب القُرب، اعتاد تناوب المشاعر في داخله ما بين الحزن والوجد والفرح والشوق والرضا والندم، يتبدل من حالةٍ إلى أخرى، بتبدل المقام وزواله، باستمراره ودوامه.

صارح الشيخ بما في نفسه، فطمأنه: المريد يترقَّى من مقامٍ إلى آخر، حتى ينتهي إلى التوحيد والمعرفة ... وهي غاية السعادة.

ثم وهو يتأهَّب للصلاة: المقامات درجات في الصعود إلى الغاية العليا.

حدَّثه في حلِّ الرموز، فهو لن يصل إلى منازل القُربى حتى يجاوز ستَّ عقبات؛ يفطم الجوارح عن المخالفات الشرعية، يفطم النفس عن المألوفات العادية، وعن الكدورات الطبيعية، يفطم القلب عن الرعونات البشرية، يفطم الروح عن البخورات الحسيَّة، يفطم العقل عن الخيالات.

وقال يوسف بدوي: المقامات أمامك كثيرة ... فأنت تبدأ بالتوبة، ثم الخوف، فالرجاء، فالصالحين، فالمريدين، فالمطيعين، فالمحبِّين، فالمشتاقين، فالأولياء، فالمقرَّبين.

وقال: اخرج معي ... ولا خوف عليك!

بدأ تمارين غيبيَّة، كتلك التي يمارسها الدراويش، للوصول إلى حالة الإشراق، والحصول على الكرامات التي تمنحه قوى خارقة.

قال له الشيخ يوسف بدوي: ما دمت قد صدَّقت بهذا العلم، فأنت من الخاصة. فإذا فهمته، فأنت من خاصة الخاصة. أمَّا إذا عبَّرت عنه وتكلمت فيه، فأنت النَّجم الذي لا يُدرَك، والبحر الذي لا ينزف.

هل آن أوان ذلك؟

هل يصبح حُرَّ نفسه، ويتخلص من تسلُّط الحاج قنديل، ومن الأيام الصعبة؟!

الإمام يفض الحفل

بدا الرجل — بقامته القصيرة وخطواته المهرولة — في غير الصورة التي أَلِفوه فيها داخل المرسي أبو العباس، يدسُّ قدميه تحت فخذيه، فينتهي جسده عند الركبتين، المصلُّون أمامه — في نصف دائرة — ينصتون إلى دروس المغرب، يسألون، يناقشون، يستوضحون ما غمض من الشريعة والفقه؛ الطهارة والزكاة والسنة والفرض وأحكام الطلاق والسهو عن الصلاة والصوم في غير رمضان.

لم يفطن المعلم عباس الخوالقة إلى اتجاهه ناحية السُّرادق المزدان بالأنوار والرايات، في نهاية شارع السيالة، إلَّا حين علا صوت محمود عباس الخوالقة: نورت المكان ... تفضل يا مولانا!

عرفه من ظهره؛ العمامة التي طوَّقت الرأس، يتهدَّل من تحتها شعره، اختلط فيه السواد بالبياض، والجبَّة الرمادية يكاد لا يغيرها.

كأنما الرجل يحيا في الجامع، عُرف عنه عزوفه عن الزحام والمجالس، لا يغادر بيته إلَّا للجامع، لا يجول في الميدان أو في الشوارع والحواري المحيطة، لا يجالس الناس أو يتردَّد على البيوت أو ينزل الأسواق، صلته بالمصلِّين سماعهم له في صلاة الجمعة، وتمام الصفوف في الصلوات الخمس، والدروس التي تعقب صلاة المغرب، يثقون أن له بيتًا وأُسرة، وأنه يغادر الجامع ويأتي إليه، فلا يلحظ حتى دائمو التردُّد على الجامع، حتى أصحاب الدكاكين القريبة، متى يذهب ويجيء، وإن روى الحاج محمد صبرة أن الشيخ طه مسعود إذا خلا إلى أصدقاء، صار من ألين الناس جانبًا، وأشدِّهم مودةً وإقبالًا على الآخرين، كأنه إنسان آخر غير الذي يخشى الناس صرامة مجلسه، وكان حافظًا للنِّكات نفس حفظه للآيات والأحاديث والفتاوى والأحكام.

قيل إنه كان يتشدَّد في محاسبة عبد النبي شعرة، خادم الضريح، على إيرادات النذور، يحصل عليها كلها لنفسه، يحصل كذلك على ما يأتي به زوَّار الضريح من المدن والقرى المجاورة من شموع وأغنام وعجول. مع ذلك فإنه لم يكُن يرى في الموالد ما يفيد، رأيه أنها أسواق للبدع وإلهاء الناس عن أمور دينهم، وعاب على الذاكرين رفع أصواتهم في حلقات الذِّكر أمام الجامع.

الرجل ليس من أبناء بحري، ولا من أبناء الإسكندرية، قيل إنه من مواليد إيتاي البارود، غادر مدينته للتعلُّم في المعهد الدينيِّ الثانويِّ بالإسكندرية، فاستوطن المدينة، حتى بعد أن حصل على العالمية من الأزهر، وسَّط حمادة بك، فألحقته وزارة الأوقاف بوظيفة إمام في مسجد طاهر بك بشارع الحجاري، ثم عمل مدرسًا بالمعهد الديني، قبل أن تتيح له وساطة حمادة بك وظيفة الإمام بالمرسي أبو العباس.

لا يزور ولا يُزار. شقَّته الواسعة، في البيت المطلِّ على شارع سوق السمك القديم، لم يتعرف أحدٌ إلى أهلها، ولا ماذا تحوي، حتى الزبال وباعة الخبز واللبن ومحصِّل الكهرباء، يستقبلهم الشيخ بنفسه من وراء الباب الموارَب، وإن روى البعض أنه شاهد أكبر أبناء الشيخ — طالب في التوجيهية — يصحب أمَّه في عربة حانطور، مضت بهما إلى بيت قديم في نهاية السيالة، قبالة بيت المعلم عباس الخوالقة، وعادت العربة قبل أن يحلَّ الظلام.

أكدت روايةٌ ثانية، أن أشقَّاء الزوجة هُم سكان البيت الذي أمضت فيه — وأكبر أبنائها — نهارًا بأكمله، لم يأذن لها الشيخ بزيارتهم منذ الزواج، إلَّا حين أبلغه — في الجامع — رسولٌ باشتداد المرض على أمِّها، نفى عباس الخوالقة الواقعة من أساسها، قال إن سكان البيت المقابل زوجان من أصلٍ تركي، وأبناؤهما الثلاثة. وزوج الإمام فلاحةٌ من مدينته؛ إيتاي البارود.

كان أولاده الخمسة يذهبون إلى مدارسهم ويعودون، فلا يغادرون البيت، ولا يخالطون الأولاد، عبد النبي شعرة يشتري للبيت كل احتياجاته، أمَّا البنتان اللتان اكتفى الأب بتعليمهما الابتدائي، فقد ألزمهما البيت، رفض تزويجهما بمقدمات، مَن يريد الزواج يدفع المهر، يعقد قِرانه، فلا يرى زوجه إلَّا ليلة الزفاف، استهوى تشدُّده الحاج قنديل، فوضع الشرط نفسه أمام المتقدمين لخِطبة ابنته.

وافقت أُسر على شرط الشيخ، وإن أتبعت موافقتها بطلب الإذن لأهل الشابِّ بمشاهدة العروس، فرفض الشيخ.

– لن يكون بين الزوَّار رجال.

– ولو!
– رؤية العروس قبل الزواج أقرَّها الإسلام.
قال في لهجة باترة: ليس لدي بنات للزواج!

قبل أن يقضي على تردُّده ... هل ينادي عليه أو يحاول اللحاق به؟ كان زحام الصبية، أمام السرادق، قد أفسح له الطريق، ثم التصقت — من جديد — حدوة الزحام.

بعد أن أَمَّ المصلِّين في صلاة الظُّهر، التفت — بتلقائية — وراءه، يصافح، ويسأل، ويجيب، يخلي يده للصغار يقبِّلونها، يبدي ملاحظاتٍ لخدم الجامع، يتأمل كسوة الضريح، يأمر بلمِّ الكتب المتناثرة تحت الأعمدة، وصرف المستلقين بلا صلاة.

لاحظ وجود جابر برغوت خادم جامع ياقوت العرش بين المصلِّين، شغله السؤال عن بواعث تركه العمل في الجامع، قال من بعيد: لماذا تركت مسجدك؟

اقترب الرجل، بحيث يصل صوته الهامس: أريدك في أمرٍ مهم.

تردَّد لحظاتٍ، ثم أشار إلى حُجرته، على يسار الباب الرئيسي للجامع: اسبقني إلى هناك.

تداخلت كلمات الرجل، بترقبه المنشغل، أتته — في الصباح — رسالة وزارة الأوقاف، بالموعد الذي حدَّده الملك فاروق لزيارة الجامع، قال عبد الرحمن الصاوي: مولانا يحرص على أداء صلاة الجمعة في جوامع مختلفة في مدن مصر، لتتسع دائرة شهرته بالصلاح في نفوس الناس، يفد — قبل الموعد بأيام — وزراء ومسئولون، تُلغى الإجازات لنظافة الجامع، تُراعى إجراءات الأمن في الزوايا والأركان وخلف المنبر والأسطح والمئذنة والحُجرات المغلقة، يُخلى ميدان المساجد والدحديرة الخلفية، وتُغلق النوافذ والشرفات المطلَّة على الجامع، يقف العساكر بالعصيِّ والبنادق على النواصي وفوق الأسطح، وينتشر المخبرون بجلابيبهم وبلاطيهم الميري. هات من الآخر يا جابر، الأبوان لا يعرفان ما حدث، لكن الجارة التي روت لي أكدت أن أَمَّ محمود أرضعت الولد والبنت. زيارة الملك للجامع تُوجب الظهور أمامه بأفضل صورة. وما دخلي؟ لماذا لم ترِوِ الحكاية لإمامك؟ المعلم الخوالقة من مريديك وصديقك، اللهم احفظ البلاد ومليكها المفدَّى، تردِّد الجموع: آمين! يهشُّ — عقب الصلاة — ويبش، يأمر بخلعة؛ جبَّة كشمير ومكافأة مالية، ذلك ما حدث في الزيارتين السابقتين، قيل إنه أضاف إلى هبة الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع علي تمراز صرَّة مال، وقيل إنه أهدى إلى الشيخ شحاتة الوكيل إمام البوصيري ألف جنيه من الذهب، وساعة ذهبية،

وشالًا من الكشمير. أعمدة الضريح بهت لونها، والحصير تآكلت أطرافه، تفرش الوزارة مقدمة الجامع بالسجاد. ماذا يكون الأمر لو أن الملك حلا له التمشِّي في صحن الجامع؟ راقته النقوش والتهاويل والمقرنصات والأعمدة الرخامية؟ ليتها رضعة أو اثنتين، لكنها أرضعته لشهرٍ كامل.

كان الحفل — حتى الليلة السابقة — مهدَّدًا بالإلغاء، طلب العريس أن يكون الزفاف إفرنجيًّا، يدخل على عروسه، يغلقان بيتهما عليهما، يفضُّ بكارتها في اللحظة التي يريدها، ربما في الليلة نفسها أو بعد يومٍ أو يومين، أصرَّت أمُّ محمود أن يكون الزفاف بلديًّا؛ يدخل الشابُّ على البنت أمام نساء الأُسرتين، يلجأ إلى إصبعه، يلفُّه في المنديل الأبيض، إن خاف أو تردَّد، قامت البلانة بإتمام المهمَّة. شرف البنت يخرق عين مَن يفكر في النَّيل من سُمعتها. تلعلع الزغاريد، ويطوف الموكب أمام البيوت المتساندة المتصنتة: قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى ... بنت الأكابر شرفتنا الليلة.

طال الأخذ والرد، علت الآراء والتعقيبات، همست الأفواه بكلمة الطلاق، وإن لم تعلنها.

وافق المعلم عباس الخوالقة في النهاية — بكلماتٍ حاسمة — على ما أراده الشاب، هذا شأنه مع زوجته، فاتركوهما.

لطمت أمُّ محمود على صدرها: وشرف البنت؟

قال في هدوئه الحاسم: الأرياف يصرُّون على ذلك ... أمَّا نحن فمجتمع مدينة.

وهي تسبل عينيها: خواجات يعني!

خالط صوته غضب: تهذرين؟!

مصمصت: مَن يملك — بعد ذلك — أن يدوس له على طرف؟!

طقت عيناه بالشرر: جوازة أم خناقة؟!

قال الشيخ طه مسعود: كلامك خطير!

استطرد وهو يعطي انتباهه: قُله في عباراتٍ محدَّدة.

قال جابر برغوت: كما قلت لك يا مولانا ... مهجة بنت عباس الخوالقة ... يعقدون قِرانها مساء غدٍ على أخيها في الرَّضاعة.

أهمل الشيخ ترتيبات الزيارة، سلامة الدين تسبق ما عداها، هل ضلَّ الناس فانشغلوا بالدنيا عن الدين؟!

حدج الرجل بنظرة متوجسة: متأكد من روايتك؟

وهو يضغط على الكلمات: مثلما أتأكد أني جالس في حضرتك.

هل اقترب يوم الهول، فعلى الناس أن يرقبوا الدابة والمسيخ الدجال وظهور الشمس في المغرب؟ المعلم عباس الخوالقة من أفضل جُلسائه، فهل أغواه حبُّ المال، فنسي الدين، أو أنه لا يعلم فعلًا؟!

شقَّت له الأجساد المتراصَّة طريقًا بينها، حتى انتهى إلى باب البيت في نهاية السُّرادق.

صعد يسبقه الغضب، عبس للفرحة التي ملأت الوجوه، استقبلته الزغاريد وساعدا الخوالقة المفتوحان في أعلى السلم: لقدومكم فرحة أعزُّ من فرحة الزفاف!

كان عَقد القِران قد أوشك على نهايته، تناثر الملح على المدعوين، ترافقه الكلمات المنغمة: مالحة في عين اللي ما يصلي على النبي!

استأذن خميس شعبان أن يرفق بالاحتفال حفلًا بخِتان طفلته، توفيرًا للنفقات، رفض المعلِّم، أصرَّ أن يقتصر على عَقد القِران، نالت الفتاة من قرص البنات، وخطت أمُّ العروس برجليها فوق العروسين، وأفسحت المرأة بين ساقيها، فزحف العروسان من تحتها، ووضعت قطعة سكر تحت لسان ابنتها، فيكون كلامها مع زوجها حلوًا كالسكر، ثم وضعتها في كوب ماء، ارتشفه الشابُّ ليدوم الوفاق، وفتحت مقصًّا لمنع العين، وأعدَّت تحويطة، ورشَّت الملح والحمص والأرز والخميرة، تدخل في الأعين الشريرة، وتبعد الحسد، وإن قيل إن الدبلة سقطت من يد الفتاة أثناء كتابة العَقد، فتشاءمت أمُّها من ألَّا يتمَّ الزواج.

دخل في الموضوع بلا مقدمات، سأل، وأنكر، وشرح، وأفاض، اتجه إلى عباس الخوالقة بقسماتٍ مشتعلة: هذا الزواج باطل!

التفَّ الرجال — الذين أخلوا مقاعدهم — بالوجوم، بدوا متحيِّرين، لا يقوون على التدخُّل برأي، حتى المعلم عباس الخوالقة اكتفى بتحريك عينيه في غير اتجاه، وهو يعضُّ سبَّابته.

قال الخوالقة ليهدِّئه: اشرب القهوة أولًا.

وهو يدفع يده في الفراغ: يهمُّني أن أقول ما عندي.

اغتصب الخوالقة ابتسامة، وقال في محايلة: سأنصت جيدًا ... عيب ألَّا تشرب القهوة أولًا.

قذف بالقهوة في حلقه دفعةً واحدة، ثم وهو يمسح شفتَيه بظهر يده: أخوان في الرَّضاعة ... كيف يتزوجان؟!

تناهى صوتٌ هامسٌ بالقرب من النافذة المطلَّة على الشارع الخلفي: نسأل أمَّ محمود ... ربما الرواية كاذبة.

قال الإمام: قد تكذب لإتمام الزواج.

أسعف الخوالقة صوته: لن تخالف دينها يا مولانا!

دون أن يجاوز الهدوء: ناقصات عقل ودين!

واتت الجرأة أمَّ محمود: من حقِّنا أن نعرف المرأة المرضع.

قال عباس الخوالقة: أو نسأل صاحب الرواية.

قال الإمام في نبرةٍ باترة: الرواية صادقة ... وإذا تمَّ هذا الزواج فهو باطل.

طاف بعينين يغشاهما الغضب على الرجال الذين حاكوا المكان في صمته، ثم هبط السلالم، وقطع السُّرادق إلى نهايته، ومضى في اتجاه الميدان.

كانت الزغاريد قد سكتت، والفرقة الموسيقية أهملت آلاتها، وطلبت الأسطى مواهب شالًا تضعه على كتفيها.

ظلَّت اللمبات الملوَّنة — وحدها — مضاءة.

المأزق

أطلقت شهقةً لغياب الحقيبة من ركن الحُجرة الرمادية، كانت تدسُّ فيها ما تحصل عليه من البيوت، أو ما يعنُّ لها شراؤه من السوق؛ مفرش، ملاءة، طقم ملاعق أو سكاكين، حلل، أطباق …

لم تكُن تعدُّ نفسها للزواج، ولا تصوَّرت أنه سيتقدَّم لها مَن يعرض عليها الحياة كزوجة، لكنها حرصت أن تضيف إلى ما بداخل الحقيبة. لم تناقش نفسها: لماذا …؟ ولا إلى متى …؟ كلما حملت جديدًا، أعادت فتحها، قلَّبت فيما تحويه، تأملته ودقَّقت فيه، ربما فردته على أرض الحُجرة، تطيل النظر إليه، تسرح في اللاشيء، تلملم الأشياء داخل الحقيبة، تسندها إلى زاوية الحُجرة، وتمضي.

خلا الركن من الحقيبة، شكَّت أنها ربما نقلتها إلى حُجرة أخرى، ونسيت.

قلبت المكان، فص ملح وذاب! بظاهر كفيها مسحت الدموع التي انبثقت — في صمت — من عينيها، تساقطت على خدَّيها وذقنها وملاءتها.

البيت مهجور، يبدو كذلك أمام مَن تصحبهم إليه في الليل.

قال لها سيد وهو يتركها في بداية شارع السيالة: الأولاد يلعبون في الشارع، ربما دخلوا، فرأوا الحقيبة، وأخذوها.

اغتصبت ابتسامة لتطمينه: إنهم يخشون البيت … يتصورونه مسكونًا بالعفاريت!

قال في تنبُّه: قلت إنك لم تعودي تصحبين أحدًا إلى البيت.

وشى صوتها بغضب: تشكُّ فيما قلت؟!

فوَّت ملاحظتها: ربما أراد أحدهم مضايقتك، أو إيذاءك.

قالت: أنا لم أضايق أحدًا.

هتفت متذكرة: هل تكون المعلمة أنصاف؟

لَمَّا عرضت عليها المعلمة أنصاف أن تعمل في بيتها بكوم بكير، رفضت بلا تردُّد.

اعتادت الحياة في بحري، يعرفها الناس وتعرفهم، تنصت إلى العرض فتقبل أو ترفض، ربما تردَّدت على بيت، تعلم جيدًا أنها لن تحصل فيه على قيمة مضاجعتها ... لكن الحياة في كوم بكير؛ الوقوف أمام البيوت، أو في داخل الغرف، ورفع الساقين لِمَن يدفع، دون أن تلتقي به من قبل، وينصرف دون أن يعرف اسمها أو تعرف اسمه، والحصول على ترخيص من الحكومة، والتردُّد — كل أسبوع — على طبيب الصحة في قسم اللبان، يلغي التصريح إذا ثبت أنها أصيبت بمرضٍ جنسي، أو يجدِّده، تعود بالهتاف: سالمة يا سلامة ... رحنا وجينا بالسلامة!

لم تتصور أنها تفعل ذلك كله أو تحياه. بحري بيتها، تمشي في شوارعه وحواريه وأزقته، لا يشغلها حتى النظرات المتابعة، أو الملاحظات المستفزة.

رآها محمود عباس الخوالقة وهي ترتدي فستانًا يصل إلى ركبتيها، مشجرًا دون ملاءة، تلقفتها صيحته من أول شارع أبو وردة: ماذا فعلت بنفسك؟

أخفضت رأسها تتأمل الفستان: ماذا؟

قبَّل أطراف أصابعه: أنت مسخرة!

قالت محتجَّة: ألستُ مثل الستات؟!

وهو يشملها بنظرة إشفاق: وست الستات ... لكن الملاءة أليق بك.

أدركت أنها لكي تحيا في بحري، تمشي في أزقَّة السيالة والأنفوشي ورأس التين، فلا بد أن ترتدي مثل نساء الحي. مَن ترتدي مثل النساء الغريبات فهي غريبة، الساكنات في شوارع التتويج وإسماعيل صبري ورأس التين والحجاري وحسن عاصم وكورنيش الميناء الشرقية وغيرها، معروفات بالتأكيد أو بالتذكر، أمَّا هي فأنسية، يتعرف إليها الرجال بالملاءة التي تغطِّي جسمها، تسير في الشوارع، فلا تلفت انتباهًا ولا تساؤلًا.

غلبها اليأس، فوافقت على عرض المعلمة، ليلةً، فتظلُّ في كوم بكير، أو تعود إلى بحري، تصورت أنها ستهدأ عن التنقل بين البيوت.

ركبها — في ليالٍ متتالية — صعايدة وأفندية وبحارة وطلبة، أرهقها خلع الفستان وارتداؤه، فظلَّت بقميص النوم، لا وقت للأخذ والعطاء والمؤانسة، اختلطت الملامح، فبدت شخصية واحدة، اعتادت الضرب والقرص والخمش والشتم والملاعبة والعضَّ والتذلُّل واللُّعاب على كتفها العاري.

لم تكُن تناقش المصاحبين لها إلى داخل الحُجرة، تُسلم نفسها في آليَّة؛ تنزع الملاءة والفستان، تتمدَّد بالقميص الداخلي، يقبِّل جسدها، يهصره، يخمشه أحيانًا، يخترقها، يخلو ذهنها إلى ما لم تعدُّ للقائه، في جزر قريبة وبعيدة، تفيق على قومته وارتدائه ثيابه، لا تحادثه، تأخذ أجرها دون كلام، لا يشغلها ملامحه، ولا ماذا كان يرتدي، عانت من اللُّعاب المتخلف على كتفها العاري، يحرِّك نفسها، فتجري إلى الحمام، تُفرغ ما بجوفها.

قال لها صعيدي شحمي البدن: هل تكتفين بالبحلقة فيَّ؟

ودفع لها ثلاثة قروش: تحركي!

وصرخ في الدهشة المتسائلة في عينيها: اهتزي ... اغنجي ... اصرخي ... افعلي أيَّ شيء!

لما انتهى ظلَّ ساكنًا، فطنت إلى أن النوم غلبه، عندما فاجأها شخيرٌ متقطع.

تملصت منه، فاستيقظ.

حرصت، فلا تجعل ساعديها بين الذراعين حتى يسهل تملُّصها إذا غلب الرجل النوم.

تغيَّر عناقها لسيد منذ اليوم الذي صحبها فيه إلى حدائق الشلالات، غابت الجزر القريبة والبعيدة، وذابت فيه، تغالب شعورًا بالمتعة لم تكُن عرفته ولا اعتادته من قبل.

قالت له مداعبة: أعدت لي الإحساس بالرعشة إذا لمستني يد رجل!

قال ليهوِّن عليها: سأعوضك عن الحقيبة.

وهي تتلفَّت في تحيُّر: لكن ... لماذا سرقوها؟

ربت كتفها: أولاد الحرام كثيرون.

أسعدها زوال لهجة الشكِّ في كلامه، يثق فيها، وأنها هجرت سيرتها القديمة.

همست في عدم تصديق: هل يكون حمادة بك؟

هزَّ رأسه بالنفي: وما شأنه بك؟

روت له ما جرى بينها وبين الرجل عندما صحبته إلى داخل البيت المهجور، لم تُعدَّ نفسها لمضاجعته، ولا داخلتها شهوة، انتفض جسمها بمشاعر لم تحسَّ بها من قبل، زادت في الضربات، وشتمته بما كانت تخشى أن تواجه به الذين عرفتهم.

قالت وهي تداري ابتسامة بكفها: فعلت ما أرغبه، وليس ما طلبه!

يا بنت الأبالسة! حتى صاحب الفرن وصل إليك؟!

قال في حيرة: ربما يمهِّد الرجل لطردك من البيت.

لم تُخفِ قلقها: لماذا؟ ما أراده فعلته!

– تعرفين سرَّه.

سألت في قلقها: والحل؟

أغمض عينيه للحظاتٍ، ثم قال: قلت إن الحاج محمد الحلاق يعطف عليك.

وهي تخفض رأسها: إذا سرت أمامه، دخل الدكان.

في استغراب: لماذا؟

نقل إليها محمود عباس الخوالقة ما سمعه وأثاره، قال: نساء كوم بكير يتردَّدن على الطبيب ليوافق على استمرارهن في العمل، ويتردَّد الحاج محمد صبرة على أنسية، ليمنحها البركة!

أشفقت على الرجل، لم تكُن بينها وبينه علاقة من أيِّ نوع، خشيت أن تنسب الشائعة إليها، تُعلي من قيمتها، وتسيء إلى الرجل.

اعتادت المرور أمام دكانه، منذ صحبها محمود عباس الخوالقة إلى بحري، خلفت وراءها الخدمة في البيوت وأهلها في سحالي، إذا توجست من بيت شارع سيدي داوود، تنقلت بين الشُّقق، وحنيات السلالم، والكبائن في شاطئ الأنفوشي، وأمضت ليالي في قهوة كشك، صعبت على المعلم كشك، فأخلى لها تحت النصبة، حتى اطمأنت إلى البيت المهجور، أزمعت أن تقيم فيه، تدخله عندما يأتي الليل، وتغادره في طلوع الصباح.

يثق الحاج محمد صبرة أنه ليس في ثراء ولا مكانة حمادة بك والحاج قنديل وعباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوي والشيخ طه مسعود، كان يحرص أن يلتقي اسمه بهم، يفيد من اقترانه بأسماء الرجال المهمِّين في بحري، يعتزُّ بأنه أدَّى فريضة الحج من قبل أن يولد، حجَّت أمُّه قبل ولادته بأشهر، فأصبح حاجًّا دون أن يرى العالم، وكان يحرص على جلسة العصر أمام الدكان، وعلى درس المغرب.

كان لدكانه بابان؛ باب يمارس فيه الحلاقة وعلاج المرضى، والآخر يفضي إلى داخل بيته.

المصادفة وحدها هي التي دفعته للمزاوجة بين الحلاقة والطب؛ شكا الحاج قنديل من صداع ينتابه بين فترة وأخرى، وصف له مجموعة من الأعشاب، تُسحق وتُشرب على ريق الصباح، تذكَّر الوصفة من كتابٍ في مكتبة أبو العباس، أفلح العلاج، كرَّره في حالاتٍ أخرى لرجال آخرين.

أقبل على قراءة الكتب؛ كتاب ابن سينا، وكتاب الحاوي للرازي، وشرح أسماء العقاقير للقرطبي، والأغذية لابن البيطار، وتذكرة أولي الألباب والجامع العجاب لداوود الأنطاكي، أهمُّها كتاب منزوع الغلاف، في التعاويذ السحرية. يستمع إلى شكوى المريض، يتبيَّن مواطن الألم، يعود إلى الكتاب، يتأكد من تطابق التعويذة مع الحالة التي يعالجها، يكتب التعويذة في ورقة، يضع الورقة في إناء، يعطي الماء المتخلف للمريض، فيشفى بإذن الله.

وكان له ولعٌ بتركيب الأدوية، يتردَّد على سوق الترك، يشير عليه العطارون بوصفات للأمراض المختلفة، يصنع من خليطها معاجين للحالات التي تتردَّد على دكانه.

ملأ صيدلية الصالون بالمطهرات؛ الديتول والفنيك والكولونيا والقطن الطبي والمقصَّات المعقَّمة والشاش والمسكِّنات وحُقن المورفين. صفَّ على الأرفف أحقاق الصبر والمرِّ والحنظل والكمون والحلبة وقشر الرمان وشواشي الذرة والبقدونس والنعناع والكراوية والشيح والينسون والقرفة والدار صيني والمرارة، جمع له خميس شعبان الأصداف والقواقع من ظهر الترسة، جفَّفها، وطحنها، وأضاف إليها بعض الزيوت، صارت مرهمًا يستخدمه في علاج الجروح وسرعة التئامها، يستخدمه كذلك في حساسية الجلد، ويحمل في جيبه زجاجةً صغيرة من زيت الحبَّة السوداء، يثق أنها تشفي من كلِّ مرض.

تعلَّم الخِتان على يد عم جودة، الحلاق اليهودي أول السكة الجديدة، قصر عمليات الخِتان في المناسبات الدينية، يعتذر عنها في الأوقات الأخرى، وفي الأماكن البعيدة، يجريها في المولد النبوي، وعيد الهجرة، وذكرى الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وذكرى مولد المرسي.

اقتنى حقيبةً جلديةً صغيرةً تضمُّ قِطعًا من القطن، وزجاجة ميكروكروم، وأخرى للكحول، ولفافة شاش، وموسى مما يستعمله الحلاقون، ومقصَّات مختلفة الأحجام.

قال له حمادة بك: لا ينقصك إلَّا سمَّاعة الطبيب.

قال: إني أكتفي بأذني ... إنها سمَّاعة إلهية!

ذاع صيته في شفاء المربوطين والمسحورين، ومرضى الصداع والحمَّى والنزيف، ووجع الجنب، وعالج دود البطن والدوسنتاريا والبواسير، لجأ إلى الأعشاب والوصفات والرقى والأحجبة، ربما أضاف إلى علاج مرضاه آية الكرسي، يتلوها بطريقة منغمة.

روى أمين عزب أنه صحبه بنفسه إلى الطبيب الأرمني مردروس، جاره في الطابق الأول من البيت، تزايد الألم في بطنه، فغاب التصور أنه مجرَّد عارض، كشف عليه الطبيب ذو الجسد الممتلئ، والشعر الأبيض، والعينين الزرقاوين، والذقن المدبَّب.

سأل: هل حاولت علاج نفسك؟

قال أمين عزب: عالجني الحاج محمد.

وأشار إلى الرجل الطويل القامة، ذي البالطو الأبيض، والنظارة الطبية، والحقيبة، الواقف بجانبه.

قال الطبيب متشكِّكًا: ماذا فعل؟

عدَّد له محمد صبرة ما قدَّمه من عقاقير وأعشاب.

نقل الطبيب المسمَّيات في أجندة أمامه، أطال تأملها، ثم قال مؤكدًا بنتر أصابع يديه في الهواء: لن أصف لك أفضل مما وصفه لمرضك.

وأردف: داوم على العلاج!

زاد إلى مهنته ممارساتٍ مثل التدليك وكاسات الهواء والجراحات البسيطة؛ الفصد والحجامة والحمصة، فإذا أصيب شخص بتسمُّم، لجأ إلى تشريط جلده بشفرة الحلاقة، فيخرج الدم المسموم، ربما لجأ — لشفاء مريض — إلى كيِّه بالنار، يغلبه اليأس من العلاج، فيعلن: لَمَّا غضب لقمان الحكيم من الدواء … رماه في النار!

ثم أعلن رفضه لإجراء الجراحات، مهما كانت بسيطة، موسى الحلاق غدَّار ولا أمان له، قد تفيد قطعة الشبة في إيقاف النزيف، إن أخطأ الموسى في حلاقة الوجه. ماذا يفعل لو أخطأ الموسى موضع الفصد؟!

قيل إنه احتفظ في ضلفة الدولاب بكفنه، وزجاجة من ماء زمزم لغسله وتجهيزه، وأوصى بأن يصلَّى عليه — عند وفاته — في مسجد سيدي المسيري القريب من الدكان، والذي يصلِّي فيه معظم الأوقات.

قال سيد يناوشها: إذَن … الجئي إلى أبو العباس.

فاجأته بالقول: وقفت على مقامه حتى تعبت.

تعدَّدت زياراتها إلى ضريح السلطان، تتحدث إليه، تناجيه، تشكو إليه، تلتمس البركة، تطلب النصفة والشفاعة والمدد، كنست الضريح بملاءتها.

لما قهرها اليأس من أن يستجيب أبو العباس لها وينصفها، وضعت على ضريحه شمعةً بالمقلوب، تضايقه، فيتنبَّه لما تعانيه.

هتف سيد كالمتذكِّر: اذهبي إلى الشيخ أمين عزب.

أعادت الاسم: الشيخ أمين عزب …

سألت للتأكد: تاجر السمك؟

وهو يشيح بيده: كان ذلك من زمان ... هو الآن إمام زاوية خطاب.
أضاف بلهجةٍ محرِّضة: كلميه، فيطلب من حمادة بك أن يتركك في البيت.
وشى صوتها بالتشكُّك: وإذا رفض ...؟
قال في تأكيد: سيقبل ... يخشاه الجميع منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردوني.
وهي تلملم ملاءتها حول جسمها: سأحاول ... وإن كنت لا أطمئنُّ إلى النتيجة.
خبط سيد على رأسه في تذكر: أخيرًا ... اكتشفت عين حمادة بك في الفرن.
استطرد للتساؤل في ملامحها: حكاية الخبز الرجوع ...
قالت متنبهة: مَن؟
– فؤاد أبو شنب ... رئيس العمَّال.
صمتت للحظاتٍ، ثم قالت: هذا واجبه.
قال سيد: صحيح لو أنه لم يُهدِ الخبز الصابح لَمن يشاء!
– مسئوليته وهو حُر.
ثم وهي تربت صدره: أغناها الله بالحلال!
هزَّ رأسه مؤمِّنًا، تبيَّن المفارقة فيما قالت، ضمَّ شفتيه، يخفي البسمة المتسلِّلة.

الباب المغلق

أذهلها الخوف من الجلوس في حضرة الشيخ أمين عزب، اختارت الشوارع الجانبية؛ الكناني، والموازيني، وسراي محسن باشا.

ناوشها التردُّد حين واجهت ميدان الخمس فوانيس، باتساعه، والوجوه المطلَّة من النوافذ، والمارَّة، والجالسين على قهوة المهدي اللبان، وبقايا سوق العيد.

نفضت رأسها، فلا يشغلها التفكير أو يقهرها، أحكمت الملاءة حول جسمها، وتأكدت من وضع البرقع، ورفعت ذيل الملاءة بأصابع متوترة، واكتفت بغمغمةٍ لا تعني شيئًا، وهي تواجه سؤال عم خلف البواب، في دخولها البيت: رايحة فين؟

تابعت موعد انصرافه من زاوية خطاب، بعد صلاة العشاء، يمضي في شارع المسافرخانة، ومنه إلى الحجاري ورأس التين، يلقي السلام على روَّاد قهوة المهدي اللبان، ويصعد إلى بيته، يضيء حُجرته المطلَّة على الميناء الشرقية، ساعةً أو اثنتين، ثم يطفئ النور، فلا يضيئه ثانيةً إلَّا مع تسابيح الفجر.

سبقته إلى دخول الحُجرة سيدةٌ جاوزت الثلاثين، خمَّنت من بشرتها الورديَّة، والذؤابات الحمراء في شعرها، داخل الإيشارب الحرير، أنها أخته أو إحدى قريباته.

البيت يطلُّ على ثلاث جهات؛ من ناحية على شارع رأس التين، في امتداده إلى الموازيني والحجاري، وعلى شارع فرنسا إلى المنشية، أمَّا الواجهة فتطلُّ على شارع إسماعيل صبري، يتجه — في ناحية — إلى الميناء الشرقية، وأمَّا النوافذ والشرفات الخلفية فتطلُّ على الشارع الخلفي، يشغل جانبه — في الناصية — جامع علي تمراز، فبيتان من خمسة طوابق، ينتهيان إلى فرن التمرازية، واجهته على شارع الشوربجي، ضيِّق، طويل، يفضي — من جهة — إلى الموازيني، ويمثل — في الجهة المقابلة — توازيًا لشارع الميدان.

مع أن أفراد الأُسرة كانوا يمارسون العاديَّ والمألوف، ينصرفون إلى مدارسهم، ويعودون منها، ويطلُّون من النوافذ والشرفات، يتابعون مواكب الملك والطرق الصوفية وسوق العيد، وينادون على الباعة، وينشرون الغسيل، ويفتحون الراديو، فيصل صوته إلى بقيَّة شقق البيت، ويجلس الصغير طاهر — من العصر إلى قبل الغروب — على دكة عم خلف البواب ... مع ذلك فإنهم كانوا يميلون إلى العزلة، لا يتبادلون الأحاديث مع الجيران، ولا يشجِّعون التزاور في المناسبات، لم ترِ جارةٌ في البيت أنها شاهدت الشقَّة من الداخل، صعب على الأُسرة أن تندمج في البيئة التي تحيا معها، وصعب على البيئة أن تجتذبها، فاكتفى الجميع بالحدِّ الذي وضعه أمين عزب في علاقة أُسرته بجيرانها.

كانت له — في بيته — مكتبةٌ هائلة، صنع لها أرففًا تمتدُّ من الأرض إلى السقف، بسعة حُجرة كاملة، مبذولة لمَن يريد الاستعارة من أصدقائه، يتردَّدون عليه، يلتمسون عنده النصح والإرشاد والفتوى الصحيحة، مصادرها بطون الكتب. وكان يخلو إلى الكتابة والتأليف، عقب عودته من زاوية خطاب، ينظِّم الأوراق والأقلام والدواة والنشافة والكتب التي قد يحتاج الرجوع إليها، يسأل أهل البيت إن كانوا يحتاجونه في شيء، ثم يغلق عليه باب حُجرته، ينصرف إلى الكتابة حتى تغلبه الحاجة إلى النوم.

لم يعُد يغادر الزاوية إلَّا إلى البيت، عاش — منذ هجر حلقة السمك — على إيراد بيتٍ قديمٍ في شارع حداية، وعلى إيراد بلانس ترك أمره لعباس الخوالقة، يحدِّد موعد السفر، والجهة التي يقصدها، وأسعار السمك، يحاسبه على نسبة، ويوزِّع الباقي على الصيادين. سبب نعمته صحوُه — ذات فجر — على دقاتٍ عالية. فتح الباب، فطالعته بغلة العشر، اختارته دون العالمين، لتلقي أمامه بخرجٍ مملوءٍ ذهبًا.

قلَّ تردُّده على دروس أبو العباس، ثم لم يعُد يظهر — إلَّا نادرًا — في صحن الجامع، ولا أمام أبوابه، ولا عند المقام، فلما أظهر ضيقه من المنكرات التي تسلَّلت إلى حلقات الذِّكر، ومن بدع الطرق الصوفية، ران صمتٌ على مجلس الإمام، وإن غابت الاستجابة، وكان ذلك آخر عهده بجامع المرسي، فيما عدا مشاوير متباعدة لصلاة الجمعة.

وخرج — ذات ليلة — لجماعة كوَّنوا حلقة ذِكر، في الساحة المواجهة لزاوية خطاب، وتعالت مدائحهم الممهدة.

أمرهم أن يقيموا أذكارهم في مكان آخر، ثم أعلن — في خُطبة الجمعة التالية — رفضه للأعلام والرايات والطبول والدفوف والرقص والانجذاب والمواكب والتحلُّق حول شيوخ الجهل.

مع أن صديقيه عباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوي ظلَّا حريصَين على درس المغرب، فإنه لم يعُد يتردَّد عليه، إنما هي صلاة الجمعة، يؤدِّيها — أحيانًا — فلا يظلُّ في الجامع، حتى لزيارة مقام السلطان.

وحين استوقفته امرأة — عقب صلاة الجمعة — تحمل طفلًا مقيَّد الساقين، ترجوه أن يفكَّ القيد ليعينه على المشي، انتهرها في غضب: هذه خزعبلات يا امرأة ... اذهبي بالولد إلى الطبيب.

وأهمل ملاحظة عبد الرحمن الصاوي: أنت بهذا ترفض كرامات شيخك عرفة الأنصاري ومكاشفاته.

شاهده الكثيرون عندما جلس في الموضع الذي خُصِّص لجلوس الملك فاروق بجامع علي تمراز، أُعلن أن الملك سيصلِّي في الجامع، واصطفَّ العساكر في ميدان الخمس فوانيس، وتناثروا في سطح الجامع وفوق مئذنته، وفي أسطح البيوت المطلَّة على الميدان.

نبَّهه المعلم كشك إلى ما فعل، فظلَّ جالسًا: هذا بيت الله.

خالط نصيحة المعلم كشك إشفاق: أنا لم أطلب منك ترك الجامع ... اختر موضعًا آخر!

قال في إصرار: هذا هو الموضع الذي اخترته!

ظلَّ في المكان، يأبى أن يتركه، لولا رجاء الشيخ عبد الحفيظ — إمام الجامع — وكان يضمر، ويعلن — له احترامًا — فأخلى مكانه، وجلس بين المصلِّين.

أعلن سخطه لما عرض على الشيخ أحمد أبو دومة، صاحب كُتَّاب «ولي العهد» بشارع فرنسا، أن يقدِّم جرسًا هديةً للكُتَّاب، اعتذر الشيخ بأن النبي حذَّر من أن الجرس آلة الشيطان الموسيقية، والمكان الذي يوضع به جرس لا بدَّ أن يخلو من الملائكة.

سحب يده لمَّا همَّت بتقبيلها، وأصرَّ أن تجلس في الكرسيِّ المقابل، تحيط بها أرفف الكتب. وفي الجانب تطلُّ الشرفة على الأضواء المتناثرة في الميناء الشرقية، وتتناهى من قهوة فاروق القريبة أغنياتُ الفونوغراف، ونداءات الجرسونات، وصيحات الجالسين.

ذهب خوفها، في اللحظة التالية لجلوسه في المقعد الجلدي، وراء المكتب. سألها إن كانت من الإسكندرية أم من الوافدين إليها، لم يسألها عن اسمها ولا وظيفتها ولا أحوالها الأُسرية، هو — بالتأكيد — يعرف اسمها، وماذا تعمل، وإن أظهر عدم المعرفة.

دفعها — بنظرة حانية — إلى التحدث.

روت ما لم تكُن تتصور أنها ستَرويه لرجلٍ في مثل سنِّه ومكانته، لاحظت اختلاج لحيته الكستنائية، وارتعاش أهدابه، واحمرار أذنيه، ونظرات حرجٍ يرنو بها إلى المرأة الأخرى الساكنة، لكنه ظلَّ على هدوئه وصمته، يستحثُّها على المواصلة بصوتٍ رتيبٍ من فمه المغلق.

أعاد التأكد من انسدال العباءة فوق كتفيه، واعتدل في جِلسته بحيث واجهتها عيناه.

أخفضت رأسها للبريق الهادئ، الملتمع في العينين: أريد خدمة.

وهو يتأمل التفاف الملاءة حول جسمها: ماذا تطلبين؟

في لهفة: يتركني حمادة بك في البيت.

علا صوتُه بالدهشة: هذا بيته!

غالبت الارتباك: أعرف ... لكنه مهجور!

أغمض عينيه، كمَن أسلم نفسه لغفوةٍ، ثم قال: منذ لزمت زاوية خطاب، لم أعد ألتقي بالرجل، ولا بسواه.

همست بجرأة، لم تتوقعها في نفسها: يتحدثون عن طردك للرجل الغريب في قهوة الزردوني.

أطلق — من أنفه — ضحكة مبتورة: هل تريدين أن أضرب حمادة بك؟!

وأردف بلهجةٍ معتذرة: ما حدث في قهوة الزردوني لإعادة الأمان إلى الحي.

وقال للارتباك في ملامحها: سأحاول أن أزوره في مكتبه، أو في دكان الحاج محمد صبرة.

ثم في صوت يفعمه التساؤل: قيل إنه لم يعُد يحضُر دروس المغرب في أبو العباس.

مضت لحظات صمت، توزَّعت نظراته بين أنسية والمرأة الجالسة، ثم انتزع الكلمات: عليكِ أولًا أن تبتعدي عن هذه الـ...

وتشابكت أصابع يديه، وافترقت، وتشابكت، ثم سكت.

استقباله الطيب أذهب كل الوساوس من نفسها، فاجأها بالقول، فأطرقت رأسها.

علا صوتُه مستطردًا: وعليكِ أيضًا أن تبتعدي عن حياة الخفافيش في البيوت المهجورة.

أخذتها المفاجأة، فعصتها الكلمات.

قال وهو يتأمل الكتب المرصوصة: لماذا لا تعودين إلى الخدمة في البيوت؟ ذلك أرحم ... ويضمن لك المأوى.

أضاف في تشاغله بتأمل الكتب: أثق أن لك أُسرةً طيبة ... إن لم تكُن الخدمة في البيوت تروقك، عودي إليهم.

ولوَّن صوته بما يهب معنًى يقصده: أنتِ الآن كبيرة ... ولن يجبرك أحدٌ على فعل شيء!

تألَّقت عيناه — في اللحظة التالية — بمودَّةٍ واضحة، وهمست لنفسها وهي تميل في شارع سليم البشري: هل اكتفى بالبسملة والتكبير، قبل أن يجزَّ عنقي؟!

بعيدًا عن الشاطئ

تك تك ... تك تك ... تك.

ثم وهن صخب الموتور، سكنت الحركة في اللنش الصغير وما حوله، توقف تمامًا.

نظر — بتلقائية — حوله وهو يحاول معالجة العطل، على اليمين قلعة قايتباي، أمامه المراكب الصغيرة، في نهاية الميناء الشرقية يشاهد حركة العاملين فيها، وإن لم تصله أصواتها، وعلى اليسار — من بعيد — لسان السلسلة يمتدُّ إلى داخل البحر.

لم يكُن يعرف في اللنش إلَّا أن يدير المفتاح، فيدور المحرك. تابع الولد زعرب يفعل ذلك، ففعل مثله، عرض الولد أن يدلَّه على بقيَّة الخطوات، فرفض: إذا تعطل ... فسأدعوك للتصرف.

أردف وهو يعبِّر بيديه: أنا لا أبتعد عن الشاطئ كثيرًا.

همَّ زعرب بالمزيد من الشرح، فأسكته بإشارة من يده.

حرص — في البداية — ألَّا يجاوز المنطقة ما بين نهاية الميناء الشرقية إلى حيث يطلُّ على جامع البوصيري وميدان أبو العباس.

لم يكُن يعرف العوم أيضًا، أوامر أمِّه الصارمة لم تتح له مجرَّد الجلوس على شاطئ البحر، أو اللعب في الشارع الخلفي.

كان يتابع — من البر — سباق القوارب؛ القوارب الحمراء من السيالة، والخضراء من رأس التين. الفائز يسرق الريح من الآخرين، يركبه، يغطِّي قماش قاربه على القارب المجاور، يطلع فوق ريحه. كلما كان الشراع كبيرًا، امتلأ بالريح أكثر، وإن تعرض غير الفاهم للغرق. لا مجاديف، القيادة لماسك الدفَّة، الطريق المستقيمة خاطئة، كلما كان سنُّ المركب من أسفل ممدودًا وحادًّا ورفيعًا ومسحوبًا، كانت فرصة الفوز أكبر، المصيبة لو أن الصاري التفَّ بالشراع، يدور حول الشاطئ، ثم يتجه — بميل — إلى الجزيرة في مدى

الرؤية والعودة. مَن يعود أولًا هو الفائز، يحمل مع أصدقائه قاربه، يسيرون في الشوارع من رأس التين إلى مرسى القوارب والفلايك بالميناء الشرقية، يتجهون — في مظاهرة الفرح — إلى ميدان أبو العباس.

يغني الفائزون من السيالة:

قفة رملة وقفة طين على ولاد راس التين

ويغنون:

وديتوا عششكوا فين لما الملك شحطتكوا

ويغني الفائزون من رأس التين:

سيالة يا سيالة يا اللي ما فيكي رجالة

ويغنون:

عملوا حمام الأنفوشي علشان نسوان السيالة

أحسَّ بالوحدة، فداخله خوفٌ لم يقلِّل منه رؤية قلعة قايتباي القريبة، ومعهد الأحياء المائية، ولا أشرعة السفن الصغيرة، تتماوج في زاوية الميناء الشرقية، ولا الأصوات المتلاغطة البعيدة، لا يعرف — بالضبط — مصدرها، تمنى لو اقترب صوتٌ أو مرَّت فلوكة بالقرب منه، صعب أن تموت، فلا يدري بموتك ولا بمكانك أحد، تغرق، تنتهي، كأنك لم تكُن.

نادى بأعلى صوته، فتبدَّد النداء في الفراغ.

ارتفعت شمس الضحى، فسال العرق على وجهه، وأحسَّ بالتصاق الثياب.

الزورق جزيرة لا يراها أحد، يشاهد الجالسين في المراكب وعلى الشاطئ، وغازلي الشباك.

ينادي ويلوح بيده ويقفز، فلا يغادر السكون حوله مألوفه، حتى زوارق السواحل اختفت.

أبعد مكان سار إليه، خلف قلعة قايتباي.

السور المرتفع لمساكن السواحل، والهدوء أغراه بالتلميح، ضحك عباس الخوالقة من أعماقه: قُل لصاحبك. لا أقوى على القول إني أنا صاحبي، روى عن أنسية وشخص آخر، أسعفه الخيال برواية ظروفه، آله الإحساس بتفوق الخوالقة، وضآلته، يتكلم ببساطة، يناقش، ويسأل، ويعلق، ويدهش، ويسخر، يكتم في صدره الكلمات، يقلبها، فلا يتحدث إلَّا بما يحوم حول السر، ولا يكشفه، كره عباس الخوالقة، وكره نفسه.

اتخذ قرارًا مفاجئًا بالعودة، كره المكان أيضًا، فلم يذهب إليه ثانية.

أجهده السرُّ والتطلع إلى المشتهى، حتى جلوسه في صحن أبو العباس. يختار موقعه في مواجهة المقام للفرجة على اللواذ بالسلطان، الطواف حول الضريح، الهمسات بطلب النصفة والبرء والشفاعة والمدد، لا يحول عينيه، ربما وجد استجابة، فيخرج وراء الإيماءة إلى الدحديرة الخلفية، يروي ما يعانيه، ينفض عن نفسه ما شغل أعوام عمره.

أضناه السير في الحواري والأزقة، والتطلع في النوافذ والبلكونات، لا يكشف ما يعانيه بغزل أو مخاطبة، يكتفي — إذا كان المكان خاليًا — بالتلصُّص وإطالة النظر.

أهمل ما روي عن قاسم الغرياني أنه عرض على نبوية زوجة توفيق مكوجي الرجل، أن تضايق زوجها، فيطلقها، ويتزوجها هو، ثار المكوجي لأول بادرة، وألبسها جردل الماء، فعادت إلى طبيعتها المستكينة.

أقلقه أن المعلم أحمد الزردوني شاهده وهو ينتظر أنسية أمام بيت مهجور تطلُّ عليه نافذة شقَّته بشارع سيدي داوود. أطفأ الزردوني النور، وتطلع من خصاص الشيش، حتى قدمت أنسية، اصطحبها إلى داخل البيت، ومضى وقتٌ قبل أن تغادر أنسية البيت، ويلحق بها.

هل روى الزردوني ما رآه من النافذة المطلَّة على البيت المهجور؟ وهل فضفضت أنسية لسيد الفران؟

تعدَّدت زياراته إلى قهوة الزردوني، منذ اعتزم الترشيح للانتخابات. الصيادون — كما وعده الحاج قنديل — ورقته الرابحة بين مرشحي الأحزاب. لم يواجه إشارة ولا تلميحًا من المعلم الزردوني، ولا من رواد القهوة. رحَّبوا به، وبالمشاريب على حسابه، ووعدوه خيرًا.

سأل المعلم الزردوني: هل حدَّدت الحكومة موعد الانتخابات؟

– لا!

واستطرد بثقة العارف: لكن الأحوال السياسية تؤكد ضرورة إجراء انتخابات جديدة.

تأمل سيد الفران، وواجه عينيه.

بدا مرتبكًا للسرِّ الذي يعرف أنه يعرفه، يسرق الخبز الرجوع، ويعطيه لأنسية.

أنسية!

هل روت ما جرى في البيت المهجور؟ وهل ارتباك سيد — هذه المرَّة — لأنه يخشى افتضاح ما قد تكون أنسية ائتمنته عليه؟!

أجهده كتم السر، لَمَّح لزوجته في لحظات الاشتغال، رفضت بما لم يتوقعه: أنا زوجة ولست عشيقة!

قلبت شفتها، وأردفت: المفروض أني تزوجت رجلًا!

تذكَّر — بينه وبين نفسه — قول المعلم التميمي: المضاجعة الحلال لا لذة فيها!

زوَّجه أبوه قبل أن يبلغ العشرين، اجتذبت الأب دوامة المرض، فأراد أن يطمئنَّ عليه في حياته، اختار له نهى بنت سعيد النقيب، شغله النسب، ولم يُعنَ حتى بأن ترى زوجه الفتاة. وافق على شروط أبيها، حتى أعماله وأملاكه تنازل عنها — في حياته — شرطًا لقبول سعيد النقيب تزويج ابنته من وحيده، ساعد على قبول الشرط فشل حمادة في الدراسة، أنجب منها بنتين وولدًا، مع ذلك، شكا لأمِّه أن علاقته بزوجه أقرب إلى الجيرة، يتعاشران، ويتحادثان، وينعيان المشكلات، لكن الحائط الغلالة قائم، ويصعب إغفاله.

تنبَّه لصوت محرك يقترب.

حدق النظر فيما حوله؛ شابان يقودان لنشًا، مضى من وراء القلعة في اتجاه السلسلة، اختفى اللنش بعيدًا، قبل أن يصيح مناديًا.

أرهقه ابتعاد أمواجٍ يتمناها، أمواج عالية متوالية، تلطم وجهه، تعلو بجسمه، وتُسلمه إلى الأعماق، تقذف بملوحة الماء في فمه، تحيط به أسماكها فتدميه ... لكن السراب ظلَّ على سكونه في نهاية الأفق، لا حياة تجتذبه من دوامة الترقب والجنون والاشتعال. ترك لفؤاد أبو شنب إدارة الفرن وتحصيل الإيجارات، يسلمه الفراغ إلى الغابة الوحشية، ينصت إلى أصوات الزئير والخوار والفحيح، يشقيه غياب الومضات والإيماءات المحرِّضة، ردُّ الفعل المغاير لا يقوى على تحمله، يصخب فتقتله النظرات الشامتة، يصعب أن يجلس في قعدة العصر أو صلاة المغرب، ربما عصته خطواته عن السير، هدَّه التطلع إلى ما بعد الوقفة أمام ترام الرمل، وملاحقة النظرات لعابرات السبيل والنوافذ المفتوحة والملامح المجهدة حول مقام أبو العباس، واللف في الحواري والأزقة، وترقب المفاجأة.

أنقذته كلمات الحاج قنديل من الحصار القاسي، انفراجة الباب نبهته إلى دنيا لم يعرفها ولا تصورها، يشارك — بالمسايرة — في أحاديث السياسة، ويكتم الدهشة

لانفعالات التأييد والمعارضة، ويسكت — حتى يخطئ — عن التعقيب على ما ينقلونه من الراديو والصحف.

حمل صوته نبرة اعتذار: للسياسة رجالها!

قال الحاج قنديل: وهل أنجبتهم أمهاتهم ليدخلوا البرلمان؟!

ثم وهو يشيح بيده: توكل على الله!

وحدجه بنظرة مستغربة: لماذا ننتخب في كل مرَّة مرشَّحين من خارج بحري؟

ثم وهو يجري بباطن يده على مبسم الشيشة: أعدك بتأييد كل الصيادين إذا رشحت نفسك.

فاجأه العرض.

لم تكُن السياسة مما يدور له ببال، يشارك في الاجتماعات الحزبية وأحاديث السياسة، وفي مرافقة المرشحين، وإن رفض كل الدعوات للانضمام إلى أحد الأحزاب، يعرف أسماء سعد زغلول والنحاس وأحمد حسين وإسماعيل صدقي والنقراشي وأحمد ماهر وإبراهيم عبد الهادي وحافظ عفيفي، يعبِّر عن تعاطفه أو رفضه — من خلال الروايات — عمَّا يفعله الزعماء، هزَّته حادثة كوبري عباس، أمر النقراشي البوليس بفتح الكوبري، فغرق العشرات من الطلبة المتظاهرين، كره النقراشي من يومها، نسي حتى عبارته التي ردَّدتها جريدة «الأساس»: اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة. شارك — بالمشاهدة — في المظاهرات المتعاقبة لطلاب المعهد الديني، لا تشغله الهتافات، ولا ماذا يطلبون، إنما هو فضول المتابعة. وعندما يبدأ الصدام بين المتظاهرين والعساكر، يسبق الآخرين في اللواذ ببيت قريب، أو الفرار من شارعٍ جانبي.

أجفل لصيحاتٍ متآلفةٍ طارت فوقه، سرب من النوارس قطع نصف دائرة، ثم مضى بعيدًا.

أهدى قهوة الزردوني ثلاث نرجيلات؛ مبسم واحدة من العاج، والثانية من الكهرمان، والثالثة من الفضة. حرص على أداء كل الأوقات في أبو العباس، وفي جوامع الحيِّ الأخرى ومساجده وزواياه، ثم جرفته فكرة الترشيح للانتخابات، فلم يعُد يدري أين يذهب. قدَّم لزاوية خطاب منبرًا، وفرش أرضياتها بالحصير. أدرك موقع أمين عزب في نفوس أبناء الحي، منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردوني. انقطع الرجل عن درس المغرب في أبو العباس، وعن الجلسة أمام دكان الحاج محمد صبرة، تحدَّدت حياته بين الزاوية والبيت، فلا يكاد يلتقي إلَّا بالمتردِّدين عليه.

أشار عليه الحاج قنديل — لتأكيد صداقته، ولشراء الناخبين — أن يزوِّد الزاوية بما تحتاجه، ففعل، وإن التقى بأمين عزب، عقب صلاة العشاء، ليلةً، في أبو العباس، فلم يُشر إلى ما قدَّمه للزاوية.

الضحى أنسب الأوقات لعودة البلانسات والفلايك والدناجل والقوارب الصغيرة إلى الشاطئ، تلقى مراسيها، تعدُّ للرحلات التالية، لكن الشمس اقتربت من وسط السماء، وتموجت المرئيات بالأشعَّة القاسية، اختلط العرق والملح في ثيابه، فالتصقت بجسمه، ليس إلَّا الأفق، والأمواج الهادئة، والشمس، والسماء، وقلعة قايتباي، والقوارب الساكنة في المرساة.

داخله القلق؛ ماذا لو استطال الوقت دون أن يأتي مَن ينقذه؟!

أقنع نفسه بمحاولة السباحة إلى الشاطئ، مائة مترٍ أو أقل، نزعت العصبية كل ثيابه، لم يعد إلَّا سرواله الداخلي، أغمض عينيه، وقفز. يتذكر ما تعلَّمه، ويسبح، تلاشى التردُّد، المياه تحيط به، يضربها بساقه وذراعه، يحرص ألَّا يدخل الماء فمه أو أنفه، لا يسبح بطريقة محدَّدة تعلَّمها، ما يُهمِّه هو الوصول إلى الشاطئ. نزل إلى المياه، فلا بدَّ أن ينزل إلى الشاطئ.

أحسَّ بالمياه تجتذبه، تتسلَّل إلى فمه وأنفه وأذنيه، أحسَّ أنه يختنق، وأنه يموت.

صرخ بآخر ما عنده.

الحلقة

يا ربُّ يا خالق البرايا يا مَن تعالى على الشبيهِ
يا كاشف الضرِّ والبلايا يا مَن إلى الكرب أرتجيهِ
يا مَن يراني ولا أراه أهلِك عدوِّي ومَن يليهِ
يا مجزل الفضل والعطايا في كل وقتٍ لسائليهِ
يا منفذ الحكم والقضايا ولا اعتراض لنا عليه

الحلقة واسعة، مسوَّرة، مسقوفة، هجرها الصيادون والباعة إلى الرصيف، قبالة الباب الضخم، حتى باعة الترسة، وقفوا في الساحة العارية الملاصقة، يتأكدون — قبل الذبح — من وجود زبائن، يتقاسمون لحم الترسة قبل ذبحها، صُفَّت الطبالي على الأرض، وفوق الترابيزات الكبيرة، يتخلل الثلج أسماك الدنيس والقرموط والمرجان والمياس والبوري والبربون والإنش والوقار واللوت والشرغوش والكحلة والطوبارة والقاروص والموزة والسبيط وسمك موسى والكابوريا والجمبري.

ترامى نداء من بعيد، تصور أنه منادٍ يعلن عن وفاة أحد أبناء الحي.

لَمَّا اقتربت اللمة، عرف أنه إعلان عن ذبح ترسة، لا تُذبح إلَّا إذا بيعت — مقدَّمًا — بما يساوي وزنها، يرفض الناس شراء لحمها من الثلاجة، يخشون أن تكون ميتة، أُخليت عربة يد لترسة هائلة الحجم، رقدت على ظهرها، تداخلت — اتِّقاءً للخطر — فلا رأسٌ ولا عنقٌ ولا يدان ولا رجلان ولا ذنَب.

قال عبد الرحمن الصاوي للولد حنفي: لا تذبحها قبل أن تلمَّ الفلوس.

وتنهَّد: مشكلة الترسة أن لحمها لا بدَّ أن يُباع طازجًا.

لما اطمأنَّ حنفي إلى المبالغ المدفوعة، دسَّها في جيب المريلة الجلد، أمسك برأس الترسة الراقدة على ظهرها، وبسمل، وكبَّر، ثم ذبح زورها بسكينٍ كبيرة.

تدفَّق الدم من الشريان، فخنقه بأصابعه، فتحه وأغلقه لملء توالي الأكواب؛ عشرين كوبًا وأكثر، اندلقت في الأفواه دفعةً واحدة. يرون في دم الترسة شفاءً لمعظم الأمراض، يهب الصحة والعافية، ويلغي الدواء. انتفضت قِطَع اللحم، تقافزت، أعادتها الأيدي إلى موضعها في منتصف العربة، اختلطت بالدم المتدفِّق، تشبثت يدا حنفي بها حتى لا تفلت، كأنها حيوانات صغيرة، والرأس المفصول — في جردل — يحرِّك عينيه وفمه، اعتاد الناس ما رأوا، تشاغلوا بتلقي الدم الفوَّار في الأكواب، وارتشافه.

قال للشيخ يوسف بدوي: أفتى إمام أبو العباس بعدم جواز شرب دم الترسة.

قال يوسف بدوي: اجتهاد غير صحيح ... فدم الترسة حلال.

أردف موضحًا: الدم المحرَّم هو الدم المسفوح ... أسماك البحر تحلُّ ميتةً دون حاجة إلى ذبح، والترسة كلها، لحمها وشحمها ودمها، حلال ... لأن دمها ليس من نوع الدم المسفوح.

– مَن تريد؟

أَلِفوا سحنته الجديدة، بعد أن أطال ذقنه، أهمله دون تشذيب، تصاعدت الشعيرات إلى قرب عينيه.

قال لدياب أبو الفضل وهو يتجه إلى داخل الحلقة: الحاج قنديل ...

قعدة صغيرة في زاوية الحلقة، كرسيٌّ جلس عليه الحاج قنديل، أمامه طاولة عليها فنجان قهوة، ومبسم الشيشة الفضي، تناثر — في الأرض — قفف ومقاطف وغلقان وطسوت وحلل هائلة الحجم وألواح مغطَّاة بالثلج المجروش. يحرص على المحاسبة قبل العصر، الملائكة الموكلة بقسمة الأرزاق تختار بعد العصر لتجري قسمتها، مَن تراه على سعةٍ زادته، ومَن كان في ضيقٍ منحته بما يحفظ عليه حياته.

ميَّز الحاج بنظارته المقعَّرة، وشاربه المنسدل على فمه، وصوته المشروخ، وعباءته البُنِّية، تبدو فضفاضةً على جسمه الضئيل، والشيشة التي لا يؤذَن بدخولها الحلقة لسواه.

رفض عبد الرحمن الصاوي أن يعطيه شروةً ليسرح بها، هل تتصور أني أغضب الحاج قنديل؟

ثم وهو يزغده في كتفه: اذهب إليه، وصالحه.

اكتفى بوقفته أمام حلقة السمك فريشًا؛ يفرش على عربة صغيرة بضاعته من السمك البسارية والزريعة، فوقها مظلَّة تقي حرارة الشمس. اعتذر عباس الخوالقة وعبد الرحمن

الصاوي وبقية المعلمين والباعة، عن تزويده بما يحتاج إليه، نعوا همَّ الحاج قنديل، وتجنبوا إغضابه.

حكى للشيخ يوسف بدوي ما يعانيه، لمجرد التنفيس، لا توقُّعًا أن الشيخ ربما تكلم مع الحاج قنديل، ولا سعى له عند معلمين آخرين. علا صوتُه بكلماتٍ معتذرة، لمَّا رأى يد الشيخ تدخل جيب العباءة.

قال يوسف بدوي: الشيخ مسئول عن مريده، فرض عليه أن يشفق عليه من قوة أحواله، بما يكون جبرانًا لتقصير المريد.

كان مستراحًا لمريديه، كهفًا لهم، ملاذًا، خزانةً وحرزًا لأسرارهم، لم يستمع منه إلى غيبةٍ ولا نميمة، ولا ذكر مساوئ الآخرين أو أفشى أسرارهم، قلبه بحرٌ يبتلع الأسرار والجيَف، لا يعلن عمَّا بداخله.

رافقت هزَّة رأسه كلماته المعتذرة: إذا ساءت الأحوال، فلن ألجأ إلَّا إليك.

رغم الذقن الكثِّ الذي أحاط بوجه يوسف بدوي، فإن بريق عينيه كان يحدِّد سنَّه، بما لا يجاوز الخامسة والثلاثين، وإن جاوزت العلاقة بينهما صورة الشيخ والمريد، تبدو أقرب إلى علاقة الأب وابنه. يسأل علي الراكشي، ويشكو الهموم، ويتمنى الحل، ويوسف بدوي يجيد الإصغاء، ويضع للمشكلة إطارها، فتبدو واضحةً، والحلُّ ممكنًا.

ألحق أبو بكر ثاني أبناء علي الراكشي بمدرسة راتب باشا بشارع رأس التين، وتوسَّط عند المشرفة التركية في مدرسة مصر، الفتاة بصفر باشا. تنازلت عن مصاريف الدراسة لثالث أبنائه عثمان، وعندما أنجبت أمُّ العيال طفلةً خامسةً على أربعة أولاد، أهداه حلقًا صغيرًا من الذهب، وقال: البنات أحباب الله!

نصحه بأن يرسو على بر، السمك مهنته، صيادًا وبائعًا، المهن الطياري لا تؤكل عيشًا، صيد الطير له مواسم، مواسم السمك بامتداد العام، وهو مهنته التي عاشها عمره، يعرف أحوالها، ويعاشر المغموسين فيها، الوقفة وراء مساكن السواحل تضعه في جزيرة، لا يخالط الصيادين ولا الباعة، يعزل نفسه عن الجميع.

قال بنبرةٍ تقطر حزنًا: الحاج قنديل يرقص في مركبي.

حدجه يوسف بدوي بنظرة متسائلة: كيف إذَن يعامل الآخرين؟

صمت للحظةٍ كأنه يستجمع الكلمات: يوافقون على ما لا أوافق عليه.

قال الشيخ في صوته الهادئ: أفضل أن نناقش أنفسنا ... ربما في داخلنا عيب لم نفطن إليه.

علت كلماته بنرفزة: الحاج قنديل هو العيب نفسه!

دون أن يجاوز هدوءه: حاول أن تناقش نفسك ... راجعها ... ولن تخسر شيئًا!

قيل الكثير عن بداية الحاج قنديل، لم يختلف عن سواه من الصيادين؛ سنارة و«غلق» وتنقل بين الشواطئ، أو يشتري مما تأتي به الجرافات في حلقة السمك، هو الآن يزود البلانس بكل ما يحتاجه؛ الطعام والماء والشاي والسكر والجاز والبنزين وألواح الثلج، حتى السجاير يطمئنُّ الحاج إلى وجودها، قبل أن يبدأ البلانس رحلته، يطوف صبيانه على بيوت الصيادين أيام النوَّات، يُسلِّمون كل بيتٍ ما يحتاجه من المال والشاي والسكر والسجاير، يسجِّل لكل صيادٍ ما أخذه، يحاسبه عليه فيما بعد، يعود البلانس بعد أيام، ربما امتدَّت غيبته أسبوعًا أو أكثر، الحاج أول مَن يصعد إليه، ينتقي من الطبالي المرصوصة أفضل ما فيها، عشا المعلم، ثم يزن السمك بالأقة؛ كل أقتين بخمسة قروش، لا يُهمُّ النوع ولا الحجم، لا يأخذ إلَّا الطبلية، ثم يخصم ثمن البنزين والجاز والثلج، يرجئ ثمن الطعام والسجاير والمعسل إلى بداية الرحلة التالية، يدفع صبيانه في مزادات بيع السمك، يزايدون على الباعة السريحة، يضطرُّ الباعة إلى الشراء بأسعارٍ يحدِّدها الحاج قنديل.

لزم الراكشي موضعه بعيدًا عن مجلس الحاج، يتوسل كي يعطيه أكثر من الكمية المحدَّدة.

– إن عدت بسمكة واحدة دون بيع ... حاسبني عليها.

وهو يشيح بمبسم الشيشة: هل أعطيك من رزق الآخرين؟

قال علي الراكشي: الرزق بالله ... الخير كثير!

– عندما يتوزع هذا الخير على السماكين ... لن يزيد نصيبك على ما حصلت عليه.

علا صوتُه بالانفعال: كنت أحصل على نفس الكمية وأنا أبٌ لاثنين ... والآن أنا أبٌ لخمسة.

صرخ الحاج: تخمِّس عليَّ؟!

وضغط على المبسم بعصبية: هذه مسئوليتك.

قيل الكثير عن العمارات التي يملكها الرجل في الرمل وسموحة، وشركات نقل القمح من الجمرك إلى شون الورديان، والصفقات المشبوهة في عرض البحر، يتسلَّل الرجال — ليلًا — للعودة بها.

امتلك الحاج قنديل الحلقة ... فهل يمتلك البحر أيضًا؟!

يتفق الجميع أن مَن يرضى عنه الحاج قنديل يدخل الحلقة، يشتري ويبيع، مَن يغضب عليه لا يدخل الحلقة، ويواجه المضايقات خارجها.

كان يحرص على صداقة المعلمين، لا يأذن للخلافات أن تنفذ بينهم، إذا أفلح الصيادون والسماكون في تفتيت وحدتهم، يدفع الجميع الثمن، وإذا عُيِّن مأمور لقسم الجمرك، أو مفتش جديد للمباحث، أو مأمور لنقطة الأنفوشي، بادر بزيارته، لا يحمل هدايا، وإن لمح بما يأذن بانفراجة الباب. إذا ظلَّ الباب موصدًا، اكتفى بالزيارة، وعبارات المجاملة، والتحدث فيما يهبه الرجل انتباهه. حين تتبدى انفراجة الباب يبعث صبيانه بالهدايا لتوسيعها، وكان يعرف رجال المباحث معرفةً شخصية، حتى المخبرون كان يعرف أسماءهم، وأين يقيمون، وجلس مع غالبيتهم، وسهر، وأكل، وشرب، وقيل إنه خصَّص لمخبري المباحث رواتب شهرية لقاء إبلاغهم له بتحركات حملات الضبط قبل بدئها، وإذا دخل مكتب مسئول، صحب معه مَن يقدِّمه؛ الحاج قنديل، تتغير الاستجابة — بالتقديم — في عينَي المسئول وتصرفاته.

همَّ الراكشي بترك الحلقة، فلا يواجه الحاج قنديل في لحظة غضب.

لحقه صوت الحاج: ماذا تريد يا راكشي؟

لم يعُد أمامه إلَّا أن يشرح الحال، ويطلب النصفة.

– خدامك يا حاج.

أشاح الحاج بمبسم الشيشة: ثم ماذا؟ ماذا تريد؟

وهو يظهر المسكنة: يرفض الجميع تقديم ما أسرح به.

– وأنا أيضًا أرفض.

– لماذا؟

تقلقل الحاج في جلسته: لأني ظالم ... أليس هذا ما تدَّعيه؟!

اختار للرجل — في نفسه وبين الصيادين — اسمًا ثانيًا يعبِّر عن نظرته إليه، وما يحسُّ به نحوه. قنديل البحر لدغته بالسمِّ الهاري.

في نبرةٍ متذللة: أنا لم أجلس في القهوة منذ أشهر.

أطلق الحاج شخرةً من قاع حلقه: صار الشيطان درويشًا!

وعلا صوتُه: حتى لو توسَّط شيخك يوسف بدوي ... لن تأخذ بضاعتي.

بدل الانفعال ملامح الراكشي، ضايقه ذكر اسم شيخه فيما لا شأن له به، زفر في نفاد صبر: هذا حرام!

رمقه بنظرة مشتعلة: هل أخذت مالك؟ بضاعتي أبيعها لَمن أريد!

ودسَّ المبسم في شفتيه.

يا مريدي ... لا تضق بي!

قال أبو العباس: مَن أحبَّ الله، وأحبَّ الله فقط، تمَّت ولايته، والمحبُّ على الحقيقة لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته، فإن مَن ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، وقال: من أجل مواهب الله تعالى، الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله تعالى عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب، فمَن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنَّة، والاقتداء بالأئمة، فقد صحَّت ولايته لله، ولرسوله، وللمؤمنين، وقال: لو كشف عن نور المؤمن العاصي، لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟!

قال علي الراكشي: أنا عائد من الحلقة.

أردف للتساؤل في عينَي الشيخ يوسف بدوي: كنت أحاسب على شروة بعتها لحسابي.

قال يوسف بدوي: على التلميذ ألَّا يشتغل بشيء سوى الحقِّ سبحانه، حتى ينفعه التعليم.

واتته جرأة: ومن أين أطعم أولادي؟

قال الشيخ: لا أدعوك إلى هجر لقمة العيش ... ولكن يجب أن تمشي في طريق الله معظم خطواتك.

أذهله التغيُّر في ملامح الرجل، وفي نبرة صوته، وطريقة كلامه. لم يعُد ذلك الأب الذي يلقي برأسه على صدره. يسأله، ويناقشه، ويشكو له همَّه، استحال همًّا يطلُّ في العينين، وفي تقلُّصات الوجه، وارتعاشة اليدين، والنبرة الباترة.

ثم وهو يضرب الهواء بجانب يده: اذكر ربَّك امتثالًا ... لا لقصد دنيا!

وعلا صوتُه بنبرة محذِّرة: إذا كان قلبك جُنبًا، فانصرف!

تساءل بالدهشة: هل يجنب القلب؟!

قال الشيخ: جنابة القلب غفلته عن خالقه.

الحاج قنديل يحصي عليه أنفاسه في قهوة الزردوني، عيونه وآذانه ينقلون إليه ما يقوله، هل يكمل الشيخ الدائرة، فيحصي أنفاسه في الحياة كلها؟!

أشار الشيخ إلى صفَّي الرجال المنتظمين.

بدأ الذِّكر بقرار مطمئن، هادئ؛ هسيس النخيل، أو تلاحق أمواج البحر ساعات هدوئه، ثم انتقلت الحركة إلى مقامات أخرى أكثر ارتفاعًا، حتى مقام الأوج. حمي الوطيس، وبلغت حركة الذِّكر غايتها من القوة والسيطرة على الذاكرين، علت صيحات الوجد، وصرخات التعبير عن الأحوال.

تناغم صوت الشيخ بالصيحة الممدودة: الله!

سكنت الحركة، وتمطَّى الهدوء، واستقرَّ الذاكرون — لدقائق — استعدادًا لطبقةٍ ثانيةٍ من الهتاف، وترديد لفظ الجلالة.

قال الشيخ: أنت تمتثل لرأيي في الظاهر ... وهذا لا يكفي.

استطرد للعجب في وجهه: المهمُّ ألَّا تعترض في الباطن.

وتأمله بنظرةٍ مشفقة: أنت لن تستطيع أن تدرك دقائق الطريقة إلَّا بصحبة شيخٍ واحد.

قال علي الراكشي: ولكن سيدي الشاذلي أكَّد ضرورة أن يأخذ المريد من كل شيخٍ يقابله.

أشاح بيده في استياء: مَن قال إنه أكَّد ذلك؟ الشيخ الواحد للمريد أعون له على سلوك الطريق.

وفاجأه بالقول: عرفت أنك تتردَّد على دروس المغرب في أبو العباس.

قال الراكشي: هي محاولة للاستزادة من العلم.

لم يُخفِ الشيخ غضبه: من آداب المريد ألَّا يحضر مجلسًا لغير شيخه، ولا يسمع من سواه.

وتقلَّصت أصابعه على المسبحة: المريد الذي يذهب إلى غير أستاذه، كالابن الذي يذهب إلى غير أبيه.

وعلا صوتُه: حتى زيارتك لأولياء الله، لا تكون إلَّا بإذنٍ من شيخك.

عاب — للمرَّة الأولى أمامه — على الشيخ طه مسعود: إذا أخذ العالِم شيئًا من الدنيا، نقصت درجته عند الله، وإن كان كريمًا على الله، وشيخنا شغل بحظِّه وحظِّ غيره من الدنيا، فهو لا يشبع!

وعاب على الإمام اشتغاله بجمع الدنيا، وتزيين الملابس، وتكبير العمَّة، وتحسين المأكل والمسكن والمركب.

وخالط صوته عصبية: هذا رجل تعبُّده في الظاهر فقط.

كان قد تعلَّم آداب المريد مع شيخه؛ لا يأكل معه، ولا ينام معه، ولا يضحك بين يديه، ولا يرفع صوته عليه، ولا ينام في فِراشه أو قريبًا منه، ولا يجلس في موضع جلوسه، ولا يتكلم في مجلسه، ولو كلمة واحدة، حتى يستدعيه للكلام، ويلزم الوقار والأدب في مكانه، عرف أن عليه ألَّا يزور وليًّا ولا صالحًا من الحي، ولا من الإسكندرية كلها، إلَّا بإذنه، ولا يشارك في ذِكرٍ لا يكون هو شيخه، ولا يستمع إلى درسٍ لا يكون هو صاحبه، ولا إلى كلماتٍ — مهما بدت مهمَّة — إلَّا إذا صدرت من الشيخ، ومن فيض علمه.

أنساه ما قرأه وتعلَّمه؛ معاملة الشيخ لمريديه؛ يخاطبهم كأصدقاء، يستمع منهم، ويناقش مشكلاتهم الشخصية، وأذن بأن يتصلوا ببعض في غير حضوره، يتزاورون، ويتبادلون الكتب، ويتناقشون فيما قرأوا، وربما رافق أحدهم أخاه في تمشية على الكورنيش.

منذ أعلن توبته اقتلع كل جذور التعلُّق بما سوى الله، لم يشرئب للدنيا، ولا جنح نحوها، وصرف خاطره عن الاشتغال بالخلق، ملك نفسه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب، أعدَّ قلبه لحقائق الطريق التالية، اجتهد في ترحيل القلب من سلاسل شهواته، تطهيره من أخطائه وذنوبه وغفلته عن ربِّه، وحفظ الحواس وصيانتها من الشوائب الظاهرة والأمراض الباطنة، وتطهير الجوارح، وتصفية القلب، ومسك اللسان، فارق مرتادي حمام الأنفوشي والجالسين على قهوة الزردوني، أو قهوة مخيمخ، حتى لا يشوِّشوا على صحَّة عزمه، أصمَّ أذنيه عن كل ما حوله، وانطلق — بأفكاره وتصوراته — في الآفاق التي لا نهاية لها، استعدَّ للموت مستغفرًا من ذنوبه، مجتهدًا في طاعة الله، وكان يأخذ نفسه بالمحاسبة والمراقبة، فعرف المخاوف والمهالك والحدود.

أصبح الشيخ في خاطره — بتقضِّي الأشهر — قوة تهيمن على توجيهه وهدايته، كأنه قوة عليا، لها سيطرة على إرادته، كان — في لحظات انفعاله — يرطن بلغة، أو لهجة، لا يفهمها محدِّثه؛ هي خليط من الحروف المتداخلة، لا تعبِّر عن معنًى محدَّد، وإن تبدَّى في زعيقه، وتغيُّر لونه، وتواصل الكلمات، أنه قد غادر مألوف هدوئه، واحتضن الغضب.

فاجأه الشيخ بالقول: هل أنت على ثقةٍ من صحَّة مبايعتك؟

وأردف في لهجةٍ محذِّرة: أنت حين بايعتني شيخًا لك، بدأت السير في طريق الوراثة ... وهي الطريق الوحيدة إلى الفردوس.

وتلوَّن صوت الشيخ بإشفاق: لا تضايقك خشونتي ... فما ربَّى أقطابنا ومشايخنا الكبار إلَّا الخشن.

قال علي الراكشي: أيَّة خشونة لن تصل إلى قسوة عبارات الحاج قنديل وتصرفاته!

وقال للشيخ: كنت قد سألت عن حكم الذي يحارب الآخرين في أرزاقهم.

قال الشيخ: لا تصر على طلب الجواب ... اسأل واسكت!

– تهمُّني الإجابة.

وشى صوت الشيخ بضيق: من حقِّ شيخك أن يجيب وقتما شاء، أو لا يجيب.

تيقظت في نفسه الأسئلة، راعه قول الشيخ لمَّا شكا له قسوة الحاج قنديل: لا تشكُ لي ... أنت إذا شكوت لأحدٍ ما حلَّ بك، فكأنك تشكو الله، ولا ترضى بأحكامه.

استطرد كالمتنبِّه: الحزن — إن كنت لا تعلم — هو من مقامات التطهير، ومدرج من مدارج الوصول!

متى يتحقَّق ما يريده من علم الشيخ وأدبه؟ يفارق الشيخ واسطة الفيض وواسطة المدَّد، يسلك طريقه الخاص، يستغني بربِّه عن الشيخ، يبدأ سَيره — بمفرده — في الطريق الصوفي، يعرج إلى المقامات العالية، يتقرب إلى الذات الإلهية بمجاهداتٍ خاصة، تتعلق همَّته وقصده بذات الله، يهيم بجلاله، يهديه الله إلى سبيله الخاص، يفهم دقائق الأسرار، يمتلئ بالأنوار والمواهب، يتقلب في أحوال الحبِّ، والوله، والوجد، والهيام، والشرود، والذهول، والغيبة عن الوجود، يُكثر من الذِّكر حتى يحصل له الأنس، فلا يغفل قلبه، ويشهد الله دومًا بقلبه، أو يرى نفسه في حضرته، التجلي الإلهي في الأوتاد والنقباء والأبدال والأقطاب، يتطلع إلى سحائب الرحمة، ورياح الهداية، وأرض النفوس الطيبة، وأدوية القلوب المنوَّرة، وخلجان الأرواح المطهَّرة، يصبح من الصابرين الصادقين القانتين المستغفرين بالأسحار، ومن خواص أهل الحضرة، أهل المشاهدة والمكاشفة.

الترقِّي يأتي بصعود درجات القُرب، إعطاء الظَّهر لدركات البُعد والرسوم الخلفية، تشرق عليه — في النهاية — فيوض الأسماء الإلهية والصفات الحسنى، ويندرج الأزل في الأبد، فلا صباح ولا مساء، ولا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل، يبين ما كان مخفيًّا ومختلطًا من أهل الزمان.

متى يُحَزَّم بحزام المشيخة؟!

المرأة الجميلة ذات الذيل المتهدل

«لا تدع المرأة ذات الذيل المتهدِّل تخدع حواسَّك، أطلق شراعك مبتعدًا عن سطوتها، إنها خادمة الموت، دع إرادتك تتغلب على عواطفك، وهكذا تتغلب على الهلاك.»

كليمنت السكندري

أذهله التغيُّر الذي حدث في قلعة قايتباي، دخلها — من قبل — وارتقى سلالمها الضيقة، وأطلَّ من المزاغل والنوافذ الحجرية. تصطخب الأمواج تحتها، تصطدم بالصخور، بدت مُظلمة، موحشة، ومتهدِّمة، أبواب السرداب مفتوحة، فلا يدري إلى أين تنتهي.

أطلَّ على المدافع الصدئة، بجوارها كرات من الحديد، مُلقاة بلا انتظام، تسلق مئات السلَّمات، وصل إلى آخر سُلَّمة، تنتهي إلى شرفة حجرية، تطلُّ على البحر، الأمواج — من تحتها — ترتطم بالصخور، أسفل القلعة، النوَّة قاسية، والريح قوية — احتضن صدره بساعديه اتِّقاء برودتها الصاخبة — كنست قاع البحر، ومخلفات الشاطئ، فاستحالت الأمواج سوداء كالطين، والمياه تتدفق من الفتحات والمزاغل، فتملأ الغُرف.

في طفولته كان يرفض إلحاح الأولاد في الدخول إليها، يغريهم بابها الكبير المفتوح، وساحتها، والسراديب المظلمة، يتردَّد، ويرفض، يتذكر قصص الأشباح والعفاريت التي لا تفارق القلعة، تتخذها مساكن وملاعب، وتؤذي مَن يجاسر بالدخول، ربما أودعته أذاها، فيعاني حتى الموت.

شغلته حكاية الجدِّ السخاوي عن عروس بحر، ظهرت — واختفت — فجأةً. انشقت المياه عن جسمها البشري، السمكي، شعرها المنسدل على الكتفين، صبغته الشمس بلونٍ

ذهبي. ابتسمت، ولوَّحت بيدها، غاصت إلى الأعماق، جرى الخير في ذلك اليوم بما لم يصادفه من قبل، أكَّد الجدُّ السخاوي أن قلب عروس البحر يخفق للرجال، يستهويها صورة الرجل، وصوته، وحديثه ... لكنها تضاجع الريح، ولا تلد إلَّا الإناث، وطعامها ثمار بعينها، تنبت حيث تعيش.

قال الجدُّ السخاوي: مَن تظهر له ... لا بدَّ أن يكون قد فعل الخير في حياته.

استطرد وهو يزيح بقايا زعانف علقت بظهر يده: إذا اطمأنت إلى ما فعله من عملٍ طيب، تأخذه إلى قاع البحر، تدلُّه على ما فيه من ذهب وفضة ولؤلؤ ومعادن نفيسة.

ثم قال في لهجة تحذير: ليس كل عرائس البحر يضمرن نيَّاتٍ حسنة ... حتى التي قد تسحرك بجمال جسدها، وبغنائها، ربما تدفعك إلى مصيرٍ مؤلم، تخضع لتأثير جمالها، وعذوبة صوتها، فتهمل قيادة قاربك واتجاهه، حتى يرتطم بالصخور.

سأل حمودة هلول: هل يوجد رجال في دنيا عروس البحر؟

قال الجدُّ السخاوي: لكل مخلوقٍ زوجان ... ذكرٌ وأنثى ... ما عدا عرائس البحر.

قال محيي قبطان: قال صيادون وبحَّارة إنهم شاهدوا ذكَر البحر.

قال الجدُّ السخاوي: عروس البحر وحدها هى التي ظهرت — وتظهر — للناس، تجتذبك بجمال صوتها، فلا ترى الصخور حتى ترتطم بها، فتأخذك إلى الأعماق.

وهزَّ رأسه مؤكدًا: نعم ... بعض العرائس لا أكثر من قاتلات، عملهنَّ الوحيد إغراق الرجال، وسحب أجسامهم إلى القاع.

شغله الأمر.

أعاد ما رواه الجدُّ السخاوي على عم محجوب، حارس حمَّام الأنفوشي.

قال عم محجوب بلهجة مستخفَّة: مصيبتكم أنكم تصدِّقون السخاوي في كل ما يرويه.

أردف في ضيق: ما أعرفه من كثيرين أن العرائس ذكر وأنثى ... وأن الأنثى ربما تأخذ إنسيًّا إلى قاع البحر وتتزوجه.

ثم في لهفة: وتعطيه من كنوز البحر؟

قال عم محجوب، وهو يجري بإصبعين نحيلين على ذقنه الأبيضِ الكثِّ: لا بدَّ أولًا أن تنجب منه البنين والبنات ... ثم تأذن له في العودة.

في الأيام التالية ظلَّ على مقربة من الشاطئ، إذا خفتت الأصوات وحاصرته الوحدة، جدَّف بساعده، فلا يبتعد عن الشاطئ، وإذا كان بمفرده، غادر الماء بلا تردُّد، ثم ملك

عليه الأمر تفكيره، ناوشه في الصحوة والنوم، يبدو منفذًا للنزول إلى البحر، لا يقضي ليلةً أو ليلتين، وإنما يغيب في أعماقه العمر كله.

عروس البحر تقطن الجزيرة البعيدة، تستحمُّ في الشمس، تسدل شعرها، تمشِّطه، يتألق ثدياها العاريان، ولعينيها بريق يعمي مَن يطيل النظر إليهما، نصفها العلوي لامرأة، النصف السفلي، من الأرداف حتى نهاية الجسد، لسمكة لها ذيل، تخرج من الماء إلى منتصف جسمها، تنظر يمينًا وشمالًا، وإلى فوق، وفي تكسُّرات الأمواج. إذا أحسَّت باقتراب إنسان، غطست في البحر، ومن المستحيل صيدها بالحيلة، وإذا حاول أحد أن يقترب بمركبه من الحظيرة، أثارت الرياح والعواصف والأمواج، فأبعدتها عن طريق الجزيرة. الجزيرة عالمها الخاص، لا يصل إليها الناس، مَن يضلُّ طريقه بالقُرب منها، تناوشته الأسماك الهائلة في مياهها، ربما حملته إلى داخلها، فيأكله ناسها، لا يفرقون — في طعامهم — بين إنسٍ وحيوان.

أبرق الرعد، وصفَّرت الريح، وانهمر المطر كالسيل. عاد برأسه إلى مدخل القلعة. عروس الخير تظهر في أوقات العاصفة، تحمي نفسها من أطماع البشر بالعواصف الشديدة المصاحبة لها، اختار نوَّة «العوة» للتردُّد على القلعة، يطيل الجلوس لساعاتٍ حتى تجهده البرودة أو التعب.

لمح ضوءًا، فانتبه.

قال الجدُّ السخاوي: إنها تطفو وتغطس في ثانية، أو أقل.

تحدَّث عم محجوب عن حودة التيتي، عشقته جنيَّة من البحر؛ عروس لها ذيل، لم يهدأ لها بال حتى أغرته على البناء بها والغوص معها في أعماق البحر، أنجبا العديد من الأولاد والبنات، وإن لم يعُد إلى الأنفوشي — ولو للزيارة — من يومها، صار أبناؤه من أبناء البحر.

وروى عم محجوب عن سباعي سويلم، سحبت شبكته عروس البحر، فاجتذبته المرأة ذات الذيل، ظلَّ في أعماق البحر أعوامًا طويلة، ثم عاد إلى الأنفوشي في ليلة شتاء، أيام كان سلامة حجازي يؤذِّن للفجر في أبو العباس، محمَّلًا بأثقالٍ من الذهب والجواهر، ابتنى قصرًا في أرض خلاء بالقُرب من الحجاري — زال فيما بعدُ وأُقيمت مكانه مدرسة ابتدائية — وزاوية في وكالة الليمون — تهدَّمت فيما بعدُ وما تزال خرابة — وأمر بتوزيع الصدقات والزكاة على أبناء بحري من المعسرين، لزم قصره، فلم يغادره، وإن خصَّص قاعةً فسيحةً في الطابق الأول، لاستقبال ذوي الحاجات، حتى أدركه السرُّ الإلهي، في

العشر الأواخر من رمضان، سار في جنازته خَلقٌ كثير، صلَّوا على جثمانه في أبو العباس، وضاق الميدان الواسع — أمام الجامع — بمَن قدِموا لوداعه.

أعاد الحكاية: هل صحيح ما يُقال إن عروس البحر غابت بأحد الصيادين، وتزوجته في أعماق البحر؟

قال قاسم الغرياني: سمعنا الكثير ... حتى المرحوم جمعة العدوي قِيل إنه تزوج عروس بحر ... واستقرَّا في الأعماق!

وسرح في تذكُّر: حسان عبد الدايم شاهدها تنفض الماء من حولها، وتبدَّت مجلوَّة ساحرة على جانب البلانس. افتتن بها جمعة العدوي، وقذف بنفسه وراءها.

وسأل، يطمئنُّ على ما صدَّقه بالفعل: معقول أن عروس البحر تنجب أطفالًا؟

قال الجدُّ السخاوي: ألم تولد نفسها؟ ألم تكُن طفلة؟

هل تخرج له من البحر حورية، عروس؟ تأخذه، تهبط به إلى الأعماق، يتزوجان، ينجبان البنين والبنات، يعود — بعد أعوام — إلى الشاطئ، محمَّلًا بخيرات الأعماق من نفائس وجواهر، وما لا يخطر ببال.

لا خشية من الغوص في الماء، العروس تضع كحلًا سحريًّا في عينيه، فيستطيع — بحول الله — أن يعيش كالأسماك في أعماق البحر.

استهوته حكايات البلاد المسحورة من الحجر والنحاس ومدن المغناطيس، والأبواب المرصَّعة بالذهب والفضة، والقاعات المفروشة، والجدران المنقوشة، والأسقف المعقودة، وقوائم البيوت من الياقوت الأحمر واللؤلؤ والزبرجد الأحمر. جدرانها طوبة من ذهب، وطوبة من فضة، والأنهار تجري في قنواتٍ مرصَّعة بالدُّرر والجواهر الثمينة، تحيط بها غابات من المسك والعنبر والكافور، وكل الأشياء — ما عدا الطعام — من الذهب والياقوت والزمرُّد والكهرمان، لا تزاحم على العيش والكسب، ولا تفاوت بين كبيرٍ وصغير، ولا حاكم ومحكوم، كل رجالها طوال القدود، مسدلة شعورهم إلى ما بعد الكتفين، نساؤها فائقات الحُسن والجمال، صلاتهم ليست كصلاة البشر، فلا تكبير ولا ركوع ولا سجود، إنما هي ألحان وغناء تصفيق بالأكفِّ، وأصوات متناغمة كأنها السحر.

كان يحرص على التوضُّؤ وأداء ركعتين قبل أن يقف في موضعه، فالماء طاهر، لا يقبل إلَّا النفوس الطاهرة.

ترامت إليه أصوات غريبة، كأنها النداء البعيد أو الاستغاثة، واختلطت في أنفه روائح اليود والأعشاب والياسمين والقرنفل والقرفة والزنجبيل.

ميَّز في النداء اسمه.

غالب ارتجافةً للنداء المفاجئ، ثم أنصت من جديد.

علا الصوت، النداء، بوضوح أكثر، عرف أنه صوتها، وإن لم يكُن قد رآها، ولا استمع إليها من قبل.

تلفَّت حوله، يبحث عن مصدر النداء.

سكنت الأصوات، فيما عدا ارتطام الأمواج بجدران القلعة، وصوصوة فأرٍ يتقافز بين أحجار الشاطئ.

غلبه اليأس من عودة الصوت النداء، فعاد إلى البيت، وصورتها التي رسمها خياله تملأ نفسه.

صحَّت السيالة — ذات صباح — على اختفاء المليجي عطية.

مَن أعلن الخبر؟ وكيف تبيَّنه؟ ومتى حدث ما حدث؟

قِيل إن عروس البحر أغرقته، أغرته أن يتبعها إلى حيث تعيش تحت الماء. عالَمٌ كأنه الجنة، لن يندم على أنه فارق الأرض من أجله. الحياة سهلة، والجميع يأكلون من خيرات الأعماق، دون أن يشقيهم العمل وأذيَّة مشايخ الصيادين وعساكر السواحل، والظروف الصعبة، والجواهر الغالية بلا قيمة، لأنها الطريق التي يمشون فيها، والبيوت التي يسكنونها، والملل لا يعرفونه، ومجرَّد الضيق بالآخرين، أو مضايقتهم، عقابه الطرد إلى أحد الشواطئ البعيدة، يلاحقه تذكُّر ما فعل، حتى يدركه الكِبَر، أو الموت.

البحر

شاط بحذائه الكاوتش زلطةً صغيرة، تدحرجت على رصيف الكورنيش، حتى استقرَّت في كومة زبالة، ألقى السلام على العاملين في وِرَش المراكب، واخترق شارع الحجاري، إلى شارع حافظ باشا.

واجهه ميدان أبو العباس، باتساعه وزحامه والباعة السريحة والمستندين إلى الجدران، والداخلين والخارجين من الأبواب التي فُتحت على آخرها.

فكر أن يصعد إلى الميضة، يغسل وجهه، ويتمدَّد في الناحية البحرية. آخر مرَّة أيقظه عبد النبي شعرة، وشتمه، أَولى ظهره للجامع، ومضى.

لم يكُن في طريقه إلى مكانٍ بالذات، ولا حتى إلى قهوة الزردوني، لم يعُد يتردَّد عليها منذ اشترط المعلم أحمد الزردوني أن يدفع الحساب القديم، قبل أن يطلب «مشاريب» جديدة.

حتى قهوة البحَّارة بالمنشية، لم يعُد يتردَّد عليها. الروَّاد عمَّال بحرٍ أو بحَّارة، تركوا العمل في سفنهم، أو فُصلوا منها لأيِّ سبب. ليسوا جميعًا من الإسكندرية، ولا حتى من أولاد العرب. الرطانة بلغاتٍ ولهجاتٍ مختلفة. يأتون لأيام، ويغيبون لأشهر، والدفع حالًا، مَن يعجز يدفع له زملاؤه، تتغيَّر السِّحن بتغيُّر السُّفن الراحلة والوافدة، ربما طال التردُّد على القهوة حتى تصل السفينة المطلوبة.

هزَّ رأسه لكل العروض التي قُدِّمت إليه، بعيدًا عن البحر، حتى العروض التي قبِلها، ما لبث أن اعتذر عنها.

قال لقاسم الغرياني: أنا مثل النورس ... أبتعد عن البحر قليلًا ... لكنني لا أبتعد عنه إطلاقًا.

وعلا صوتُه بحماسةٍ مفاجئة: البحر هو أنا!

تذكَّر أنه أصبح مثل النورس، بالفعل، يكتفي بالتحليق فوق الشاطئ، لا يبتعد إلى أكثر من مدى البصر، وهو قد اكتفى بالوقوف على الشاطئ، وإن ركب فلوكة، فهو لا يجدِّف بها إلى أبعد من الجزيرة، في نهاية الأفق القريب.

كان يحبُّ التمشِّي في الميناء، تمضي قدماه إلى غير هدف، يتنقل بين الحاويات وبلوطات البضائع، يتأمل البواخر الضخمة في المرساة، اللون الأخضر الطافي فوق الماء، أصوات المحركات والروافع وصفير البواخر وصيحات النوارس وهتافات الشيالين، ينقلون أجولة القمح إلى سيارات النقل.

حاول أبوه أن يعيده إلى المدرسة، لكنه كان قد نزل البحر، ركب البلانس واللنش والفلوكة والدنجل، وغطس، واصطاد بالسنارة والجرافة والطراحة، فهرب من المدرسة إلى البحر، راق له العمل في بلانسات الحاج قنديل، رحلتين أو ثلاثًا، ثم غلبه طبعه، فردَّ إلى الحاج قنديل شتيمته، ضربه صبيان الحاج — من بينهم أصدقاء له — وطردوه من الحلقة، لم يجد بعدها مَن يقبله على مركبه، راعوا خاطر الحاج قنديل.

أعطاه علي الراكشي حصيلة صيد السنارة، وضعها في مشنَّة، ووقف مع «الفريشة» — أمام باب الحلقة — نادى على ما لديه بأنه ليس عفشة ولا زريعة، قلب صبيان الحاج قنديل فرشته، وطردوه بعيدًا.

اشتغل — لفترة — رفَّاصًا، يبحث عن الأشياء التي تسقط من الناس في مياه البحر، لسعه قنديل البحر، أخذ أيامًا حتى شُفي، ثم لم يعُد إلى وظيفة الرفَّاص.

تنقَّل بين المهن المتصلة بصيد الإسفنج حتى تعلَّمها جيدًا؛ دَوْس الإسفنج بالأقدام، أو عصره، لقتل الحيوان وطرد المادة الحية والسوائل اللزجة، تجميعه في كومات، وتغطيته بأكياسٍ مبلَّلة، انتظاره حتى يتحلَّل بأشعَّة الشمس، غسله بمياه البحر، حمله — مغسولًا — إلى البلانس الأم، يواصل — فوقه — عملية التنظيف، فيخلو الإسفنج من الحصى والرمال والأصداف والأعشاب، قصَّ الجذور والتفريعات والزوائد، صبغ الإسفنج باللون البنِّي.

حين تحدَّث الناس في الأنفوشي عن قيام بعثة آثارٍ أجنبيةٍ باستخراج أجزاء من تماثيل، وقِطَع من سفن رومانية قديمة، قبالة قلعة قايتباي، قرَّر أن يتعلَّم الغوص، ليبحث عن آثار جديدة في المنطقة، وعاش بأمل العثور على حطام سفينةٍ غارقة، اشترى القناع والزعانف وأنبوبة التنفس، أهمل القسوة في المعاملة كي يتعلَّم، تركوه بلا تعليم، حتى يخطئ، فلا يعود إلى الغوص، ويخلو لليونانيين جوُّ الصيد، ظلَّت الأدوات في موضعها، فنسي الأمر كله.

دخل قهوة مخيمخ — ذات أصيل — خواجة في نحو الخمسين، اكتفى بالنظر إلى الرجال الجالسين، وهمس بما لم يتبيَّنه أحدٌ في أذن صاحبه، ابن عرب، يرتدي بدلةً كاملة، وإن بدت عليه رقة الحال.

سأل الخواجة كل واحد عن تخصُّصه.

اختار ستةً، وربما سبعةً.

قال مختار زعبلة: أي حاجة!

قال المرافق، دون أن يعطي أذنه للخواجة: فهلوة المصريين ... أي حاجة!

أضاف وهو يتجه إلى داخل القهوة: نحن نطلب مِهنًا محدَّدة.

تمَّ الأمر في بساطة لم يتوقعها، قدَّم نفسه للخواجة وعرض خدماته، تأمله طويلًا، وهزَّ رأسه بالموافقة.

بدأ مسَّاحًا؛ يمسح أرضية الباخرة، ينظِّف الغُرف والقمرات ودورات المياه. لم يصدِّق البحَّارة أنه — في رحلته الأولى — لم يُفرغ ما بجوفه، لم يؤثِّر فيه دوار البحر، ولا ظهر عليه أنه شغل به، ثم لزم الإسكندرية عندما مرَّت الباخرة عليها، جرَّب العمل في أكثر من مهنة، فلم يُوفَّق. عاد إلى البحر، عمل في قسم الغلَّايات بباخرة يونانية أيضًا، كأنما اليونانيون قدره، تنقَّل بين المِهَن المختلفة؛ التبريد، النجارة، التزييت، التشحيم، الميكانيكا، الكهرباء، الترشيم، الخدمة في المطبخ، تقديم الطعام، وحين تلعب النوَّات بالباخرة، ويبين الخوف في الملامح، يتذكر ما رواه الجدُّ السخاوي عن الباخرة التي هبطت إلى أعماق البحر، أو قذفت بها الأمواج إلى جُزرٍ بعيدة، حيث الكنوز بلا حصرٍ من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، يتمنى أن تعيد النوَّات حكايات الجدِّ السخاوي، لا يصارح الرجال بما في نفسه، وهم يعانون حصار العاصفة.

سقط — يومًا — في منطقة البريدج، المنطقة الأمامية قُرب قمرة القبطان، لزم الفِراش — في الباخرة وفي البيت — ثلاثة أشهر، حتى استعاد عافيته، وإن لم يغِب الألم — فيما بعد — عن أسفل ظهره.

تردَّد على المستشفى الأميري، وعلى عيادات الأطباء، وجرَّب وصفاتٍ شعبيةً أشار بها الجدُّ السخاوي والحاج محمد الحلاق، لكن الألم ظلَّ يناوشه، فهو لا يقوى على الوقوف أو الجلوس، ويظلُّ غالب وقته ماشيًا.

وضع أمام دكان عزت ياسين، تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان، فاترينة صغيرة، متساوية الأضلاع، خلف فاترينة الزجاج صفوفٌ من البسكويت والشيكولاتة وعلب السجاير. مهنته الحقيقية كانت تغيير العملات الأجنبية للبحَّارة القادمين على البواخر

الأجنبية. سِحَن مختلفة، وعملات، يجيد تبيُّن الفارق بين كل عملة وأخرى. يندلق البحَّارة والسيَّاح من باب رقم ٦ إلى قلب المدينة، يعرضون استبدال عملات، يعرف بعضها، فيسهل استبدالها، أو يراجع أسعار العملات في جريدة البصير. مع أنه لا يعرف القراءة والكتابة، فإنه يجيد التحدُّث بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية، تعلَّمها من اختلاطه بالجاليات الأجنبية في البحر، وداخل المدينة، وبالبحَّارة الذين تقذف بهم البواخر الأجنبية في الميناء، وإن كان لا يعرف من بلاد العالم سوى إنجلترا التي تحتلُّنا قواتها، واليمن التي يأتي منها البُن.

شارك في السرقة من لوريات الجيش الإنجليزي، في سيرها بشوارع بحري، ومن البضائع المرصوصة في الميناء، يقذف بالمخطاف داخل البلوط، يجذبه بسرعة، بشدَّة، يتمزَّق، وتتناثر البضائع، تتخطَّفها أيدي الرجال قبل أن يفطن الحراس، يكرِّر العمل نفسه في بلوط آخر. في مغيب النهار يتقاسم الرجال حصيلة ما جمعوه.

قبض عليه — ذات ظهر — عساكر الميناء، اقتادوه إلى قسم الجمرك، قضى ليلتين، حتى توسَّط له حمادة بك، فغادر القسم، وإن لم يعُد مأذونًا له بدخول الدائرة الجمركية.

عايره قاسم الغرياني بأنه يستمع من ثروت زلابية ومن بحَّارة البواخر التجارية إلى حكايات البحر. يجلس في القهوة، يسند ظهره بيده، ويرويها، ينسبها لنفسه، أهمل المعايرة، وتواصلت أحاديثه في البحر والمراكب والبلانسات والعاصفة والنوَّة والأسماك والمدن البعيدة. صداقة البحر ليست ككل الصداقات، مَن يعمل في البحر يتسرب حبُّه إلى دمه، لا يقوى على الابتعاد عنه، يظلُّ في خاطره حتى يعود إليه.

قال: إذا خرجت السمكة من الماء ... ماذا يحدث لها؟

قال حمودة هلول: تموت!

قال مختار زعبلة: هكذا أنا ... ابتعادي عن البحر معناه الموت!

قال محيي قبطان: لكنك لم تمُت!

قال مختار زعبلة: هذا ما يبدو لك.

قال قاسم الغرياني: وأنا أسأل: ما سرُّ تلك الرائحة المقبضة؟!

فوَّت مختار المعنى: أنت في البحر سيِّد نفسك ... حرُّ نفسك ... لا تنعي همَّ الحاج قنديل، ولا مشايخ الصيادين، ولا الحكومة نفسها.

كان ينزل البحر في الشتاء، لا أحد يجازف بنفسه في تلك الأيام، يقلُّ عرض السمك، فتزيد أسعاره، يخوض المخاطر، ويعود بالسمك الغالي، سمَّاه الجدُّ السخاوي كلب البحر، فلم تكُن تشغله النوَّات، حتى التي تقف بالسُّفن خارج البوغاز.

التقى بمحمود عباس الخوالقة أمام مطحن شيمي بك.

دعاه إلى حفلة العاشرة صباحًا في سينما الأنفوشي، تابع المشاهد بلا اهتمام، فلم يأخذ باله من انتهاء الفيلم، حتى نبَّهه محمود.

سارا إلى نهاية الحجاري، ثم فارقه بلا هدف.

الشوارع الضيقة المليئة بالأوساخ، البيوت المتلاصقة ذات الأبواب التي تفوح منها رائحة البول، السلالم المتآكلة المظلمة، الشرفات المتقابلة تكاد تتماس، يسقط عليها ظلُّ البيوت أغلب النهار، ما عدا ساعة الظهيرة، عندما تتوسَّط الشمس النهار.

انحنى على قطعة خبزٍ بجوار الرصيف، قرَّبها من شفتيه، قبَّلها، وأعادها لصق الرصيف تمامًا، فلا تدوسها قدم.

اقتحمت أنفه رائحة بُنٍّ محترق، تلفَّت — بتلقائية — بحثًا عن المطحنة القريبة.

غاب عن باله العشرات القادمون من الناحية الخلفية للمرسي أبو العباس؛ الموازيني والحجاري وأبو وردة وشارع الميدان. غالبيتهم يرتدون البنطلونات والقمصان، والأحذية أيضًا، وإن تناثر بينهم مَن يرتدون الجلابيب وحُفاة الأقدام. الشابُّ الذي حملوه على أكتافهم يهتف، ويردِّدون وراءه، ينفي أن يكونوا من الطرق الصوفية، لا بيارق ولا أعلام ولا ألعاب حُواة ولا أناشيد، يبدو تمازُج الأصوات — في لحظةٍ واحدة — كأنه الرعد.

اقتربوا.

صرخ الشابُّ بهتافه، وردَّده المحتشدون حوله.

عرف مختار أنها مظاهرة، ليست غريبة عنه، ولا مفاجئة، يلتقي بها في شوارع الإسكندرية، عشرات أو مئات يهتفون ضدَّ الإنجليز والأمريكان والملك والسراي والزعماء السياسيين، يتابعها — بعينٍ متشوِّفة — حتى تبتعد، ربما ثارت حولها المناقشات في قهوة مخيمخ، أو قهوة الزردوني.

لم يدرِ كيف أصبح واحدًا من المتظاهرين، ولا متى بدأ يردِّد الهتافات وراء الشاب، لكنه — في لحظةٍ ما — أحسَّ أنه أصبح واحدًا من المتظاهرين، كأنه بدأ معهم، وينتهي إلى حيث ينتهون. لا صلة له بما قبل ولا بعد، جزء من قطعة نسيج يصعب تمزيقها.

لم يلحظ البداية؛ مَن بدأ التحطيم؟ لكنه أصبح — وسط المتظاهرين — مثل الموجة التالية، تسبقها موجات، تليها موجات أخرى.

انهال الطوب — فجأةً — على دكان الشبكشي بشارع الحجاري. حدَّق تحت قدميه، والتقط طوبة، انتزع شجرةً صغيرةً من الأرض وإطارها الحديدي، كسر الفاترينة بضربةٍ واحدة.

لفَّه غضب، فنسي حتى المتظاهرين حوله، لم يعُد تشغله الهتافات ولا الصخب المتلاغط، وعصاه تحطم كل ما أمامها، تشتعل في داخله نيران، تملي عليه تصرفاته، فهو لا يدري أين، ولا لماذا، تتجه عصاه، لم يلحظ حتى الخدوش التي أحدثها في وجهه وعنقه ويديه، شظايا الزجاج.

– بوليس!

أيقظته الصرخة.

تهاوت العصا — بتلقائية — من يده.

بدا اللوري — أول شارع إسماعيل صبري — محمَّلًا بالعساكر. نزلوا إلى الطريق، أوقفوا الترام، وشكَّلوا حائطًا من صفَّين بين قهوة فاروق وحلواني «زهرة القرنفل» في الناحية الأخرى من الشارع، أعطوا ظهورهم للبحر، وواجهوا المتظاهرين.

تردَّدت المظاهرة في سَيرها، واهتزَّت الأكتاف بالشابِّ الذي يهتف، وخفتت الهتافات وتداخلت، فلم تعبِّر عن معنًى محدَّد.

اقترب العساكر، خلفوا شارع التتويج وراءهم، وتقدَّموا في شارع إسماعيل صبري، تفرَّقت المظاهرة تمامًا، وأنزل المتظاهرون الشابَّ، تحولت إلى ما يشبه الهمهمات الفردية، وإن داخَلها غضبٌ واضح.

اندفع العساكر بالعصيِّ، فتوزَّع المتظاهرون، اندفعوا إلى البيوت والدكاكين القريبة، وإلى شوارع فرنسا ورأس التين والبوصيري وسراي محسن باشا، والحواري المتفرعة.

داخَله خوف، فجرى.

لم يتنبَّه إلى قدميه؛ أين تقودانه؟

جرى، وجرى، وجرى، حتى اطمأنَّ إلى غياب المتظاهرين والعساكر، بدت الحياة في نهاية شارع أبو وردة على غير الصورة التي كان فيها.

هدأت نفسه، فلم يعُد يتلفَّت وراءه.

عبر قضبان الترام إلى الكورنيش، نزل إلى شاطئ الأنفوشي، سار في الرمال — بصعوبة — إلى قاربٍ صغير، غاب معظمه في الرمال، وغطَّت الطحالب والأعشاب جوانبه.

صعد فوق القارب، واستقرَّ في مجلسه، أسند صُدغه إلى قبضة يده، تطلَّع إلى نورسةٍ حلَّقت عاليًا، ثم هبطت، حامت في دائرةٍ فوق المياه، كأنها ترقب صيدًا، ثم انقضت في سرعةٍ خاطفةٍ على سمكة تلتقط أكلًا من سطح الماء، وطارت بعيدًا.

أطال النظر في نهاية الأفق.

ارتحال

مع أنه كان يعرف بحري؛ ميادينه وشوارعه وحاراته وأزقَّته وبيوته وقهاويه، وسراي رأس التين وقلعة قايتباي والحلقة والجمرك والميناء والبحر والمساجد والموالد وحلقات الذِّكر، فإنه كان قليل التردُّد على أحياء الإسكندرية الأخرى.

بدا له سوق الجمعة في غير الصورة التي رآها في زيارته الأولى منذ سنوات بعيدة؛ الأثاث القديم، والملابس المستعملة، والنداءات، والمساومات، والصفقات الهامسة.

تاه في الزحام الصاخب.

سأل شيخًا يعرض إبريقًا من الفضة، أفسح لنفسه مكانًا على الرصيف، بالقُرب من المرأة. كانت تعيد ترتيب العُدَّة على قفص من الجريد. في حوالي الستِّين، بشرة داكنة السُّمرة، لها عينان بنِّيتان تطلُّ منهما طيبةٌ واضحة، وشفتان ممتلئتان يعلوهما شاربٌ خفيف، وأنفٌ أفطس مخزوم بقُرطٍ ذهبيٍّ مستدير، وصُدغان متهدِّلان، ترتدي جلبابًا حائل اللون، تآكل طرفا كُمَّيه.

أبدى إعجابه للرسومات الموشومة على صدر البحَّار الأجنبيِّ في جلسته على قهوة مخيمخ.

قال قاسم الغرياني لنظرته المحدِّقة: أردت أن أرسم سمكتين وثعبانًا، فحذَّرني الجدُّ السخاوي ... قال إن الوشم حرام.

قال مختار زعبلة: ولماذا السمكتان والثعبان؟

قال الغرياني: السمكة دليل الرخاء والخير والذرِّية الصالحة، أمَّا رسم الثعبان فليجنِّبك الله شروره!

علا صوتُ مختار بالدهشة: كيف تنجب الذرِّية الصالحة دون أن تتزوج؟!

عرض الأمر على أمين عزب.

نطقت ملامح الرجل بانزعاج: أذكِّرك بحديث الرسول: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتفلِّجات للحُسن، المغيِّرات خَلق الله.

قال مختار زعبلة: أنا رجل يا مولانا، ولست امرأة!

عرف — للمرَّة الأولى — موضع الوشَّامين في سوق الجمعة، دلَّه قاسم الغرياني، فلا يُسلم جسمه لعابرات الطريق. الثابت في مكانه تستطيع أن تعود إليه وتحاسبه، أمَّا العابر فهو قد يؤذيك ويختفي.

قالت المرأة: هل تريد عصفورة؟

بدا من لهجتها أنها صعيدية، أو من النوبة، حدجها بنظرة متأملة.

في حوالي الستِّين، لها بشرة داكنة السُّمرة، وعينان بنِّيتان تطلُّ منهما طيبةٌ واضحة، وشفتان ممتلئتان يعلوهما شارب خفيف، وأنفٌ أفطس مخزوم بقُرطٍ ذهبيٍّ مستدير، ترتدي جلبابًا حائل اللون، تآكل طرفا كُمَّيه، ولفَّت رأسها بمنديل بأوية حوافه من الترتر اللامع.

– ماذا تظنِّينني؟

وهي تمسح جبهتها بجانب يدها، ثم تنتر العرق، حقيقة أو وهمًا: تريد نخلةً إذَن؟

كرَّر الكلمة: نخلة؟

قالت المرأة: إنها تدلُّ على الخصوبة والوفرة.

لاحظ أنها ضغطت على الحروف الأخيرة في الكلمات، كأنها تؤكد المعنى.

أغمض عينيه، وهزَّ رأسه: قد تصحُّ لفلاح ... وأنا من بحري.

ثم وهو يُسلمها ساعده: ارسمي سمكة.

علا حاجبا المرأة بالدهشة: دع وشم السمكة للنساء.

– السمكة فألٌ حسن.

قالت في دهشتها: لكنها ترمز لكثرة النَّسل ... وهو ما تطلبه النساء.

– أنا أحبُّ الحياة في البحر ... مثل السمك.

ابتسم لمَّا تذكَّر ما رواه محيي قبطان، طلبت زوجة حمودة هلول الطلاق ليلة زفافها، فاجأها بوشمٍ لاسم فتاة — لا تعرفها — على صدره، أصرَّت، فلم تُسلمه ساقيها إلَّا بعد أن أزال الاسم من صدره، ولحق الموضع تشوُّه.

تناولت المرأة من الصندوق الخشبي، فوق القفص، ثلاث إبرٍ صغيرة، يشدُّها إلى بعضها خيطٌ رفيع. غمست الإبر الثلاث في إناء من الكحل الأسود، اختلط به بخار سمنٍ ذائب، وبخار فتيلةٍ محترقة.

مسحت بظاهر كفِّها على ساعده، ثم ضربت الساعد — بسرعة — بالإبر الثلاث.

– لا تتحرك ... حتى لا يفسد الوشم.

انتزع الكلمات: ألم فظيع!

شوَّحت بيدها: مهارتي يشهد بها الجميع!

لحقه صوت المرأة وهو ينصرف: لا تطمس الجزء الموشوم حتى لا يتورم!

قال له الجدُّ السخاوي في قهوة الزردوني، وهو يتأمل ساعده الموشوم: ماذا فعلت يا حمار؟

في تأمله للوشم: حُبي للبحر رسمته على ساعدي!

قال السخاوي: أنت بهذا تغيِّر ما صنعه الله.

– هذا مجرَّد وشم سمكة.

علا صوتُ السخاوي بنبرةٍ متوعدة: كل وخزة من هذه الوخزات، ستكون يوم القيامة مسمارًا مثبَّتًا في مكان الوشم نفسه!

الظل

مال به الحانطور إلى حلقة السمك، تنبَّه — قبلها — لاقترابه من المكان المنشود، بعشرات المراكب الصغيرة في الميناء الشرقية، والغزْل المُلقى على امتداد الشاطئ، وكومات الفلين، والأسماك الميتة المتناثرة، والطريق المفضي إلى قلعة قايتباي ومعهد الأحياء المائية، ونقطة الأنفوشي.

أهمل الأفكار التي ظلَّت تناوشه، منذ واجهته سكينة بالكلمات القاسية، شغله السؤال: ماذا لو لم يعرفني الرجل؟

في اقترابه من حلقة السمك، هدَّأ الحانطور من سرعته، ثم توقف تمامًا قبالة الباب المغلق.

ثنى إليه الحوذي ملامح متسائلة: الشارع متفرع من السيالة.

– نعم.

لوح بالكرباج ناحية اليسار: هذا الشارع يؤدِّي إلى السيالة.

لم يكَد يهبط أرض الطريق، حتى تماوجت — في داخله — مشاعر مبهَمة، تختلف عن التي أملت عليه قراره.

غادر البيت في بولاق الدكرور إلى المصلحة في الدواوين، لكنه ترك الأوتوبيس في محطته النهائية بباب الحديد، واتجه — منقادًا للفكرة التي التصقت بلحمه — إلى شُبَّاك التذاكر، ألقى بنفسه في السيل المتدافع داخل القطار، حاول قراءة جريدة، بادل المحيطين به أحاديثهم، تطلَّع إلى الحقول والسيارات العابرة والمارة، تشاغل — بعفوية — بإحصاء أعمدة التليفونات، أغفى قليلًا ... لكن الفكرة عشَّشت في رأسه، قلب الأمر تمامًا، وتوصَّل إلى القرار؛ يذهب إلى الرجل الغائب، يسأله في الدعوى الظالمة — لا بد أن تكون كذلك —

يصحب الرجل في العودة، يعلن أمام سكينة — والجميع — سخف الادِّعاء، ويواجههم بالحقيقة.

لما جاوز القطار سيدي جابر، استدعى إلى الذاكرة صورة الشارع الضيِّق المتعرِّج، على ناصيته قهوة صغيرة، وعلى الناصية المقابلة دكان علافة، والبيت ذي الطابقين، والنداءات، والأحاديث المتلاغطة، تتصاعد من القهوة، ومن شارع السيالة.

حاول أن يضيف إلى الصورة بعض الملامح، ربما تساعده في الوصول إلى البيت، حاول أن يتذكر الجيران الذين لا بد أن يلتقي بهم، ويعرِّفهم بنفسه، ويسألهم عن أبيه ... لكن الأعوام أحدثت تأثيرها المؤكد، فلم يرتسم في الذهن إلَّا صورة الرجل وحده، بقامته الضئيلة، وخطواته المتطوحة.

عاوده السؤال في إلحاح: هل يعرفني الرجل؟

ظلَّ الأمر غائبًا عن باله، اعتاد غيابه منذ رفض هجر مهنته أو مغادرة الأنفوشي، يذكر زياراته المتباعدة في طفولته، بكاء أمِّه الصامت عقب انصرافه، الوجوم الذي يلفُّ إخوته، نظراتهم، يطيلون بها التحديق إليه، فسَّرها — فيما بعد — بأنها كانت إشفاقًا على اليُتم الذي فاجأه في حياة أبيه. توزَّعوا في وظائف شتَّى، وإن جمعتهم الشقَّة الصغيرة في بولاق الدكرور، تحدَّدت صورة الأب الغائب في إطار الذكرى.

سافر حسنين — يومًا — في مهمَّة إلى الإسكندرية، عاد، فلم يُشر إلى أنه التقى بالرجل، أو حاول لقاءه، بات كل واحدٍ أخًا وأبًا وأمًّا للآخرين.

حين قذفته سكينة باتهامها، توارى الغضب في الذهول، للهدوء الذي سيطر على الجلسة، اكتفى حسنين بنظرة مؤنِّبة، بينما تشاغل طه بالتشديد على مصطفى أن يصغِّر لقمته.

لم يجد صعوبة في الوصول إلى البيت، خطواته عرفت طريقها دون سؤال.

الظهيرة.

قطع حواري خلت — أو كادت — من المارَّة، القهوة تتمطَّى في التثاؤب، الشارع الضيِّق المتعرِّج — أكثر ضيقًا من صورة ذاكرته — البيت ذو الطابقين، الشجرة المتطاولة إلى النافذة الشرقية وإن عراها الخريف.

غالب الارتباك للنظرات المتسائلة، دون أن يتعرف إليه هؤلاء الذين لم تذهب السنوات الخمس عشرة بهم من ذاكرته.

فاجأه باب البيت الموصد — هل خلا من ساكنيه؟ — فعاد بخطوات متثاقلة.

قبل أن يجاوز الشارع، لمح — داخل القهوة — وجهًا مألوفًا، أعاد النظر، ثم أطال التحديق.

كأنه كان ينتظره.

كان يحتسي الشاي — بمفرده — في ركن القهوة، تبدَّدت مخاوف التوقع لمَّا عبر الرجل المفاجأة، بنظرة تعرفت إليه حالًا.

قال عبد الرحمن في بساطة: كيف حالك يا سلامة؟

وهو يُسلم جسده المتعب إلى الكرسيِّ المجاور: الحمد لله!

تأمله الصاوي بنظرةٍ مشفقة: ماذا تشرب؟

قال سلامة: شربت شايًا في القطار.

– قهوة إذن؟

– لا بأس!

قال عبد الرحمن الصاوي وهو يحيط المكان بساعديه: كما ترى ... تغيَّرت السيالة.

قال سلامة: عرفت الطريق من الحلقة إلى هنا بسهولة.

– لماذا لا تزور أبناءك؟

فاجأه السؤال. هل فطن عباس الخوالقة إلى ما يعانيه؟ هل يفطنون إلى السرِّ الذي حرص على كتمه، لم يصارح به حتى أقرب الأصدقاء؟

– المشغوليات كثيرة كما ترى.

عاود الخوالقة إلحاح السؤال: فلماذا لا يزورونك؟

ها هو سلامة أتى، هل يصحبه إلى الحلقة وقعدة العصر وجلسة أبو العباس، يرى الناس أن الصلة على حالها بينه وبين أبنائه؟

عاود سؤاله: كيف حالك؟

– الحمد لله!

– سكينة وإخوتك ... كيف حالهم؟

أغمض عينيه في تأثر: لا إخوة لي!

ثم وهو يضغط على الكلمات: اسمي سلامة ... وبقية الاسم لا أعرفه.

ارتعشت أهداب الرجل: اسمك سلامة عبد الرحمن الصاوي.

وهو يواجهه بنظرةٍ مشتعلة: عرفت كل شيء!

سكنت ملامحه بالدهشة: أنت هكذا تحيِّرني.

لاحظ سلامة، بركن عينه، نظرةً متطفلةً من الواقف وراء النصبة.

قال عبد الرحمن الصاوي وهو يتهيأ للقيام: أفضل أن نتكلم في البيت.

البداية لا يذكرها. اعتاد الجميع صراخ سكينة، واحتجاجها الدائم. الحمل ثقيل بغياب الأب، ورحيل الأمِّ — فيما بعد — في نوبة قلبية.

قال لها حسنين — ذات يوم — ممازحًا: صدقيني ... لو كان بيدي إيقاف قطار الزواج، لأوقفته!

ربما كان الحديث في نفقات البيت أو المشكلات الدائمة مع الجيران. تصاعد الحوار، وامتد، وتشابك. اعتاد كلماتها المستفزة، فلم يغضب، توقفت أصابعه باللقمة في الطبق لَمَّا فاجأته بالكلمات القاسية.

رمقها بنظرة غير مصدِّقة: تكرهينني لهذا الحد؟!

وهي تشيح بوجهها: هذه هي الحقيقة.

أعاد السؤال: تكرهينني؟!

صرخت: بل إنك لست أخي ... لست أخانا.

أضافت من بين أسنانها: أنت ابن حرام!

وهو ينفض رأسه في غضب: تعرفين معنى ما قلتِ؟

أشارت إلى الإخوة المتشاغلين بما في أيديهم: ويعرفه هؤلاء أيضًا.

حلَّ صمت، عمقه أصوات احتكاك الملاعق بالأطباق، وقلقلة الأطباق، ورنين الأكواب، والتمطق والمضغ والبلع.

قلب الطبلية بأصابع مشنجة: تقتلني ... وتواصلون الأكل؟!

أسند عبد الرحمن الصاوي ظهره إلى الكنبة الاستامبولي: لم أعُد أقوى على الحركة.

فوَّت الملاحظة: لكنك الآن ستأتي معي.

– مَن؟ أنا؟!

زفر يؤكد غضبه: لن تهدأ نفسي قبل أن تؤكد أمام الجميع أبوَّتك لي.

– وهل أنكرت ذلك؟

علا صوتُه: أبناؤك ينكرون!

همس الرجل في نفاد صبر: سلامة ... لا تعذِّب نفسك، ولا تعذِّبني.

تلقَّفته أمواج تعرف المد وجزره، تكومت — فجأةً — غلالات ظلام، فلم يعُد يبصر، سرى في جسمه ما يشبه الإغماء، احتواه إرهاق، فقرر أن يقتعد الأرض حيث يقف، انثالت

— بلا رابط — مئات الذكريات والصور والرؤى والأسئلة، حتى لو أعلن الرجل — أمام الجميع — أبوَّته ... فهل يغيِّر ذلك من الحقيقة شيئًا؟! كلمات سكينة مزقته، فلا سبيل — منذ لحظة الطعام التي لا تُنسى — إلى استعادة ما كان.

– إذَن ...

– الموضوع قديم ... ولا أريد التكلُّم فيه.

ارتمى على كتفَي الرجل بأصابع متقلصة: صارحني ... وإلَّا ...

اغتصب عبد الرحمن الصاوي ضحكةً من أنفه: تقتلني؟!

ثم وهو يهزُّ رأسه: تريحني!

وفرد يده في وجهه: أنتظر الموت منذ سنوات.

تهاوى ذراعا سلامة: لست ابنك إذَن؟

نفض الصاوي رأسه بشدة: أسأت فهمي.

أمسك فنجان القهوة، فلامست يده يد أبيه، أدرك أنهما — ربما منذ مولده — يجلسان معًا، وقريبان للغاية، لا تفصل بينهما سوى الطاولة الرخامية الصغيرة. توقفت يده، وأطال النظر إلى وجه الرجل؛ هل هو أبوه، أو أن سكينة صارحته بما لم يكُن يعرفه؟ وأين يجد ملامحه في ملامح الرجل؟ تداخلت التجاعيد، فغابت الصورة القديمة، أكَّد غيابها سُمرة، واضحٌ أنها من الوقوف في الشمس، وليست اللون الحقيقيَّ لبشرته.

قال بتذلُّل: صارحني.

أغمض عينيه كمَن يتهيأ للنوم: علاقة مع توفيق مكوجي الرِّجل ... لم أصِل — حتى الآن — إلى حقيقتها.

انتزع الكلمات: ولماذا أنا؟

– كان ذلك قبل ولادتك بأشهر.

وهو يُسلم نفسه إلى موجة اليأس: لستَ أبي إذَن.

قال عبد الرحمن الصاوي: لم أقُل ذلك.

التمعت عيناه بأمل: فهل تأتي معي؟

في نبرةٍ متباطئة: لا أقوى على الحركة.

داخَله إشفاق لهيئة الرجل، أهمل ذقنه، فاستطالت شعيراته بلا تهذيب، وثيابه متسخة، وخلا الصديري من الزرارين العلويين، فتداخلت عظام الصدر في الشعر الأشعث.

– كيف أواجه الناس؟

– لا مخلوق يعلم.

– وكيف أتصرف؟

– مثلما تصرفت في الفائت من حياتك.

– الفارق أني لم أكُن أعرف.

– هل زدت أو نقصت شيئًا، بما قالته الملعونة سكينة؟!

همس: سأقتل نفسي!

أمسكه من كتفه: تريد أن تموت كافرًا؟

وهو يضرب راحة يده بقبضة اليد الأخرى: أفضل من مواجهة نظرات الناس.

لوَّن الصاوي نبرة صوته بتهوين: ما يُهمِّك نظرتك إلى نفسك.

مال بعينيه إلى الفراغ جانبه: أشعر بالضياع والخوف.

– وما ذنبك؟

في سخرية يائسة: كان مجرَّد شك.

– ليتك تضع كلماتي في حدود ما تقصده.

بدا الشيخ كأنه يُسلم نفسه لإغفاءة.

قال سلامة ليحرك الصمت الذي كاد يخنقه: بماذا تنصحني؟

انتزع ابتسامة: لم تكُن في حاجةٍ إلى أبيك خلال السنوات الخمس عشرة الماضية … فما حاجتك إليه الآن؟

ثم تساند على نفسه: عُد إلى إخوتك قبل أن يقلقهم غيابك.

تمنى سلامة لو أن أباه وبَّخه، أو شتمه، أو طرده من البيت، يجد سببًا لإفراغ ما بنفسه؛ لماذا يتركه في وظيفته الصغيرة، ولا يكلفه بعملٍ في الحلقة، أعدَّ نفسه له قبل أن يسافر — وإخوته — إلى القاهرة. هو شيخ صيادين، له بلانساته وصبيانه، والتعب الذي يبديه يستطيع أن يريحه منه، هل لأنه يحرص على عدم رؤيته؟ هل يذكِّره بما ينفيه في بساطة البصقة؟

التفت إلى النافذة المطلَّة على شارع العوامري.

كان النهار لا يزال في أوجِه، وكانت الشجرة الجرداء قد توهَّجت في ذؤابات الأصيل.

حنين

تطول وقفتك على شاطئ الأنفوشي. نوَّة الكرم دفعت الناس إلى البيوت. الشاطئ خالٍ، والنوافذ — بامتداد البيوت المقابلة — مغلقة، وضوء النهار تقلَّص على الجدران، رانت ظُلمة رمادية شفيفة، والسحب متراكمة، محمَّلة بالمياه، فأنت تتوقع هطول الأمطار، تتصور الكشك الملاصق للسور في وِرَش المراكب، ملاذًا من الأمطار المتوقعة، والموج يلاطم المراكب المكوِّمة على رمال الشاطئ، تتناثر خيوط المياه والرذاذ إلى منتصف الطريق، لكنك تظلُّ في وقفتك، عيناك لا تتحولان عن السطح ذي السور المتآكل، ومناشر الغسيل، والحُجرة التي يبدو أعلاها في الناحية المطلَّة على شارع العوامري، تعطيك الإشارة في وقت تطمئنُّ إليه. لا تعبأ بالبرد، وتكتفي بقميص النوم، تسند مشنة الغسيل على سور السطح، تجري على الحبال بخِرقة. معنًى تعيه ويثير أعماقك. تضع المشابك في فمها، ثم تبدأ في التقاطها، والتقاط قِطَع الثياب، تنشرها على الحبال بعرض السور، تتابع حركتها بعينين قلقتين تغيبان عن الشاطئ، والبرد، والنظرات العابرة المتوجسة. يتركز اهتمامك في الإشارة التي تتوقعها. تنهي نشر الثياب، تضع المشنة الخالية على رأسها، وتدفع باب الحُجرة المغلق بأعلى كتفها، وتمضي ناحية باب السلَّم. تعرف أن هذه هي إشارة تحركك. تعود إلى العاصفة الصاخبة من حولك، تمسح وِرَش المراكب، والشاطئ، وطريق الكورنيش، ونواصي الشوارع الجانبية، والنوافذ المغلقة، والأسطح. تطمئنُّ إلى إحكام النوَّة قبضتها. لا أحد، والمرأة تميل إلى داخل الحُجرة بدلًا من النزول داخل البيت. تعبر الطريق وقضبان الترام إلى الناحية المقابلة، تخطو في الوسعاية، إلى اليمين دكان الحاج محمد صبرة، أغلق أبوابه اتِّقاء البرد، وإن وشى الضوء — خلف الأبواب الزجاجية — بالحركة في الداخل. تعاني النظرات المتطلعة من أصدقاء الحاج محمد، إذا طالت جلستهم أمام الدكان في أيام الصفو، أو تضطرُّ إلى السَّير حتى الحجاري، والمضيِّ عبر الشوارع الضيقة

الملتوية. تحاذر المشي على أرضٍ موحلةٍ لزجة، والريح تصفِّر من الأبواب المواربة، حتى باب البيت، تدخل — دون تلفُّت — فلا تفطن إلى ارتباكك عينٌ متشككة. تغوص في الظُّلمة المتكاثفة، ترفع خطواتك وتخفضهما بالعدِّ وحده، ثلاث درجات حتى تصل إلى البسطة الأولى، تدور مع السُّلَّم ٨٧ سُلَّمة، آخرها باب السطح الموارب، تنفذ منه بقايا ضوء النهار، تدفع الباب بيدٍ مترفِّقة، تطمئنُّ إلى غياب الصرير، فلا يتنبَّه أحدٌ من سكان الطوابق التحتية. في الطابق الأول — كما أخبرتك — أُسرة موظف في التعليم الإلزامي، تقضي أشهر الشتاء بالقرب من مدارس الأولاد في محرم بك. شقَّة الطابق الثاني تخلو إلَّا من عجوزين تزوج أبناؤهما، وانتقلوا إلى أحياء أخرى. أُسرتها في الطابق الثالث، يعلوها السطح مباشرة، تقيم مع زوجها وابنتها ذات الأعوام السبعة، وأمِّها التي اكتفت بأعوام عملها الطويلة في حلقة السمك، ولزمت البيت. تهمس الخطوات حتى لا تفطن الأمُّ أو الابنة، الزوج غائب — منذ عشرة أعوام — في البحار والبلاد البعيدة.

تتلقَّاك بسؤالٍ لا تبدله: هل رآك أحد؟

تجيب في همسٍ يصل — بالكاد — إليها: لا أحد!

في الخامسة والعشرين. قميص النوم الأسود، المزيَّن بالترتر، ينسدل على جسمٍ ممتلئ، يتناقض مع خصرها البادي النحافة، وشعرها أسود ناعم، عقصته في ضفيرتين، أسدلتهما على جيدها الأبيض العاري، وعلى خدَّيها غمازتان تُكسبانها — إذا ابتسمت — براءة طفلة. يمتدُّ الصمت ولحظات التوقع. هي أدرى بالظروف، ربما تكتفي — لخطرٍ تخشاه — بالكلام معك حتى ينتهي الوقت، فتطالبك بالانصراف.

تفجؤك بالسؤال: ما هذا الوشم؟

وتشير إلى الوشم على ساعدك.

تغالب ارتباكك: أبدًا ... سمكة!

– لماذا؟

– أردت التعبير عن حُبِّي للبحر.

تمصمص شفتيها: أنا لا أفهمك!

تهمس في تخاذل: وأنا لا أفهم نفسي!

تضيف، لتجاوز ارتباكك: متى يعود ثروت هذه المرَّة؟

في صوتٍ تشوبه استهانة واضحة: لا أعرف! ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة.

وتتنهد: اعتدت غيابه!

– أين هو الآن؟

وهي تسوِّي الملاءة — بتلقائية — تحتها: قال إن المركب ستذهب إلى قُرب الحبشة.

تزوي ما بين حاجبيك: بعيد!

في لهجتها المستهينة: أنا لا أعرف إلَّا أن أهلها سود البشرة!

تنبِّهها إلى سبب مجيئك: أنتِ أجمل من أيَّة بيضاء أو سوداء.

تطلق من أنفها ضحكةً مبتورة، تترك يدها لتسلِّل أصابعك، تتلمس حمَّالات صدرها، تستكين، فتنزع الحمَّالات، تدرك أنها أعدَّت نفسها لعناقك، تساعدك — برفع يديها — في خلع قميص النوم، تخلي نفسها للفعل الآتي، تتحقق الرجفة، فتستكين برأسك على صدرها.

تهمس: هل اعتبرتني سريرك؟!

كالمتنبِّه: أنت أجمل من كل شيء في الدنيا!

يعود إليها صوتها المستهين: مَن قال لك؟

بلهفة: جنَّتك التي أعشقها.

تشيح برأسها: كلام الليل …

– لو طلع مليون نهار … فسأظلُّ أعبدك!

يخالط صوتَها حدَّة: وامرأتك؟ وأولادك؟

تبدو الدوامة قريبة: هؤلاء ظروف … أمَّا أنت فدنياي كلها.

في نبرةٍ مشروخة: وأنا دنيا زوجي أيضًا … لكنه يهجرني إلى الدنيا الواسعة.

لا تحدِّثك — هذه المرَّة — عن رحلات زوجها إلى البلاد البعيدة، تثير في داخلك مشاعر صعبة ومعقدة، تدرك أنك ستبرِّئه وتغضبها، تريد أن تقول لها: البحر حياتي. وتقول: لا أحسُّ بالغربة إلَّا وأنا على الأرض. وتقول: لو مت، أتمنى أن أموت في البحر. تفتش عن كلمات ترضيها، ثم تكتفي بالصمت، تسرح فيما لم تتبيَّنه، تدفعك بأطراف أصابعها: هل تنوي المبيت هنا؟

– يا ريت!

بلهجةٍ تقطر جفوة: نَم في حضن امرأتك أحسن!

ثم وهي تدفع الضفيرتين وراء كتفيها: أو أكمل السهرة عند عشيقة أخرى.

تثني إليها نظراتٍ متسائلةً مستغربة.

يداخل صوتَها بحة: أكون حمارة لو تصورت أني المرأة الوحيدة التي تخون بيتك معها.

تهتف بانفعال: والمرسي ...
تضغط على ساعدك بأصابعها: لا تُدخل الأولياء بيننا.
تهمس بالقلق: ماذا جرى لك؟
وهي تغمض عينيها: لا شيء ... أنا كما أنا ... لكنني أكره النفاق!
تهتف باسمها: يسرية!
– لا شيء يا مختار.
وتعاود التنهد: ثروت وحشني!

تفزُّ دون توقُّع، تسدل الملاءة حول جسمها، تسبقك إلى باب الحُجرة، تتأمل قِطَع الغسيل المنشورة على الحبال، تبدو كالأشباح المتطايرة في غياب القمر وراء السحب المتكاثفة، تلحقها، وتعُدُّ السلَّمات إلى البسطة الأولى. لا تحاول التلفُّت، حتى باب شقَّتها تغلقه فور دخولها. تغالب ارتباكك، لا يشغلك إلَّا أن يحتويك الطريق، تمضي في الضوء الشفيف، يصنعه مصباح الغاز في ناحية شارع العوامري، والنور المتسلِّل من النوافذ المغلقة، تميل في انحناءة شارع فهمي الناضوري إلى شارع السيالة، تمضي إلى قهوة الزردوني، تطالعك الصيحات المهلِّلة المتسائلة العابثة. تجلس، وتستمع، وتتكلم، وتسأل، وتردُّ، وتطلق النِّكات ... لكن كلمات المرأة في حُجرة السطح تظلُّ تشغلك؛ لماذا؟ يمتدُّ الليل، ترى السؤال معلقًا في اللمبة الوحيدة خارج القهوة، تظلُّ مضاءةً حتى آخر الليل.

الغوث

قدِم أبو العباس على مريده أبو عبد الله الحكيم بأشموم، فلمَّا جاء الليل، دعاه أبو العباس، دنا الرجل منه، فوضع أبو العباس يده خلف ظهره، وفعل أبو عبد الله الأمر نفسه، وتعانقا. بكى أبو العباس، وبكى الرجل لبكائه، دون أن يدري السبب، قال أبو العباس: يا حكيم، ما جئتكم إلَّا مودِّعًا، يا حكيم، سأذهب إلى المقسم لأودِّع أخي، ثم أعود إلى الإسكندرية، أقضي بها ليلتي، وأدخل في اليوم التالي قبري.

وسافر أبو العباس إلى أخيه، أقام عنده أيامًا قليلة، ثم رحل إلى الإسكندرية، فأقام بها ليلةً، لحقته الوفاة فيها، وشُيِّع إلى قبره في اليوم التالي.

أسندت أصابعها إلى الباب، قبل أن تلتقي ضلفتاه. أغلقته برفق، حتى لا يثير السكون السادر من حولها.

لم تكُن هذه هي المرَّة الأولى التي تغادر البيت، حين يختلط طلوع الصباح بظُلمة الليل. مع ذلك فقد داخَلها خوف، ربما لاعتزامها السَّير في غير الطريق التي اعتادتها، نصحها جابر برغوت بأن تكون زيارتها للسلطان ليلة الأحد قبل طلوع الفجر، فإنه يكون حاضرًا.

مالت من شارع حافظ إلى شارع أبو العباس المرسي.

أحكمت الملاءة حول جسمها، وهي تهبط الميدان الواسع، لفته غلالة رمادية، فبدت الكائنات كأشباح، ميَّزت أضرحة الأولياء أوسط الميدان، الكسوة الخضراء غابت في مظلَّة رمادية، التفَّت بها الأشياء حولها، لا مارَّة، ولِصْق أبو العباس أجسادٌ غيَّبها النوم.

جالت — بنظرةٍ ساهمة — في الميدان الساكن.

اقتربت من شُبَّاك الضريح الأول من اليمين، مسحت بيدها على أعمدته الحديدية، وقرأت الفاتحة. فعلت الأمر نفسه أمام شبابيك الأضرحة الأخرى؛ اثنا عشر ضريحًا. الأولياء أصحاب الدرك يخضعون لإمرة القطب الأعظم، سيدي المرسي، ونواهيه، يقضي بالصالح، فيمتثلون لقراره، وينفذون ما قضى، عذر تأخُّر النُّصفة في انشغال أصحاب الدرك — والقطب من فوقهم — بآلاف الالتماسات من طالبي البُرء والشفاعة والمدد. تعطي للأولياء الميامين عذرهم، يقضون بما يفيض عن الحد. الوليُّ — له التوقير والاحترام — بشر، ينام ويأكل ويطلب الراحة، الإثقال عليه حرام.

وقفت في الميدان الواسع، تعاود الالتجاء إلى القطب الكبير، سلطان الإسكندرية وحاميها، بعد أن أكثرت من اللجوء إلى مريديه، تهدأ وتستريح. يحنن قلب سيد الفرَّان، فيتزوجها، ينسى ما كان من علاقتهما القديمة، يصبح كأنه لم يكُن، يُبعد عنها شرَّ أولاد الحرام، إذا لم يتحقق الأمر، فسترفع المظلمة إلى رئيسة الديوان. تسافر إلى القاهرة، فتقضي أمُّ العواجز بما تشاء، في مجلسها كل خميس.

صعدت — بخطواتٍ متلهفة — إلى باب الحريم، في جامع أبو العباس. تكررت زياراتها إلى المكان. تطوي الرقعة الصغيرة في صورة حجاب، يكتب عرضحالجي المحكمة الشرعية، بشارع فرنسا، ما تمليه عليه، تدسُّ الحجاب في ثنايا الكسوة الخضراء، أو تقذف بها خلال أسوار الضريح، وربما وضعتها على الطرف المقابل من النافذة الحديدية.

قال لها العرضحالجي وهو يلفذُ الدوبارة المربوطة بالنظارة الطبية حول أذنيه: هذه هي الرسالة الثانية بعد الثلاثين.

وطوى الرسالة كالحجاب: يبدو أن الأولياء يرفضون ابتعادك عن الكار.

هتفت وهي تطوِّح الهواء بإصبعها: حتى الهزار لا يصحُّ في هذا.

وتغلِّف صوتها بمسحة إشفاق: ربما نالك عقابهم.

... ...

... ...

لحضرة صاحب الفضيلة، الإمام المرسي أبو العباس، رضي الله عنه، سلطان الإسكندرية، ومُنصف الغلابة والمنكسرين، ومغيث طالبي الشفاعة والمدد.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، سيدنا محمد ﷺ، وآله أجمعين.

حضرة سلطان الإسكندرية، شيخنا الكبير، قطب الطريقة الشاذلية، صاحب المقام الرفيع، صاحب السيادة والفضيلة، صاحب المجد والشرف، سيدي الإمام أبو العباس المرسي، رضي الله عنه وأرضاه.

يا إمام العارفين! يا سيدي! يا شيخي! يا إمامي! يا حاضر المريدين! يا قطب الأولياء!

تتظلَّم إليكم بهذا أنسية بنت جمالات، بنت أنور المدفع، المقيمة في حمَّاكم بمدينة الإسكندرية.

توسلت إليكم بجاه سيدنا محمد الحبيب، أن تقضي حاجتي، وتزيل شدَّتي، يا حاضرًا لا يغيب.

سيدي الإمام.

أنا في عرض الله وعرضك، أتوسل بك إلى الله سبحانه وتعالى، أن تنتقم عاجلًا مستعجلًا ممَّن ظلموني وأساءوا إليَّ، وأن يريني الله فيهم بقدرته — سبحانه — ما يسرُّ خاطري.

أنا أرفع شكواي إلى أهل الباطن ضدَّ مَن ظلموني، واستحلُّوا ما حرَّم الله، وتعدَّوا عليَّ بكل شيء.

احكم بعدلك على هؤلاء القوم الظالمين، اجعلهم موعظةً لَمن يتَّعظ، وعبرةً لَمن يعتبر.

لقد سبَّني إمام جامعك بما يمنعه الله ويحرِّمه، لا يعلم أني ابتعدت عن كل ما يسيء إلى دين الإسلام.

ولَّما ساعدني المعلم عبد الرحمن الصاوي، عاب عليه حمادة بك ذلك، قال له كلامًا فصيحًا، معناه أن الصدقة لأمثالي حرام، مع أني — يشهد الله — أريد أن أبتعد عمَّا يُغضب الله ورسوله، ويُغضبك.

لقد ظلمني هؤلاء الناس كثيرًا، ودائمًا يتعرضون لي بالأذى.

أنا لا أحد لي خلافكم، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

لقد حرَّم الله على نفسه الظلم، وهؤلاء الناس ظلموني.

أتوسل إليك أن تمنع عني حمادة بك ... فهو يضايقني، ويتعرض لي، ويوجِّه لي كلماتٍ قاسية، ويعرض عليَّ أمورًا معيبة، أنت أعلم بها، وقررت أن أبتعد عنها وأخلص لعبادة الله.

إن حمادة بك يريد أن أظلَّ مخلوقةً فاسدة، ولا أعود مثل بقية الناس مخلوقةً صالحة، فهو يدعوني إلى الفعل الحرام، وهذا لا يُرضي الله، ولا الرسول، ولا أنتم أيضًا.

فاحكم بما يُرضي الله، ورسوله، ويرضي فضيلتكم، ويكون الحكم مشمولًا بحضرة النبيِّ المصطفى ﷺ، وخلفائه الكرام، والأقطاب الأربعة، والأنبياء، والمرسلين، والمقلدين، والمجتهدين، والشهداء، والصالحين.

أرجو سرعة الحكم في بحر أيام، لآخذ حقي من هؤلاء المعتدين، لأني امرأة مسكينة، لا جاه لي ولا سند.

أجرني يا سيدي أبو العباس، وانتقم ممَّن ظلمني، وأظهر لي كرامتك فيهم.

أعرِّفك لَمَّا ربنا يبلِّغ المقصود، لك الحلاوة إن شاء الله، أعمل لك خاتمةً لوجه الله، وأنفق على المحتاجين والفقراء، على قدر طاقتي، وأقبِّل عتبة مقامك.

الله يقدرك للعمل الصالح، أنا متعشمة في بطل منصان.

أرجو أن تُظهر لي، وتبين لي بيانك، وتنتقم من الذين تعدَّوا عليَّ بإذن الله.

مددك مددك مددك يا سلطان ... يا مرسي!

أنا محسوبة عليك، والمحسوب منسوب، يا أبا مقامٍ عالٍ.

العبد ليس بيده شيء، وأنتم من عباد الله الصالحين.

... ...

... ...

بدأت بالأولياء الاثني عشر، ثم لجأت إلى قطب الأولياء، يبحث الأمر، ويقضي فيه، إذا حدثت النُّصفة فقد نالت ما تتمنى، أمَّا إذا ظهرت المسألة أكبر من همَّته، فإنه يرفعها بكل ما باحت، ودعت، وابتهلت، إلى الديوان، تتصدَّره الست الرئيسة، يحضره الأئمة؛ الرفاعي والشافعي والبدوي والجيلاني، يناقشون الأمر، يقلِّبونه على كل وجه، يقضون بالقرار الذي يُسعد أيامها، مع سيد الفرَّان أو بدونه، فهم أدرى بصالحها. أرهقتها الأيام، ولا بدَّ لكل شيء من نهاية، طالعها المقام بنورٍ غائب المصدر، وتضوع بخورٌ برائحة جميلة.

تأكدت من التفاف الملاءة حول رأسها، فلا يبين من شعرها شيء. السلطان يراها ويعاين هيئتها، قد يغضبه ما تراه عاديًّا. أخرجت من عبِّها منديلًا، مسحت به على المقصورة، ثم مسحت على رأسها. البركة تسري من السلطان إلى المقصورة، فإلى المنديل، فإلى حياتها.

ثبتت يدها على القضبان النحاسية اللامعة. وحياتك يا سلطان ... وحياة مَن أماتك ووضع فيك البركة، أنا ولية مسكينة، لا أهل لها ولا بيت، لا أريد إلَّا أن يتركني الناس في حالي، إذا كنت غلطانة عاقبني، وإذا كنت مظلومة فلا تجعل الظلم يستمر.

ألصقت شفتيها بالشبابيك، كي يستمع السلطان إلى ما تهمس به، يقضي فيه إن تيسر القضاء، أو يرفعه إلى أولياء الديوان، يقضون بما لهم من حولٍ وقوة، يتحقق مطلبها، فتطلق الزغاريد في أنحاء المقام، إعلانًا للفرحة.

تأكدت من التفاف الملاءة بيد، انحنت، فكنست باليد الأخرى أرضية المقام، ثم قلبت السجاجيد المحيطة به، مقلوبة عليهم إن شاء الله.

وانصرفت.

قبل أن تميل إلى الميدان، شهقت لرؤيته.

لم تتبيَّن في الغلالة الرمادية سوى هالة الشَّعر التي غطَّت وجهه، والعينين يطلُّ منهما بريق غريب.

قال لتراجعها المذعور: ممَّ تخافين؟

تعرف أن القطب يظهر لزائريه أحيانًا، الناس — الآن وفي كل وقت — يتحلَّقون ضريحه ومقامه، يبثُّون شكاياتهم ودعواتهم وابتهالاتهم. هاجس يحدِّثها بأن الشيخ الواقف أمامها هو القطب الأعظم، لا سواه.

حاولت انتزاع الكلمات: أنا ...

قاطعها: أنسية!

أضاف لنظرتها الذاهلة: مشكلتك لها حل.

في توسُّل: أستريح.

– يقضي الله بالصالح.

استجمعت جرأتها: هل أنت ...

قاطعها: سبحانه سيد الخلق.

وذهب متلاشيًا، كأنه لم يكُن!

خامرها ندمٌ لأنها لم تعلق به. تكشف رأسها، وتنحني على قدميه تقبِّلهما، تعلن — بما وسعها — استغاثتها بكراماته ومدده. مفاجأة اللحظة أنستها ما كان عليها أن تفعله، وإن تعزَّت بالابتسامة التي لم تفارقه.

الليلة الكبيرة

إلهي قد خلقت لنا محمدْ،
لك الفضل والجميل على محمدْ.
ونشهد أنك المولى إلهي،
والموصول كالهادي محمدْ.
وقل ما شئت تمدح محمدْ
من البيت الحرام ترى محمدْ.

الليلة التاسعة. الليلة الأخيرة في مولد السلطان.

امتلأ الميدان الواسع بالناس والأعلام والأكشاك والخيام وسُرادقات الأذكار ونصبات القهاوي والغرز والوشَّامين والملاهي وألعاب النشان، وباعة المصاحف وصحيح البخاري وكتب السِّير الشعبية وتراجم الصحابة وأولياء الله والصالحين، والصور الدينية وعربات الأكل والحلوى وباعة الفول والفلافل والمخلل والترمس والخروب والعرقسوس والحمص وحَبِّ العزيز وحلاوة دمياط وألعاب الثلاث ورقات، والسجاجيد والحُصر والكلوبات ولمبات الكهرباء والميكروفونات وأكشاك الختان، وحلقات الذِّكر والفِرَق الموسيقية وعساكر سواري البوليس، والدخان الباهت يتصاعد من مداخن عربات اللب والسوداني.

تعالت البيارق والأشاير والخِرَق الملوَّنة، وأصوات المزامير والدفوف والطبول والمزاهر ودقات الكئوس، والأدعية والابتهالات والصياح والصراخ والملاغية والتوسلات ومناداة الأولياء، والنداء يطغى على كل الأصوات: الله حي! الله حي!

الآلاف وفدوا من الإسكندرية، والمدن — والقرى — المحيطة. نُصبت خيام الخيش، وأكشاك الكارتون، والقعدات التي بلا غطاء، في زوايا الميدان، وفي الدحديرة الخلفية، وفي

امتداد الطريق إلى الموازيني والسيالة والحجاري. شغل القادمون مداخل البيوت، وحنايا السلالم. وفُرشت الحُصر والأكلمة والسجاجيد، وصُفَّت أواني الطعام، وعلب الشاي والسكر، وتعالى وشيش البريموس.

علت لافتات الطرق الرئيسية والفرعية؛ الشاذلية والأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية. أعلام الشاذلية مختلفة الألوان، عكس أعلام الفِرَق الأخرى ذات اللون الواحد.

ازدحمت الساحة الواسعة، المطلَّة على الميناء الشرقية، بالناس والألعاب والبشاير والنايات والموشَّحات والمواويل والضحكات والهمسات والهذيان والصراخ والانجذاب ورشفات الشاي وأنفاس الحشيش وحبش إيطاليا والكرملة وعصاية علي أفندي والأغنيات والأناشيد وزعيق الميكروفونات واللبد والطرابيش والجلابيب والسيالات والملاءات اللف والبلغ والأقدام الحافية والملاحف والسراويل والمسابح والعمائم واللاسات والسيوف الخشبية والأذرع والسواعد وبقايا الطعام وروائح البخور والقيء والعطن والمجاذيب والمصروعين ورجال الطريق والفتاة الكهربائية وفرقة علي الكسار وفرقة المسيري وشاعر الربابة ولعبة القوة والأركان المظلمة والألعاب النارية وألعاب الحظ والمراجيح والدويخة والعرائس والأراجوز وخيال الظل وصندوق الدنيا والحُواة ورقصات الغوازي من صحراء المتراس، ومن خارج المدينة.

القهاوي مفتوحة إلى الصباح، نصباتها من الخشب والصفيح والخيش، ومئذنة أبو العباس التفَّت بأضواء ملوَّنة، وتلاغط من مدائح الرسول، وأذكار الشاذلي، والأوراد، ودلائل الخيرات، والدعوات، وصيحات المنشدين، وحشرجات أهل الذِّكر، وطالبي البُرء والشفاعة والنُّصفة والمدد. جماعات يتلون آيات القرآن الكريم، وأناشيد الترنم بحُبِّ الرسول، والصلاة والسلام على النبي. أجسام الذاكرين تتمايل، وتتهدج أصواتهم، يطيب لهم الذِّكر وترديد أسماء الله الحسنى. يتواجدون، يضطربون، يشحطون، يسَّاقطون على الأرض، يظلون بلا حراكٍ حتى يكبس الشيخ أيديهم وأرجلهم، وإنهاضهم على بركة الله. تتعدد حالات الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم والطرابيش واللبد، ونزع الثياب أو تمزيقها.

مدد مدد ... سيدنا النبي مدد مدد سيدنا الحسين مدد
مدد مدد ... يا طاهرة مدد مدد مدد يا شاذلي مدد
ويا بدوي ... يا مرسي ... يا حنفي يا راضي يا رفاعي سيدي إبراهيم
مدد مدد ... يا شاذلي ... مدد!

العشرات يعزِّمون، ثم يبتلعون الجمرات المشتعلة، يزردون الزجاج، يضعون في الأفواه ثعابين تتلوى، يطعنون الصور بالمدي، يقبضون على الحديد المحمي، يضعون الأصابع في النار، يرتدون الأطواق الحديدية في الأعناق، يلفُّون الأجسام بالسلاسل، يوخزون الوجنات بالإبر الطويلة، تخترق الفم إلى الوجنة الأخرى، يلفُّون الشعور ويلبدونها، يرتدون طواقي السعف والطراطير المزدانة بالريش والخِرَق الملوَّنة، يحملون مزاريق الجريد والسبح الهائلة والشموع.

اعتاد رؤية ليلة المولد، حتى أعوام قريبة، ثم لم يعُد يذهب إليها.

كان الزحام يسعده، يغرق في بحر الناس، يتلذذ بالتصاق الأيدي والأكتاف، ورائحة العرق، والصراخ، والشتائم، ربما اندسَّ في زحام الترام أو الأوتوبيس، ينغرز اللحم الملتصق، والأنفاس، والعرق، يلتذُّ بالضغط من حوله، يغمض عينيه، ويسرح فيما لا يتبيَّنه، وكانت الاحتكاكات تضيف إلى صراخ أعماقه، ثم حرص جُلساء قعدة الحاج محمد صبرة — لا يذكر لِمَ ولا متى — أن يصحبوه في جولاته داخل المولد، يذوب في البحر الواسع، مَن يعرفهم ومَن لا يعرفهم، يتدخل الجُلساء — لِمَ؟ — يبعدون الزحام عنه، حتى يغادر المكان.

قال له المعلم أحمد الزردوني: غدًا الليلة التاسعة لمولد السلطان ... الليلة الختامية.

أردف لملامحه المتسائلة: دخولك الانتخابات يفرض أن تحضر ليلة المولد.

قال عباس الخوالقة: هذه هي الليلة الكبيرة ... وغدًا يبدأ مولد سيدي جابر.

قال المعلم الزردوني: الحاج محمد يملك قائمة بموالد الأولياء؛ أبو العباس ... فسيدي بشر ... ثم سيدي محمد الرحال.

وأضاف: أكل عيشه في هذه الموالد.

قال عباس الخوالقة: لم يعُد محمد صبرة يذهب بعيدًا عن مولد أبو العباس ... ترك بقية الموالد لصبيانه!

قال الحاج قنديل: لا تتعبوا الرجل ... فنجاحه مضمون.

قال المعلم الزردوني: النتيجة الوحيدة المضمونة هي فوز مرشَّحي الوفد.

قال عباس الخوالقة: نحن لا نعرف متى تُجرى الانتخابات، ولا مَن سيرشح الوفد؟

قال الزردوني: قيل: لو رشح الوفد حجرًا لانتخبناه!

قال الحاج قنديل: حمادة بك يستطيع الفوز مستقلًّا.

اعتاد أهل الحيِّ مناداته بلقب بك، منذ صاهر أُسرة سعيد النقيب، ناداه الحاج قنديل باللقب — أول مرَّة — تقديرًا لمكانته الجديدة.

أضاف عباس الخوالقة مهوِّنًا: إنه في قلوبنا نحن، ولن تذهب أصوات دائرة الجمرك إلى سواه.

نزع الحاج قنديل مبسم الشيشة، ومسح عليه بباطن يده: إذا فاز حمادة بك ... نضمن أن يكون لنا في البرلمان سند قوي.

قال حمادة بك: بل تضمن أنك أنت نفسك قد أصبحت عضوًا في البرلمان!

قال المعلم الزردوني: الأمنيات الطيبة وحدها لن تكفي ... لا بدَّ أن يتحرك حمادة بك بين ناخبيه.

كان قد صافح آلاف الأيدي، شرب ما لا حصر له من أكواب الشاي وفناجين القهوة، سار في حواري وأزقة، لم يكُن يتصور أنها تابعة لحيِّ الجمرك، أو أن ناسها يسكنون بحري، تحمَّل المساومات والابتزاز، والملاحظات المتسائلة عن الانتخابات التي لم يبدُ أفقها.

علت الأصوات المؤيِّدة.

قال عبد الرحمن الصاوي: هذا هو ما يجب أن نفعله ... جولة في قلب الليلة الختامية.

قال حمادة بك: لكنها ستكون ليلة زحام.

قال الخوالقة: هذه أفضل دعاية.

قال الزردوني: نحن لا نعرف متى تجرى الانتخابات.

جاوز حمادة بك الملاحظة: المهم ... كيف نسير وسط الجلوة؟

قال الحاج قنديل: دعوا لي هذه المسألة ... ثلاثة عساكر يفسحون الطريق إلى داخل الضريح، لو شئنا!

دفعه الحاج قنديل — مترفقًا — بعيدًا عن موكب المطاهر، يركب الأولاد حميرًا؛ كل واحد ممسك بمنديل أبيض، يضعه على فمه، يقيه من الشيطان، ويحفظه من العين الحاسدة، يتوقف أمام الخيمة الصغيرة، أضاءها — من الداخل — كلوب. جلس الحاج محمد صبرة، إلى جانبه طاولة عليها أدوات الختان، وما يعقبه، أمامه كرسيٌّ صغير، يضع الأهل طفلهم عليه، يتولى الصبي رخا نزْع أسفل جلبابه، وإفساح ما بين ساقيه، يجري الحاج محمد بالموسى، فينتزع قطعة الجلد، قبل أن يبدأ صراخ الطفل، يكتم رخا بيده تواصل الصرخات، فلا يخاف مَن ينتظر دوره من الأطفال.

في أيام مولد السلطان، يفرغ الحاج محمد لعمليات الختان، يغيب عن دكانه، يظلُّ في الكشك الخشبي الصغير، قبالة الباب الخلفي للجامع، لا تكفُّ فيه عمليات الختان.

للسلطان بركته في الذكورة، وعدم الربط، وسرعة التئام الجروح. يستعين بشطورة، ضارب الطبلة من قهوة العوالم، كي يغطي على بكاء الأطفال، وصراخهم.

بدت الجلوة من بعيد ... موجات من البشر.

أبطأ حمادة بك من خطواته، فأبطأ مَن كانوا معه؛ كيف ينفذ وسط بحر البشر، إلى ضريح أبو العباس؟

قال الحاج قنديل: لا تخشوا شيئًا ... العساكر أمامنا يفسحون الطريق.

التصقت الأكتاف بعفوية، وظلوا في أماكنهم.

همس حمادة بك: لا معنى لذلك كله ... الأفضل أن نعود.

قال الحاج قنديل: ويقول الخصوم إنه خشي السير وسط الناس؟!

أرفق الحاج كلماته بدفعه بيده، تلاحمت الموجات الصغيرة المتلاحقة، شكلت موجة عالية، قاسية، ضاغطة، اجتذبته في قلبها، وجد نفسه — فجأةً — قطرةً في البحر الصاخب؛ الصراخ والزعيق والأيدي والأرجل والرءوس والأنفاس ورائحة العرق والعصي والقوايش والأزرار النحاسية. لمح — وسط الموج البشريِّ المندفع — الإفريز العلوي لواجهة أبو العباس، ثانيةً أو أقل، ثم اختفى، لم يعُد إلَّا الموج الضاغط، المتلاطم.

تدافعت الجموع، تلاصقت، أحسَّ أنه يختنق، ينضغط بتدافع الأجسام، يختلف عن الضغط الذي يحبُّه في وقفته أمام باب الترام، أو ما يتطلع إليه في سرِّه المحيِّر. يعاني الدفع، واللكزات، وقبضات الأيدي، وركلات الأقدام، وتمزُّق الملابس، وصعوبة التقاط الأنفاس. لم تفلح ضربات العصيِّ، ولا القوايش، في فكِّ الأجسام التي تلاحمت وذابت، فبدت جسمًا واحدًا، ينتفض ولا يتحرك، أو أن تحرُّكه لا يكاد يبين، اعتصره التلاصق، واختلاط الأنفاس والرائحة النافذة والعرق والنداءات والصيحات والصرخات والتدافع الثابت في مكانه.

تداخلت مجموعة الرجال، ابتعدت عن العساكر، ثم انفصلت بضغط الزحام الهائل، الأمواج أقوى من تفاديها، دفعت بالرجال، كلٍّ في ناحية، ذابوا في مياه البحر الصاخب، بكى الحاج قنديل بلا إرادة، تساقطت الدموع على خدَّيه، دون أن يجد منفذًا في الحصار الضاغط، وخانت الصرخات حمادة بك، تلاشت في الصخب العنيف حوله، وأسلم بقية الرجال أنفسهم إلى الموجات المتدافعة، المتلاحقة، القاسية. لا يقوون على التملُّص أو التقاط الأنفاس، وتحولت النظرات عن السواعد والأيدي والرءوس والوجوه والأقفية. اختلطت المشاهد، تضوي وتختفي، غاب الزمان والمكان، فلم تعُد إلَّا اللحظة، بدأت، وهي التي تحدِّد — إذا انحسرت الأمواج البشرية المتلاحمة المتدافعة — متى تنتهي.

اليقين

متى تنزل أمطار المدد على أرض النفوس الطيبة، والقلوب المطهَّرة، والأرواح المضيئة، والأسرار المقدسة؟

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

لما غادر الحضرة، كانت تهبُّ على ميدان المساجد نسمات خريفية، تماوجت في نفسه مشاعر متباينة، كأنها الفرحة، أو اللذة، أو الانبساط، ففتح قلبه لكل مَن حوله، وما حوله، أحسَّ أنه يطير فوق الأرض، فليس لقدميه وقْع، تسيران ولا تسيران، قوة غريبة تحمله، تمضي به إلى الأمام، وإن بدا له كأنه ينقل خطواته.

كان الطريق خاليًا، لا يرى شيئًا يكرهه، حتى الكلاب التي اعتاد رؤيتها — وتجنُّبها — بالقرب من دكان شبيرو الجزار، لم يعُد يخشاها. طابت له نفسه، استغرق في النشوة فغمرته تمامًا.

قال له الشيخ يوسف بدوي، وهو يغادره: أنت الآن منتهٍ واصل، مقام الصحو والتمكين، وإجابة الحق من حيث دعاه، وإن كنت جاوزت — في الحقيقة — كل المقامات.

زالت العادة، وحلَّت العبادة، جاوز حُجُب التردُّد والشك والخوف، جعل من المجاهدة سبيلًا وحيدًا لأنوار المشاهدة. التجلي والانكشاف أوجبا عليه الصمت والمشاهدة، صمت حتى عن ذكر الله، خشية ألَّا تفد الرؤيا. يغمض عينيه، فتنسدُّ طرق الحواس الظاهرة، وتُفتح الأبواب لحواس القلب، يهبه الله علم أسرار المفاتيح على اختلافها، يفتح به الخصومات والمغالق والمعضلات والمضايق. زهد في الدنيا، مال إلى جانب الآخرة، يحميها

حرس الله، يشرف عليها بعدله، لا تغفل عنها عينه، تكتمل للإنسان فيها طمأنينته. قطع العلائق كلها، وأقبل بكُنْه الهمَّة على الله، شغله التعرُّف إلى جواهر العلوم والأنباء والمعارف، الحقائق التي لا تتبدل ولا تتغير باختلاف الشرائع والأمم والأزمنة. تطلَّع إلى الأفق المبين، نهاية مقام القلب، جلا مرآة قلبه، فلا ينطبع فيها إلَّا وجه المحبوب، تنزه عن أن يشغله أيُّ شيء عنه، لم يعُد يشارك في حلقات الذِّكر، لاذ بالحضرة الواحدية، انصرف بفكره إلى قدس الجبروت، واستدام لشروق نور الحق في سرِّه، يرى اتصال مدد الوجود، ويخشع لذكر الألف. كل شيء موجود به، معدوم بنفسه.

عظمت المحبة، وكثر العطش، وغرق في بحار المنن والآلاء، واستحقَّت الروح رفع الحجاب، وتأهب لورود الإمداد، سافر إلى جُزر قريبة وبعيدة، تناهت أصوات موسيقا، رقصت — في ضوء القمر — بنات الحور.

كان يحسُّ — وهو يصلي — أنه بين يدَي الله العظيم، عن يمينه الجنة، وعن شماله النار، وخلفه الملائكة ألوف، يصلُّون، ويدعون له بحُسن القبول. لا يحصره الكون، فلا تقلُّه الأرض، ولا تظلُّه السماء، والبحار لا ساحل لها، والغوص بلا حدٍّ ولا منتهى.

لمح أنوارًا في أفق قلبه، لاحت، فاطَّلع على ما كان خافيًا. أغرقته سحائب الرحمة، تكشفت له الأسرار، تطهرت نفسه من الهواجس والوساوس الخفية، برئت من شوائبها، صفت وسمت، استحالت إلى روحٍ لطيفةٍ خالصة، تهفو للوصول إلى الملأ الأعلى والمبدأ الأسمى، تشهد من الجمال المطلق ما لا رأت عينٌ، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر. عالَم يتوق إليه، فلا يبلغ معرفته إلَّا بالكشف.

ترك حظوظ النفس في جميع ما في الدنيا، في كل ما يشغله عن الله، انخلع عن كل ما يمتُّ للأرض بسبب، وتحيَّر في ميادين القُرب، صبر على المجاهدات والرياضات، وغلب عليه الشوق إلى المشاهدة. أطال العكوف على باب الحضرة الإلهية، يتطلع إلى انفراجه، يترصد للشرارة حتى يلتقطها، قطع المنازل والترقي في المقامات، فشفَّت الحُجُب الكثيفة، وتقطعت أستار الجلال، وأشرقت شموس العرفان، وصفت البواطن من الشواغل والشواغب، وشعر أنه قد بلغ غاية مقام القُرب والتمكن، حتى السماء السوداء، استحالت قبةً من نور أسود.

مال من الميناء الشرقية إلى الأنفوشي، عبر حلقة السمك، فلم يرَها. غاب عن سمعه تلاغط البيع والشراء، والصيحات التي ناداه بعضها باسمه. انشغل عن نفسه، وعمَّا حوله، بالدفقات والنفحات، تهبُّ عليه، تكشف له عن حقائق الأمور الإلهية.

استقرَّ إيمانه، لم تعُد تشغله تصرفات الحاج قنديل، ولا شتائمه، ولا قلة أو كثرة ما يصطاده، ولا إن كان المزاد في الحلقة يتوقف عنده، أم يفوز به غيره. أحسَّ أنه قد انتقل من ضيق الأكوان، ورحل إلى سماء المعرفة، وأنه على أعتاب الحضرة الإلهية، تهيأ باطنه لتلقي الإلهامات الربانية، أنوار الله وأسراره، يتلقى المدد من الواحد الأحد.

تأمل أمواج البحر المتلاطمة في صخب، أحسَّ أن ما يمور في أعماقه أشدُّ صخبًا، فاض ماء المدد، فغسل أوساخ الوهم. تمَّت المصافاة، حلت المناجاة، فتح باب القدرة، تنزهت الروح في عالم الملكوت، جالت في دنيا الحق، أشرقت عليه شوارق الأنوار، ومقامات الإيمان بالله، وغرقت الروح في بحر التوحيد.

تكامل إشراق نور اليقين، فغطى الوجود، وارتوى من الخمرة الأزلية، تبدَّت أمامه صفات الله؛ العظمة، والعزة، والجلال، والجمال، والكبرياء، والكمال ... انتهى إلى الله، وفي الله. استمرت ذاته في ذاته، وصفاته في صفاته، غاب عن كل ما سوى الله تعالى. لم يرَ في الوجود غيره، استكان لتصورات الآتي؛ يترقى في مراتب الأسماء، يترجل في معراجه، يصعد سماءً بعد سماء، يتلفت إلى عجائب الله وآياته في الكون المحيط، يهمس له الملائكة الملتفُّون حوله: لا تتلفت فتتعثر ... إن السفر طويل، تنفتح السماء واحدةً بعد أخرى، وتُرفع الحُجُب، يصل إلى السماء السابعة، حيث الملكوت الإلهي، ويواصل السير بلا انتهاء، يضاعف من الأوراد والذِّكر والأحزاب، يبين التألق في سدرة المنتهى، جنة المأوى والملاذ السرمدي، يخطو منها إلى حضرة العرش، والرحمن الرحيم قد استوى، ويمضي — بخطوات الفرحة — إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فاجأه عجوز يستند إلى جدار أبو العباس، لم يعرفه، ولا رآه من قبل، وهو يغادر الباب المطلَّ على ميدان المساجد: فيما أرى، فأنت تريد الجنة ... والصوفيُّ الحقيقيُّ يريد ربَّ الجنة!

تأمل العبارة لأيام، حيَّرته، لم يُشر الشيخ يوسف بدوي إلى المعنى فيما قاله، هل يخلص في عبادة ربه، فلا يجد في نهاية المسعى إلَّا السراب؟!

راعه أن خليفة الشاذلية حين ركب حصانه في مولد أبو العباس، لم يُقبل على الشيخ يوسف بدوي، وهو واقف وسط مريديه، والجلوة تميل من الميدان إلى شارع البوصيري، ولا ألقى عليه التحية، ضايقه أن الخليفة يتجاهل شيخه، كأنه ليس من رجال الشاذلية ... فعلى مَن أخذ العهد؟!

مال إلى الوحدة، وائتنس بالانفراد، شغلته القراءة، عرف الطريق الواحدة، طريق الألف، أقبلت نفحات الصبا الرحمانية، الآتية من جهة شروق الروحانيات، والدواعي

الباعثة على الخير. إن لم يكُن قد ملك — في هذه الحياة الفانية — قليلًا ولا كثيرًا، فإن دولة الفقراء ذات السلطان الواسع النطاق، الممدود الرحاب، في جنة الله يوم الدين. يخرج من قبره، فتستقبله نوقٌ بِيض، لها أجنحة، عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها كمدِّ البصر، فينتهون إلى باب الجنة، يدخل عليه أهل الجنة مهنِّئين، حاملين الهدايا والمواهب والخلع، يخبرونه أنه قد بدأ حياته الأبدية، يأتي المؤمنون ربَّ الحق في حُللٍ خُضر، ووجوه مشرقة، وأساور من ذهب، مكلَّلة بالدر والزمرد، وعليهم أكاليل الذهب. تزول اللِّحى والشوارب، وشعر الإبط، وشعر العورة والبطن، ليس لهم شَعر إلَّا في الرأس والحاجبين وأهداب العينين. لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يمخطون. أمشاطهم الذهب، ومجامرهم عود الجنة، ورشحهم المسك، وأخلاقهم على خُلق رجلٍ واحد، يعطي كل واحد منهم قوة مائة رجل في الطعام والشراب والشهوة، يجد لذة شهوته قدر أربعين سنة، تتدفق الأنهار، وتصطفُّ الأشجار، وتهبُّ النسائم، وتغرد الطيور، وتضوع في قصور الأبدية روائح المسك والكافور والزعفران، وثمة شجرة يخرج من ساقها عينان، يغتسل المرء من العين الأولى، فلا يشعث رأسه بعدها أبدًا، ولا يتغير جلده، ويشرب من العين الثانية، فيتطهر جوفه.

– أين أنت؟

نظرة الشيخ يوسف بدوي الثاقبة لاحظت انعزاله عن الجماعة، وعن كلمات الشيخ نفسه، بدا منعزلًا في مكانٍ يعرف هو — وحده — ملامحه.

اعتذر، وإن لم يجب عن السؤال.

نقله حديث الشيخ إلى دنيا يحلم بها، عوالم سحرية يراها ويحيا في قلبها، وإن تشوَّف إلى تفصيلاتها وملامحها. آفاقٌ بلا نهاية من النورانية والروحانية والحقيقة المطلقة.

سرح به الخيال في معاني المفردات، الكلمة تنطلق في آفاق اللانهاية، الرؤى والتكوينات والألوان والظلال.

فاجأه الشيخ حماد، المستند إلى جدار أبو العباس: لا علم ولا عمل إلَّا بصدق التوجه إلى الله ... الإخلاص مطلوب!

أضاف بلهجة مشفقة: لا تشغلك الجنة ... فنعيمها — كما قال شيوخنا — حجاب عن الله!

تذكر ما قاله أمين عزب: هل يصحو فيجد نفسه شديد القرب من نورانية المكاشفة؟!

كان القلب مغمورًا بالمشاهدات؛ الحقائق، والأوصاف، والخواص، والأحكام، والكرامات، والأسرار ... ينادي المنادي: آن لك أن تصحَّ، فلا تسقم أبدًا، وآن لك أن تحيا، فلا تموت أبدًا. يتحول ظاهره وباطنه إلى مسحة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب. يتزوج خمسمائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيِّب. يعانق كل واحدة منهنَّ قدر عمر الدنيا. ينزل عن سرير الياقوت، يمشي في رياض الزبرجد، يخرج إلى صحارى الزعفران، يمرُّ على مروج العنبر وآكام القرنفل وميادين الصندل، لا حر، ولا برد، ولا شمس، ولا قمر. الأطيار تغمس أجنحتها في بحر المسك والكافور، وتجوز فوق الرءوس بأجنحتها، فيطيب المؤمنون عن آخرهم بريشةٍ واحدة، يركب الرجال على خيلٍ من ياقوتة حمراء، لكل فرس جناحان من فضة وجناحان من ذهب، خيل مسرجة لا تغوط ولا تبول، وعلى خيلٍ بلق أجنحتها خُضر، والنساء على نجائب أقتابها من ذهب، وبها البراق؛ رأسه من الذهب الأصفر، وعيناه من المرجان، وجوانبه من الدر، وذيله من اللؤلؤ، وقوائمه من الكافور الأبيض، وحوافره من اللُّجين، وسرجه من الزمرد الأخضر، ورِكابه من النور، ولجامه من الحرير الأخضر.

دهمته الرائحة الغريبة، أَلِفها. الحيطان تآكلت، وبدا الطوب الأحمر من المصيص المتساقط، والبيوت الواطئة القديمة، تستند إلى كمرات الخشب.

ثمة روح مهيب يملأ جوانبه، وأطياف تتراءى من بُعد، أشعَّة ضوء تخترق الظُّلمة المتكاثفة، تعكس شفقًا شفيفًا، يضيء المرئيات حوله، ويضيء نفسه، ثم انعكست آثاره كليةً في نور الأنوار.

هل وصل إلى الغاية القصوى، وتمَّت له معرفة الله؟ هل كُشف عنه الحجاب، وانفتح له علم الغيب؟ وهل تُفتح أبواب السماء بقدرة الله، وتظهر طاقة القدر صافية البياض؟ هل تنعكس على مرآة القلب دنيا لا تعرف الظلام؟ يسعد بمشاهدة الله، وتفيض عليه أنواره، يتلقى فيض التجليات على قلبه، وتنزل أمطار المدد على أرضه الظمأى. لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً ولا إلى وراء، يدخل الجنة، فيتمتع بمجامعة الحور العِين، ويفاكه الأبكار، ويتكئ على الأرائك، ويسعى عليه الوِلدان المخلدون بأصناف الطعام، وألوان الشراب، وطرائف الثمار، والحدائق الوارفة الظلال، والخضرة، والأريج، وأفنان الريحان والياسمين والورد، وأشجار البرتقال والرمان، واللبن، والعسل، والخمر، والموسيقا الحالمة، والغناء الشجي، والأطيار، والحمائم، والرحيق المختوم. يجلس تحت شجرة «التوبة»، شجرة الجنة الوارفة، تتوالد بما لا يتصوره أحد، تمتدُّ أغصانها عاليًا، ثم تعود إلى الأرض، تتجذر فيها، تصبح جذعًا جديدًا، يتغطَّى المكان بظلال النباتات المتسلقة والورود والأزهار المثمرة،

تتوقف فوق رءوس المؤمنين، لا شغل ولا مرض، يعمُّ السكون والطمأنينة والهدوء والسلام، ينمحي الخوف، وينال المؤمن جزاء إيمانه. حتى لو بلغ مرتبة الولاية، فسيظلُّ يأخذ نفسه بالتستُّر والإخفاء. ينشغل — ولو ظاهريًّا — بشئون الدنيا، يبيع ويشتري، ويساوم، ويعقد الصفقات، يحرص ألَّا يعرف الناس حقيقة أمره، فهو واحد من التجار، واحد من الصيادين، واحد من المتردِّدين على السلطان، المريدين له، الساعين في طريقه، المؤمنين بأقواله وبمعجزاته ومكاشفاته، المتطلعين إلى فيض بركته، إلى الشفاعة والنُّصفة والمدد، ربما سكت عن إجابةٍ يعلمها، ويعجز عنها إمام الجامع، في سؤال لأحد المصلين.

ارتفعت القلوع، وامتلأت الصواري بالهواء البارد، ومضى القارب إلى الشاطئ البعيد، الغامض، المحمَّل بالأسرار.

لاحت الأسرار من أكنَّتها، وظهرت الأنوار من سُبحاتها، وارتفعت الحُجُب عن القلب، وظهرت المعاني الإلهية، تجلَّت في مرآة الخيال، فرأتها عين البصيرة، انكشف لها ما في غيابات الموجود.

مكاشفة

انتهت صلاة المغرب، وبدأ نصف الدائرة في الالتفاف حول مجلس الإمام.

حضر الجلسة — بعد غيبة — حمادة بك، لزم البيت — لأسابيع — منذ الليلة الكبيرة لمولد السلطان، زاره أطباء، وعاده أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه، لزم الآخرون بيوتهم — لأيام — حتى استردوا عافيتهم.

ظلَّ ما حدث محور أحاديثهم، تناولوه بالحزن، ثم غلَّفوه بالسخرية، ضمَّنوه نِكاتًا ومفارقات، في زياراتهم لحمادة بك، وفي جلستهم أمام دكان الحاج محمد صبرة، ذكرهم عباس الخوالقة بأنهم نسوا — عند الفرار بحياتهم — زيارة مقصورة السلطان، وطلب الإذن بمغادرة المولد، والدعاء بأن يدعوهم إلى مولد العام القادم: عودة يا رب!

قال حمادة بك: نجوت من الموت مرَّتين في الفترة الماضية.

سرح بعينيه: في المرَّة الأولى، أنقذني الصياد قاسم الغرياني من الغرق في الميناء الشرقية.

قاطعه الحاج قنديل: إنه أحد صبياني ... وخادمك.

قال حمادة بك: أمَّا في المرَّة الثانية فلست أدري — حتى الآن — كيف نجوت!

قال الحاج قنديل: هذه بركات مولانا السلطان.

أردف عباس الخوالقة: وبركات أولياء الله الصالحين ... سادة حيِّنا!

قال الحاج محمد صبرة: نصيحتي أن تأخذ تعويضًا من الحاج قنديل ... فهو الذي دفعك إلى ترشيح نفسك.

قال عباس الخوالقة: لكن المعلم الزردوني هو الذي دفعه إلى حضور الليلة الختامية.

قال الحاج قنديل: في رواية، أنه عاد إلى وفديته القديمة ... فأراد إثناء حمادة بك عن الترشيح بوسيلة مبتكرة.

اغتصب حمادة بك ضحكة: أصدِّق لو أنه لم يكُن معي يوم الهول العظيم!

قال المعلم الزردوني: الانتخابات قادمة ... وستشهدون تأثير مشاركة حمادة بك في الليلة الكبيرة.

رفع حمادة بك يديه، كمَن يتقي خطرًا: توبة!

اهتزت النظارة الطبية على منخار الحاج قنديل: ألن ترشِّح نفسك؟!

قال حمادة بك: السياسة بحر ... لا أجيد العوم فيه.

قال الحاج قنديل: أوجاعك هى التي تتكلم ... انتظر حتى تبرأ.

قال وهو يهزُّ رأسه في تلاحق: للسياسة رجالها!

أطال الصلاة — لحضورهما متأخرين — الحاج قنديل وعبد الرحمن الصاوي. روى الإمام — حتى يأتيا — حلمًا استيقظ في نهايته — وربما قبل أن ينتهي — على أذان الفجر.

لم يكد يلتقط منه طرف خيط البداية، حتى فوجئ بالبداية نفسها في أفواه الحاج قنديل وعباس الخوالقة وحمادة بك، تساءلوا: هل من المعقول أن يشاهدوا حلمًا واحدًا — وإن اختلفت تفصيلاته — في لحظاتٍ متقاربة، فلا يوقفهم إلَّا أذان الفجر؟ يتصورون ما رأوه حلمًا وانقضى.

تراوحت التفسيرات، داخل الذات، أو مع الآخرين ... لكن السؤال الذي بدا ملحًّا، بعد أن روى الإمام ما روى: هل كان ما جرى حلمًا، أو أنه شيء آخر ينتسب إلى معجزات سلطان الإسكندرية وحاميها؟

روى مريدوه الكثير من مواجيده وأحواله ومكاشفاته وكراماته، كان يأخذ علمه من ربه، أيَّ وقت يشاء، بلا تحفيظ من كتاب، ولا درس، يأخذ عن الكون، ويمشي على الماء، ويطير، ويمسك النار، ويحتجب عن الأبصار، ويطوي الأرض، وربما قطع المسافات البعيدة في غمضة عين، وكان يرى الكعبة من موضعه، أينما كان ذلك الموضع، حتى يتجه إليه في صلاته، ويتكلم عن مكة والمدينة وسائر أرض الحجاز، كأنه نشأ فيها، ويشاهد — من داخله — العالم الملكوتي الروحاني والترابي، يحيا مع الملائكة والملأ الأعلى والجن والخضر والأبدال، ويتحدث إلى الراحلين عن دنيانا، ويطَّلع على الخواطر، فيخاطب كل واحد من مريديه بشرح حاله، ويعرف الزائر له قبل قدومه على مسافة بعيدة، وكان يدخل عليه شخص لا يعرف المريدون مَن هو، فيحادثه لحظات، ثم يخرج عنه، لا يتكلم عمَّا جرى أمامهم، ولا يشير إليه، فإذا وقف المرء أمامه، وظلَّ صامتًا، أخبره بما في نفسه،

ونصحه فيما قدِم للبوح به، وعرف عنه إعلامه بكوامن في المستقبل. كان يتوجه إلى البحر، يمشي على الماء، ويراه الناس، دون أن تبتلَّ ثيابه، كأنه يمشي في الأرض تمامًا، لا يشغله عمَّا حوله شيء، ولا يتلفت، وكثيرًا ما رآه الناس يدخل بحر الأنفوشي بثيابه، يظلُّ ساعةً طويلة، ثم يخرج. معظم ما كانت رؤيته وهو في هذه الحال عندما يكون القمر في السماء بدرًا. وكان يطير بلا جناحين، ويغطس في مياه الميناء الشرقية، فلا يظهر إلَّا في المنتزه أو أبو قير، وربما طار إلى مكة، يطوف حول البيت الحرام، ويزور قبر الرسول، ثم يعود إلى مجلسه كأنه لم يغادره، وأقسم مريدوه أنه كان يزور — بجسده — أضرحة أولياء الله؛ السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والشهيد الحسين وغيرهم، دون أن يبرح مجلسه وسط المريدين. وكان لا يغيب عن الله، ولو في حالة الجماع. من بين ما أحصاه: علوم الشريعة كلها، وعلوم الحقيقة كلها، وعلم لغات الإنس والملائكة والجن والطير والوحوش والهوام، وعلم ضرب الرمل والتنجيم ورصد الأفلاك. وكان يتفرس في لغات الحيوان، يعرف ما تقوله وما تريده، فيعيد حكايته على الناس. وكان يسخِّر الجن، وتطيعه. وكان يسمع تسابيح السمك في البحر. ورُوي أنه ألقى على الأرض — ذات يوم — رءوس فجل، تناثرت، وتحولت إلى ثعابين وحيَّات، تفرقت وسط ذهول المريدين، فلم يلحظ أحدٌ أين ذهبت، وعُرف عنه تبحُّره في علم السميا، يسهل عليه به أن يتصرف على ما بالكائنات من خيرٍ وشر، وجلبٍ وطرد. أعماله في الخير كالترياق، وأعماله في الشر كالسمِّ الناقع، وكان يأتي للحوامل والمرضى بالفاكهة في غير أوانها. يتمتم بكلمات، ويمدُّ يده في الهواء، فتلتقط الثمار المرجوة، يدفع بها إلى مَن يطلبها، فيُرضي بها رغبته. كان يعرف أشياء تخفى على البشر العاديِّين، ويكاشف الناس بما في صدورهم، حتى الأفعال التي يكتمونها ويحرصون على عدم البوح بها، يرويها كأنه يراها. يكاشف كل واحدٍ من مريديه بما حدث له في يومه وليلته، ويتصرف — في مجلسه وبين مريديه — بإلهامٍ يشبه الوحي، يخاطب مَن لا تراه عيونهم، يأخذ ويعطي، يسأل ويجيب، ثم يتجه إلى المريدين بالرأي الصواب، وعُرف عنه المقدرة على الكشف عن حال الموتى وسماع كلامهم، وقد يستطيع — بقدرة الله — إحياءهم.

لم ينقطع المدد بوفاة السلطان، ولا انتهت كراماته ومكاشفاته، أمكن له — داخل قبره — أن يرعى مريديه وأتباعه وقصَّاد مقامه. لا ينام — كل ليلة — قبل أن يغادر قبره، يسير — بمفرده — في الأنفوشي ورأس التين، والشوارع والحواري والأزقة المحيطة، يطَّلع على أحوال الناس، ينصت إلى ما يعانون، فيلبي الخير مما طلبوا.

قال الإمام: التفَّ المكان — حول مقام سيدنا المرسي — بغلالاتٍ رقيقة. تصاعدت رائحة نفَّاذة كأنها الأريج العبق، انشق الضريح عن سيدنا بقامته المربوعة المهيبة، ووجهه المضيء، ولحيته الكثَّة، وعينيه اللتين تشعَّان طُهرًا وقداسة.

بدا الخوف — بتأثير المفاجأة — على وجوه النساء القريبات. همَّت أكثر من واحدة بالفرار، لكن النظرة الوادعة المسيطرة ألزمت الجميع بالبقاء في أماكنهن.

تجرأت المرأة أنسية — لا أدري متى ولا كيف تسلَّلت إلى المقام — فاقتربت، تتظاهر بالرغبة في تقبيل قدميه.

زجرتها، لكن سيد المتواضعين أحنى قامته، وساعد المرأة على النهوض، وأحاط كتفيها بأصابع مترفقة: من احتمى بمقامي لا يقدر أحدٌ أن يبعده عنه.

ثم وهو يضغط على الكلمات: قال شيخنا أبو الحسن الشاذلي: احرص أن تصبح وتمسي مفوِّضًا مستسلمًا ... لعلَّه ينظر إليك!

استطرد في صوتٍ مترقق: زادت هموم الناس، فخرجت لأحمل منها ما استطعت.

زالت الدهشة من نفوس المتحلِّقات بالمقام، أقبلن على السلطان يمسحن أدرانه، يأخذن تراب قدميه، يتشمَّمنه، يجرين به على وجوههن.

قال حمادة بك: هل كان السلطان بمفرده؟

هل عرف الإمام ما خشي أن ترويه أنسية لسيد الفران؟ وهل عرف بقية الجالسين، في الحلم القريب، ما حرص على كتمانه بأعوام عمره؟ هل لأنه يرفض إقامتها فيه، أو لأنها صحبته إليه في ليلة الجنون؟ الليلة الختامية أبعدته — دون قرار — عن الوقوف أمام النازلين من ترام الرمل. مجرَّد الاحتكاكات العفوية تربكه، حتى الصلاة في أبو العباس، حرص أن يصلِّي بجوار العمود الرخاميِّ الهائل، ويترك بينه وبين مجاوره مسافة.

قال الإمام: تبعه آخرون ... وقفوا بالقُرب منه.

استطرد كالمتذكر: بدوا غرباء ... اكتفوا بمتابعة السلطان، وإن ميَّزت من بينهم الصياد علي الراكشي. وقال السلطان: جميع الأنبياء خُلقوا من الرحمة، ونبيُّنا ﷺ هو عين الرحمة. وقال: رجال الليل الرجال، وإن أولياء هذا الوقت لَيؤيَّدون بشيء من الغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك. وقال: الصوفيُّ منسوب لفعل الله تعالى به، أيْ صافاه الله تعالى فصوَّفني، فسمِّي صوفيًّا. وقال: الوليُّ إذا أراد أغنى، والله ما بيني وبين الرجل إلَّا أن أنظر إليه نظرةً وقد أغنيته. وقال: والله لو حُجب عني رسول الله، ما عددت نفسي من المسلمين. وقال: لو فاتني

الوقوف بعرفة، ما عددت نفسي من المسلمين. وقال: والله لو حُجبت عني جنة الفردوس طرفة عين، ما عددت نفسي من المسلمين. وقال: الدنيا كالنار، وهي قائلةٌ للمؤمن جريًا يا مؤمن، فقد أطفأ نور قناعتك لهبي. وقال: مَن أحبَّ الظهور فهو عبد الظهور، ومَن أحبَّ الخفا فهو عبد الخفا. وقال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما علامة حبِّ الدنيا؟ قال: خوف المذمَّة، وحبُّ الثناء، فإذا كان علامة حبِّها خوف المذمَّة وحبُّ الثناء، فعلامة الزهد فيها وبغضها ألَّا يخاف المذمَّة، ولا يحبَّ الثناء. وقال: ما دخل بطني حرامٌ قط. وقال: الورِع مَن ورَّعه الله. وقال: الطمع ثلاثة أحرف، كلها مجوَّفة، فهو بطر كله، فلذلك صاحبه لا يشبع أبدًا. وقال: العلم هو الذي يتطبع في القلب، كالبياض في الأبيض، والسواد في الأسود. وقال: أوقات العبد أربعةٌ لا خامس لها؛ النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، ولله عليك في كل وقت منها سهمٌ من العبودية، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمَن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة من الله عليه، إذ هداه الله لها، ووفقه للقيام بها، ومَن كان وقته المعصية، فسبيله الاستغفار والتوبة، ومَن كان وقته النعمة، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضا النفس عن الشهوات، والصبر مشتقٌّ من الأصبار، وهو الفرض للسهام، وكذلك الصابر ينصِّب نفسه غرضًا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر، والصبر ثبات القلب بين يدَي الرب. وقال: العامَّة إذا خوفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا، والخاصَّة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا. وقال: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه؛ المؤمن لا يعتزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرُّ عليها بعد الفعل، والفاجر ليس كذلك. وقال: خلق الله الآدمي وقسمه ثلاثة أقسام؛ لسانه جزء، وجوارحه جزء، وقلبه جزء. وقال: الناس على ثلاثة أقسام؛ عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو ما من الله إلى الله. وقال: الناس على ثلاثة أقسام؛ قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم فهم في الجنة قطعًا، وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا يدخلون النار قطعًا، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم فيخلدون في النار قطعًا. وقال: صلاح العبد في ثلاثة أشياء؛ معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، فمَن عرف الله خاف الدنيا، ومَن عرف النفس تواضع لعباد الله، ومَن عرف الدنيا زهد فيها. وقال: المؤمن لا يرضى لنفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات، أتراه يرضى بالشر؟ وقال: «يسِّروا ولا تعسِّروا.» أيْ دلُّوهم على الله ولا تدلُّوهم على غيره، فإن مَن دلَّك على الدنيا فقد غرَّك، ومَن دلَّك على الأعمال فقد أتعبك، ومَن دلَّك على الله فقد نصحك. وقال: أنا لا أتشفَّى من

أحد، ولا أحمل أتباعي على التشفِّي من أحد. وقال: إذا علمت أنه لم يخرجك إلى مملكته إلَّا وقد كفاك ومنحك وأعطاك ولم يُبقِ لك حاجةً عند غيره، فلا تطلب ممَّن هو بعيدٌ عنك، وتترك الطلب ممَّن هو أقرب إليك من حبل الوريد. وقال: السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين. وقال: الدخول في الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال، والدخول في النار بالشِّرك، والخلود فيها بالنية، والدركات فيها بالأعمال ... ثم مسح السلطان على جبهته براحته ودعا: اللهم إنَّا نسألك الخوف منك، والرجاء فيك، والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناطقين بك عندك، لا إله إلَّا أنت سبحانك، ربنا ظلمنا أنفسنا، وقد تُبنا إليك قولًا وعقدًا، فتُب علينا جودًا وعطفًا، واستعملنا بعملٍ ترضاه، وأصلح لنا في ذرياتنا، إنَّا تُبنا إليك، وإنَّا من المسلمين.

أشار بيده إلى جدار الجامع، من ناحية ميدان الأئمة، انفرج الحائط، فمضى من خلاله إلى الميدان.

قال الحاج قنديل: فاجأني في جلستي المعتادة، أمام دكان الحاج محمد صبرة، كنت قد اعتذرت — قبلها — عن عدم التوسُّط لدى نبيل أفندي قرة، ضابط نقطة الأنفوشي، فيفرج عن علي الراكشي، كان قد أسرف في التطاول، فأعفيته من عقابي، واستدعيت له البوليس، اقتعد سيدنا الكرسيَّ المجاور في هدوء، شمَّر عن ساعديه، فظهر عليهما النور: والعافين عن الناس!

قلت: مَن تقصد يا سيدنا؟

رمقني المرسي بنظرة معاتبة: علي الراكشي ... لماذا لا تعفو عنه؟

– لقد رماني بالباطل.

– ربما أنت المخطئ.

ثم في تساؤل غاضب: لماذا تحاربه في رزقه؟!

ومضى.

قاطعه الإمام: هل رويت كل ما جرى؟

قال الحاج قنديل: علا صوت السلطان، فسمعه العابرون: لم يعُد للبلطجة موضع — منذ الآن — في بحري.

وفي صوت تخالطه نبرة اعتذار: كل إساءة أدب تثمر أدبًا، فليست إساءة أدب.

تطلَّع الحاج قنديل إلى الأمام — من وراء النظارة الطبية — بعينين خائفتين: هل يعاقبني السلطان؟

قال الإمام: عامل الراكشي بالحسنى، فينتهي كل شيء!

قال الحاج قنديل: أرضيته يا مولانا ... وأرضيت كل الصيادين والسمَّاكين.

ثم بنبرة مستعطفة: يبقى رضاء سيدنا السلطان!

قال حمادة بك: بدا السلطان كأنه ينتظرني على ناصية شارع سيدي داوود، والتقائه بالمسافرخانة. كان الوقت ليلًا، والبرد القارس أغلق الأبواب والنوافذ، وخلت الطريق من المارَّة. خمَّنت أنه المرسي من قبل أن يحدِّثني. نزلت الرهبة في نفسي، فلم أقوَ على الحركة ولا الكلام.

قال المرسي وهو يشير إلى البيت المهجور أوسط شارع سيدي داوود: المرأة أنسية أَولى بأن تسكن هذا البيت.

سأل الحاج قنديل: أي بيت؟

قال الإمام: لماذا لا تتركها في البيت؟

لم يطرد أنسية، سرق حاجياتها لتبعد، خشي — إذا واجهها بالطرد — أن تفضح سرَّه.

هتف حمادة بك: إنها أنسية يا مولانا!

قال الإمام: لقد رأيت الحلم بنفسي، وعرفت عن البيت ما لم تذكره من حلمك.

ثم بتسليم: نفِّذ ما يقضي به مولانا السلطان!

قال عباس الخوالقة: تابعته عن بُعد، كنت واحدًا من العشرات الذين لازمت خطواتهم خطواته. طاف — في البداية — بأرجاء الجامع، تأمل التجاويف والمحارات والمقرنصات الصغيرة والصنج المعتقة والزخارف النباتية والعقد المخفف والقباب الصغيرة في الأركان الأربعة. اتجه إلى الباب الرئيسي وهبط الدرجات، دخل جامع البوصيري من بابه الخلفي، تأمل البُردة المحيطة بأعلى الجدران، والإزارات الزرقاء في حوائط الصحن، أبطأت خطواته لَمَّا اقترب من الضريح، وقال كالمتوسل: والله ما رأيت العزَّ إلَّا في رفع الهمَّة عن الخلق.

اخترق الحائط المجاور للضريح. الأنوار تملأ بدنه، وتنبعث من وجوده. هبط في ميدان المساجد، مضى ناحية الأئمة الاثني عشر، قرأ الفاتحة على أرواح أولياء الله، فرَّق بيده من الهواء المحيط يضعه في جيب عباءته.

طاف بنظرته في المكان، أحاطت بالناس والبيوت والأشياء، تكاد تنفذ داخل الجدران، وما وراء النوافذ والشرفات، تصل إلى الشوارع والأزقة البعيدة. في نهاية السيالة، أول الحواري الضيقة الملتوية، المفضية إلى حلقة السمك، ارتفع السلطان في الهواء، حتى اختفى.

غادر الرجال الجامع — في هدأة الليل — بعد أن استكانوا إلى رأي الإمام بأن ما جرى كان حلمًا، توزع في الليلة ذاتها — بكرامات ولاية المرسي — على الفضلاء من أبناء الحي، يجمعهم هدى الله في درس المغرب، وجلسات المحبة أمام دكان الحاج محمد صبرة، يزيدهم — بإرشاده — إيمانًا وتقوى.

لكن السؤال — بما فاجأتهم به الأيام التالية — عاود إلحاحه: هل كان ما جرى حلمًا، أو أنه شيء آخر ينتسب إلى معجزات سيدنا السلطان؟!

محمد جبريل

هنـــداوي